

هي.. هكذا كيف نفهم الأشياء من حولنا ؟

بقلم
أ.د. عبد الكريم بكار

الجزء الثاني

2

30

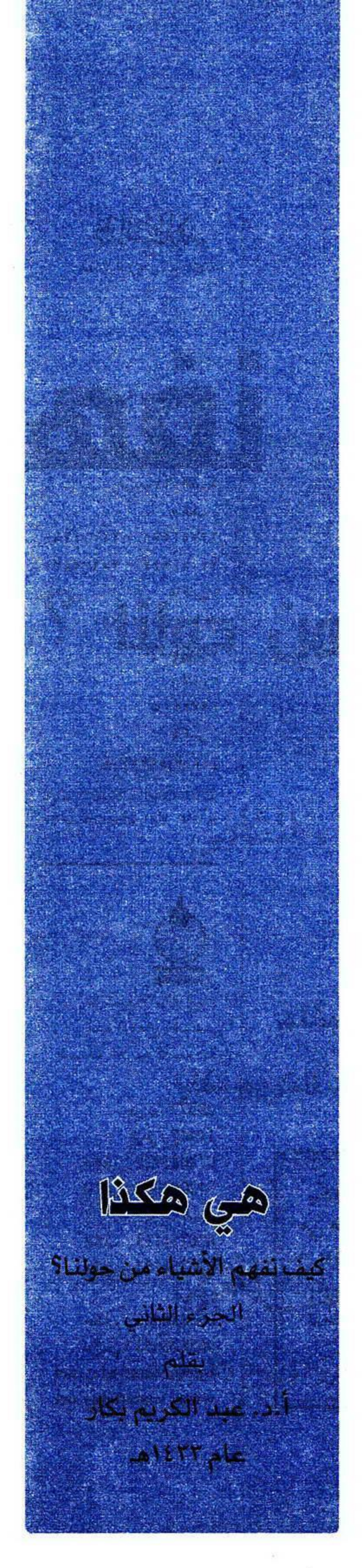
سُنّة إلهية
في
الأنفس والمجتمعات

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


هي هكذا
كيف نفهم الأشياء من حولنا؟
الجزء الثاني
بقلم
أ.د. عبد الكريم بكار
عام ١٤٣٣هـ


مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م.
جمهورية مصر العربية
القاهرة
١٢٠ شارع الأزهر
ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف :
٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨
٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس :
(+٢٠٢)٢٢٧٤١٧٥٠
الإسكندرية
هاتف :
٠٥٩٣٢٢٠٥
فاكس :
(+٢٠٣)٠٥٩٣٢٢٠٤
info@dar-alsalam.com
www. dar-alsalam.com



مؤسسة الإسلام اليوم
إدارة الإنتاج والنشر
المملكة العربية السعودية
الرياض
ص.ب. 28577
الرمز : 11447
هاتف : 012081920
فاكس : 012081902
جدة :
هاتف : 026751133
هاتف : 026751144
بريدة :
هاتف : 063826466
فاكس : 063826053
info@islamtoday.net
www. islamtoday.net

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

بطاقة فهرسة : فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة
المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية .

بكار ، عبد الكريم .
هي هكذا.. كيف نفهم الأشياء من حولنا ؟ / تأليف عبد الكريم بكار . - ط ١ .
- [القاهرة] : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١٢م .
مج ٢ ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٥ ٠٣٠ ٢١٤ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الفلسفة الإسلامية . أ - العنوان .
١٨٩

هي.. هكذا

كيف نفهم

الأشياء من حولنا ؟

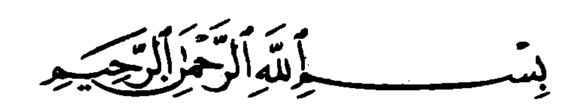
الجزء الثاني

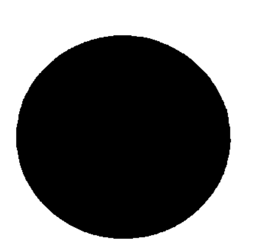
بقلم

أ.د. عبد الكريم بكار

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد إمام النبيين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد صدر الجزء الأول من هذا الكتاب قبل نحوٍ من سنتين، وقد لقي بحمد الله ترحيبًا واسعًا لدى جماهير القراء؛ حيث طبع منه خلال هذه المدة ما يزيد على عشرين ألف نسخة، ومن ذلك اليوم والناس يسألونني، ويسألون الناشر عن الجزء الثاني الذي تأخرتْ كتابته بسبب انشغالي بأعمال أخرى.

إنني أشعر أن لدى الناس اليوم تشوقًا عظيمًا لفهم الأسُس والأُطر والجذور والطبائع لكلِّ ما يحيط بهم، وكلِّ ما يتعاملون معه، وهذا التشوّق في نظري هو تطوّر طبيعي؛ فالوعي الإنساني يقع في حيرة وارتباك شديد حيال هذا الطوفان الهائل من الأفكار والمعلومات والمعطيات المعرفية الوافدة من كل مكان، ولن يجد شيئًا يستند إليه في تحسين كفاءته أفضل من فهم السُّنن الربانية وطبائع الأشياء وطبائع التداعيات

التي تربط بين الأحداث المختلفة. وألاحظ إلى جانب هذا إقبالًا منقطع النظير على الاهتمام بالمقولات والعبارات القصيرة التي تنطوي على حكمة أو فكرة راقية أو قانون أخلاقي أو اجتماعي، وهذا يعبر في الحقيقة عن رغبة عميقة لدى الناس في الإمساك بشيء محدَّد يستخلصونه من طوفان المعرفة الجارف.

إن الهدف النهائي من وراء هذا الكتاب هو توفير أُسُس وأُطُر لفهم التاريخ والواقع والتنبؤ بالمستقبل في حالة شُحّ المعلومات وفي حالة اضطرابها وتقاطع بعضها مع بعض. إن معرفة السُّنن الربانية في الحياة والأحياء تضعنا على الطريق الصحيح للفهم، لكنها لا توضح لنا النسب ولا التفاصيل الصغيرة؛ ولهذا فإننا مع فهم السُّنن نحتاج إلى البحوث والدراسات والإحصاءات المسحية.

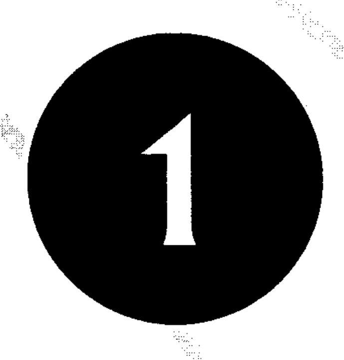
وأخيرًا أودُّ أن أكرِّر ما قلته في مقدمة الجزء الأول من أن السُّنن المتعلقة بالإنسان لا تتمتع بالصلابة والاطراد اللذين تتمتع بهما السُّنن المتعلقة بالأشياء والجمادات؛ ولهذا فإن ما ذكرته في هذا الكتاب هو عبارة عن اجتهاد شخصي، والاجتهادات الشخصية يشوبها دائمًا القصور والغلط وسوء التقدير...

وإني لأسأل الله - تعالى - أن ينفع إخواني القُرَّاء بهذا الكتاب، وأن يجعله في موازين أعمالي يوم لا ينفع مال ولا بنون إنه سميع مجيب.

المؤلف

في ١٠/ ٣ / ١٤٣٢هـ

●●●●



الطبيعة تكره الفراغ



الطبيعة تكره الفراغ

اللهُ الأشياءَ على الميل إلى الامتلاء والتناسق والنفور من الفراغ، بوصفه شيئًا يقود إلى العدم أو يوحي به، وهذه القاعدة قاعدة فيزيائية في الأساس، فنحن حين نحفر حفرة في الأرض، فإن تلك الحفرة لا تظل فارغة بعد استخراج التراب، وإنما تمتلئ بالهواء، وحين نأتي إلى كيس (نايلون) أو ورق، ونفرغه من الهواء، فإن الفراغ لا يمتلئ بشيء آخر حسب ما يبدو، ولكن الفراغ نفسه يختفي من خلال انصفاق جوانبه وأطرافه على بعضها، وهكذا فالطبيعة تملأ الفراغ الذي يقع في متناولها، والإنسان يفعل شيئًا من ذلك لملء الفراغ؛ إذ إن نفوسنا مصمَّمة على أساس الانزعاج من الفراغ، فنحن حين

نجد أنفسنا خالين من أي عمل نشعر بالضيق والعجز، مما يستحثنا على القيام بأي عمل بغية التخلص من الفراغ وما ولَّد، من سأم وكدر، وقد أشار إلى ذلك أحد الشعراء حين قال:

لقد هاج الفراغ لديك شغلًا وأسباب البلاء من الفراغ

ومن المؤسف أن معظم الناس لا يخطِّطون للاستفادة من أوقات فراغهم، مما يجعلهم يملؤونها بالأشياء السيئة، وقد قال أحد الحكماء: إن الشيطان يهيئ الفراغ للأيادي العاطلة عن العمل. وكم من فتاة انحرفت بسبب ما تشعر به من فراغ عاطفي، وكم من شاب أدمن المخدرات والمؤثرات العقلية بسبب افتقاره للأهداف والغايات السامية، مما أوجد لديه الكثير من الأوقات الفارغة. وعلينا أن نقول أيضًا: إن كثيرًا من العظماء والمبدعين ما كان لهم أن ينجزوا ما أنجزوه لولا ما أتاحه الله لهم من أوقات الفراغ، ولولا ما رُزقوه من براعة وهمَّة في استثمارها على أحسن وجه.

● **تطبيقات عملية:**

١ - نحن نعرف أن المجتمع الإنساني[1] هو عبارة عن مجموعة من الناس تعيش في وحدة جغرافية متمايزة عن غيرها، ويربط أفراد تلك المجموعة تاريخ وأهداف ومعتقدات وسمات ثقافية واحدة، كما أن اختيارات تلك المجموعة واحتياجاتها والمخاطر التي تتعرض لها تكون موحَّدة أو متقاربة، مما يولِّد لديها شعورًا جمعيًّا بوحدة الانتماء، ويمنحها هُويَّة واحدة، وعلى مقدار كمال واكتمال ما أشرنا إليه يصبح (الوطن) الذي يعيش فيه المجتمع جذابًا لأفراده، وقادرًا على توحيدهم،

١ - كل نوع من الكائنات الحية يُشكِّل باعتبارٍ مَا مجتمعًا خاصًّا به.

ودفعهم إلى التضحية من أجل مصالحه الكبرى، وهذا يعني بالضرورة خفوت صوت الانتماءات الصغيرة، والتلوينات العرقية والطائفية والطبقية... وذلك لأن (الوطن) يصبح هو القاسم المشترك الأعظم بين جميع المواطنين.

يحدث (الفراغ) حين لا يتمكن هذا المشترك الأعظم من جذب الناس إليه، وهذا ما نسميه بضعف الشعور الوطني، وبما أن الطبيعة تكره الفراغ فإن الناس يقومون بالنفخ في الانتماءات والخصوصيات؛ ليجعلوا منها شيئًا يربط بعضهم ببعض، ويوفر لهم نوعًا من الحماية من الضياع في مجتمع لا يشعرون بالانتماء الواضح، أو الصادق إليه. وهذا في نظري سُنَّة من سُنَن الله - تعالى - في الخلق.

السؤال هو: لماذا يضيع المشترك الأعظم في مجتمع من المجتمعات؟

أو: لماذا يضعف الشعور بالانتماء الوطني؟

الجواب في نظري بسيط جدًا وهو لا يتمثل في غنى الأوطان وفقرها أو في خضرتها وتصحّرها، ولا في كونها في مكان استراتيجي أو هامشي، وإنما يتمثل في شعور بعض فئات المجتمع بأنها مهمَّشة، أو مظلومة أو محرومة مما تعتبره حقًّا طبيعيًّا لها، وأشد ما يحطم القاسم المشترك هو التمييز بين المواطنين في الحقوق وفرص العمل؛ لأي سبب من الأسباب.

٢ - هناك في عالم التجارة والاستثمار يكون في الغالب نوع من الانسجام بين مقادير الأرباح الناتجة من عمليات المتاجرة والاستثمار والتمويل، ودرجة المخاطرة، فكلما كانت المخاطرة أكبر كانت النسبة المتوقعة - في حال نجاح الصفقة - أعظم والعكس صحيح. في بعض الأحيان يحدث فراغ في السوق، فيحصل المُمَوِّلون لسلعة من السلع - مثلًا - على نسبة ربح أعلى بكثير مما هو

سائد، وبما أن الطبيعة تكره الفراغ، فإن ذلك لا يدوم كثيرًا، ولا سيما إذا كانت تلك السلعة من السلع الأساسية التي تُستهلك بشدة؛ وذلك لأن هناك آلاف العيون المفتوحة بقوة على أي فرصة استثمارية جيدة. الذي يحدث هو أن المحتالين يصورون دائمًا لعديمي الخبرة، ومن لديهم شيء من الغفلة أن هناك فرصًا هائلة لم ينتبه إليها أحد سواهم، وإن معرفتنا بهذه السُّنَّة تجعلنا نُوقِن بأن كلامهم ينطوي على خداع واحتيال، أو أن تلك الفرص جديدة جدًّا؛ ومِن ثَمَّ فإن محاولة الاستفادة منها محفوفة بالمخاطر، ولا أنسى أن أشير إلى أن في السُّنن المتعلقة بالإنسان نوعًا من المرونة، ولهذا فقد تولد فرص استثمارية كبيرة وآمنة وتستمر مدة طويلة، لكن هذا هو الشذوذ الذي يؤكِّد القاعدة.

٣ - الإنسان كائن متسائل، وهو أيضًا كائن متوجِّس، يخشى من محيطه ويخشى من الظواهر الطبيعية الخطيرة مثل: الزلازل والبراكين والصواعق والسيول... كما أنه يخاف من المستقبل، وما يمكن أن تأتي به الأيام... هذا كله يدفعه إلى أن يحاول فهم ما يمكن أن يشكل خطورة عليه، ويعرف أسباب ما يشاهده، وإذا عدنا ألفي سنة إلى الوراء فسنجد أن ما كان متوفرًا من المعرفة الموثوقة لفهم كل ذلك لم يكن متوفرًا؛ ومِن ثَمَّ فإن الإنسان شعر بفراغ فكري هائل، وبما أن الطبيعة تكره الفراغ، فإن الإنسان عمد إلى الأسطورة والخرافة والخيال، وما يرد من أخبار عن مشاهدات الناس هنا وهناك... ليجعل منها أدوات للفهم والتفسير والتعليل، لو نظرت على سبيل المثال إلى خوف الإنسان من المستقبل وحرصه الشديد على معرفة ما يعينه على الاستعداد له والتعامل معه، فإنك ستجد أنه لجأ إلى قراءة الكفِّ والفنجان ومطالعة الأبراج، كما أنه اتَّخذ من التشاؤم أداة للتحذير مما قد يقع من

سوء وشرّ. محاولات ملء الفراغ امتدت إلى الأخبار والقصص والمرويات عن الأجيال السابقة، حيث يسعى الإنسان دائمًا إلى أن يظلّ ما يرويه في إطار السائغ والممكن مهما كان غريبًا، كما يسعى إلى تعليل ما يرويه حتى يكون موضع قبول وتصديق، وكل ذلك من أجل سدّ الفراغ في المرويات وجعلها في نطاق المعقول والمفهوم. حين يسمع الإنسان حكاية وينسى بعض أجزائها، فإنه يُعمل مخيلته في توليد أجزاء تتناسب مع ما تبقّى في ذاكرته منها، وتنسجم مع العبرة العامة المتوخاة من وراء سَوق تلك الحكاية، وهكذا فإننا نجد أن هناك عشرات الصيغ للحكاية الواحدة..

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - **حدوث الفراغ شيء مألوف في كلّ مجالات الحياة وعلى المستويات كافَّة، ولا يستطيع بنو البشر مهما أُوتُوا من وعي وقوة مَنْع ذلك، مع أن الطبيعة تكرهه.**

٢ - **متابعة الواقع ومراقبته؛** فقد يحدث فراغ هو عبارة عن فرصة سانحة لتحقيق العديد من الأهداف، كما يحدث في عقب الأزمات الكبرى؛ حيث ينسحب الكثير من الشركات الضعيفة من السُّوق، فتعمل الشركات القوية على التفرد ببعض السلع؛ وقد يكون الفراغ عبارة عن مشكلة كبرى، تحتاج إلى معالجة سريعة وإلا مارس دوره المدمّر، وهذا ما نجده في حياة كثير من شبابنا وفتياتنا؛ حيث إنهم يعانون من فراغ فكري وروحي هائل، مما دفعهم إلى الاهتمام بالتَّوَافِه، وأقعدهم عن طلب المعالي والمكرمات، وأعتقد أننا في حاجة إلى الكثير من البرامج التثقيفية والكثير من التدريب الروحي والسلوكي حتى نملأ ذلك الفراغ..

٣ - يحدث الفراغ في كل المجالات والوضعيات والذين يرونه قبل غيرهم هم أهل المجال الذي حدث فيه الفراغ، لكن الذين يبادرون منهم إلى الاستفادة منه هم أهل المبادرة والجرأة والمغامرة المحسوبة.

●●●●

2

الـروح...
محدودة بحدود الجسد

هي...
هكذا



الروح...
محدودة بحدود الجسد

الزوجية في الكون من أعظم مبادئ الوجود التي أرساها الواحد الأحد - سبحانه - فهناك الروح والجسد، والشكل والمضمون، والمظهر والجوهر، واللباب والقشور، والمحوري والهامشي... وصدق الله - تعالى - إذ يقول: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

العلاقة بين الروح والجسد هي علاقة تلازم، فالإنسان يتحوَّل إلى جُثَّة هامدة حين تغادره الروحُ، ويأخذ طريقه إلى التحلُّل سريعًا، ولهذا فلا جسد من غير روح، وحين تخرج الروح من الجسد تنقطع صلتنا بها، وتصبح وكأنها غير موجودة، مما دعا بعضهم إلى إنكارها.

---

٢ - سورة الذاريات: ٤٩.

حين تثور الروح فإن الجسد يبذل جهدًا هائلًا من أجل الاستجابة لثورتها والسعي في مراداتها، وحين تُهزم الروح وتستكين، فإن الجسد يبدو وكأنه محطّم. حين نمارس الرياضة، ترتفع معنوياتنا، وتزداد ثقتنا بأنفسنا، وحين تحقّق أجسادنا نصرًا تنتعش أرواحنا.

الروح في شرحنا لهذه السُّنة تتمثل في المعنويات المرتفعة والنوايا الحسنة والغيرة والعزيمة والشجاعة والإقدام والإخلاص والتوثب الروحي وكل الإمكانات الروحية والمعنوية. أما الجسد فإنه يتمثل فيما لدينا من قدرات ووسائل وأساليب وممتلكات وخبرات عملية يمكن استخدامها في مجالات الحياة المختلفة.

السُّنَّة التي أحاول شرحها هي: أن الروح مهما كانت متوهجة وصادقة ومندفعة، فإن تأثيرها وإنجازها ونجاحها يظلُّ إلى حدٍّ مَا خاضعًا لإمكانات الجسد، وذلك نابع من أن الله - تعالى - فطر الإنسان على العجز عن الإنجاز الباهر من غير استخدام بعض الأدوات وأحيانًا بعض المواد، ولا شك أن الجسد هو مأوى الروح، وهو أداتها أيضًا في تحقيق الرغبات. حين يتقدَّم الإنسان في السِّن إلى حدِّ الهرم، فإن كل حواسه تضعف، فيضعف معها تواصله مع العالم الخارجي، كما أن ما يملكه من توازن أثناء الحركة يضعف هو الآخر، ويصبح الجسد مع ذلك مرمى لسهام الأمراض المزمنة، وهذا كله يجعل أشواق الروح عبارة عن أمنيات لا تجد سبيلًا للتجسُّد في شيء ملموس.

- **تطبيقات عملية:**

١ - أب يحبُّ ولده المراهق حبًّا جمًّا، ويسعى إلى أن يكون من أفضل الناس

في كل شيء، لكن هذا الأب يفتقر إلى ما يساعده على بلوغ ذلك، فهو لا يملك ثقافة تربوية جيِّدة، كما أنه مُتقلِّب المزاج وسريع الغضب، وهو بالإضافة إلى ذلك يحاسب ولده على كل صغيرة وكبيرة، كما أنه في خصام مستمر مع زوجته، وهذا كله جعل ولده ينفر من مجالسته، ويؤثر الإكثار من التردد على من هم في مثل سنه من الأقرباء والأصدقاء، وكانت النتيجة هي الرسوب المتكرر في المدرسة، ثم الخروج منها قبل إكمال المرحلة الثانوية...

إن الروح متوفرة لدى ذلك الأب، وهي حبه لولده والرغبة في تفوقه والسعي إلى ذلك، لكن تحقق الروح ظل محدودًا بحدود الجسد، وهو هنا جهل بالأساليب **التربوية الصحيحة، وعدم تمكن الأب من جعل نفسه قدوة صالحة لولده.**

٢ - بلد لديه قادة ممتازون وشعب متعلم ومبدع ونشيط ومتكاتف، لكن مساحة الأرض التي يعيش عليها ذلك الشعب ضيِّقة وشبه خالية من المعادن والموارد الطبيعية، كما أن المياه فيها عزيزة، أي أننا أمام حالةٍ تتفوق فيها الروح على الجسد، أو حالة فيها فائض في الروح وتضاؤل في الجسد، فكيف تكون حالة الرفاهية المتوقعة لشعب ذلك البلد؟

- دعونا نقول: إن اليابان تقدم نموذجًا واضحًا لما نحن بصدَدِهِ؛ حيث يقف الشعب الياباني على أرض غير معطاءة ولا مستقرة لكنه يحمل ثروة هائلة في رؤوس أبنائه وأرواحهم، إن الشعب الياباني سيظلُّ أفضل حالًا من شعوب تملك الجسد لكنها تفقد الروح المتوقدة والعقل المشتعل، كما هو الشأن في بعض الدول الأفريقية الغنية جدًّا بالثروات الطبيعية والمياه لكن التخلف بكل أشكاله يعوقها عن استثمار تلك الثروات لصالح أبنائها. إن الشعب الياباني لا يستطيع أن يتمتع بالرفاهية

التي يتمتع بها الشعب الأمريكي أو شعوب دول تملك ثروات هائلة مع عدد سكان قليل كما هو الشأن في بروناي وقطر والإمارات العربية المتحدة... وهذا لأن الروح بكل تجلياتها تظل محدودة بحدود الجسد بكل أبعاده التي أشرنا إليها.

٣ - زوجان متحابَّان يشعر كل واحد منهما بأنه محظوظ إذ ظفر بشريكه بسبب التعلق الروحي الذي بينهما، لكن هناك معطيات كثيرة لا تساند ذلك، فهو يحمل شهادة عالية، وهي شبه أمية، وهو من أسرة ثرية وراقية، وهي من أسرة فقيرة وبسيطة، كما أن تلك الزوجة غير قادرة على الإنجاب، وهناك من يلحّ على الزوج بأن عليه أن يبحث عن زوجة تنجب له فلذات الأكباد...

كيف يمكن لحياتهما اليومية أن تسير؟ وكيف يمكن لانسجامهما العام أن يكون؟ لا شك أن ما بين الزوجين من تباين في الخلفية الثقافية والمعرفية، ومن تفاوت في المصالح سيترك أثرًا بينًا في درجة تفاهمهما؛ بل إن ذلك قد يؤثر في استمرار العلاقة الزوجية، وهذا لأنه لا يمكن للتعلق الروحي أن يكون مكتملًا مع عدم استناده إلى مقومات ومعطيات معقولة ومدركَة، ومن هنا نفهم المعنى العميق لما يُقرِّره كثير من الفقهاء من اشتراط الكفاءة في الزوج، ونفهم ما ساد من أعراف اجتماعية في مسألة اختيار الرجل لشريكة الحياة ومسألة موافقة الآباء على من يتقدَّم إلى خطبة بناتهم.

٤ - على مدار التاريخ كان ولاء الإنسان المسلم لأُمَّته قويًّا، وكانت أشواقه عارمة تجاه وحدة المسلمين واجتماع كلمتهم، وهذه الأشواق ما زالت متأججة وقوية، وهذه هي الروح التي نتحدث عنها في هذه السُّنة، لكن الأشواق وحدها لا تكفي لتوحد المسلمين إذا لم تتوفر معطيات موضوعية تجعل من الوحدة مصدرًا

لمكاسب ملموسة، ويمكن أن نتساءل على سبيل المثال: ماذا يمكن أن يكون رأي شعب مسلم يسكن في دولة صغيرة، ودَخْل الفرد لديه ثلاثون ألف دولار في السَّنة في شأن إنشاء وحدة اندماجية مع شعب مسلم مجاور يتفق معه في العقيدة والتاريخ والثقافة، لكن هذا الشعب فقير جدًّا إلى درجة أن متوسط دخل الفرد من أفراده لا يزيد على ثلاثة آلاف في السنة، أي أن الشعب الثري يعرف أنه إذا وافق على الوحدة مع الشعب الفقير، فإن دخل الفرد لديه سيهبط من ثلاثين ألفًا في السنة إلى نحو من سبعة عشر ألفًا؟

إن الجواب من أُفقِ سُنَّة: « الروح محدودة بحدود الجسد » سيكون هو عدم موافقة معظم أبناء الشعب الثري على التوحد مع الشعب الفقير؛ وذلك ببساطة لأن أبناء الشعب الثري سينظرون إلى الوحدة على أنها مصدر إفقار لهم.

نعم سيوافق على هذه الوحدة نسبة ضئيلة قد لا تصل إلى (١٠٪) وهؤلاء هم الذين يعتقدون أن التوحد بين المسلمين مبدأ يجب أن يتحقق، وبما أنه مبدأ، فإنه لا يخضع للحسابات المادية. وسترتفع نسبة الموافقين على الوحدة من أبناء الشعب الثري إلى نحو من (٨٠٪) أو أكثر إذا كان دخل الفرد لدى الشعبين واحدًا أو متقاربًا جدًّا، وهذا من أسرار تماسك الاتحاد الأوربي.

● كيف نتعامل مع هذه السنة؟

١ - الأساس في كلِّ أوضاعنا وأنشطتنا ونجاحاتنا هو الروح، أي ما نملكه من نية وحماسة وإرادة وعزيمة ووعي، وحين تُفقد هذه أو جلُّها فإن كثيرًا من إمكاناتنا وقدراتنا يصبح من غير معنى، تمامًا كما هو شأن جيش مدجج بالسلاح، لكنه يعتقد

اعتقادًا جازمًا أنه سيهزم هزيمة منكَرة في المعركة التي يحمِّسه قادته على خوضها.

٢ - لا بد عند الإقدام على أي مشروع - من أي نوع - من أن نفتح عيوننا جيِّدًا على ما في حوزتنا من إمكانات ومعطيات ووسائل، وما نحن فيه من ظروف، وما يمكن أن يواجهنا عند تنفيذ ذلك المشروع من تحديات وعقبات، فالنوايا الحسنة والحماسة المشتعلة لا تكفيان لتحقيق النجاح الواضح.

٣ - بالعمل الشاقّ والمثابرة وحسن التخطيط يمكن للإنسان أن يخفف من آثار شُحّ الموارد وضعف الإمكانات.



3

يكتسب الشيء...
دلالته من محيطه

هي...
هكذا



يكتسب الشيء... دلالته من محيطه

حكمةُ الباري ﷻ أن يكون هناك ما لا يُحصى من العلائق والارتباطات المتنوعة بين كل مفردات الوجود، حتى إننا نستطيع أن نقول: إن كل ما يبدو لنا معزولًا هو في الحقيقة جزء من شيء آخر، وإن هذا الكون على اتساعه وعظمته ليس شيئًا قائمًا ومستقلًّا بنفسه، بل إنه يمضي في سياق الخضوع والاستسلام لإرادة الخالق – سبحانه – وحسن تدبيره.

هذه السُّنة من السُّنن المهمة؛ لأنها تساعدنا على فهم كثير من الأمور، وتفتح أذهاننا على كثير من الدقائق.

● **ولعلّي أحاول شرحها عبر المفردات الثلاث التالية:**

١ _يُجمع الباحثون الكبار في شؤون اللغات على أن جميع اللغات تعاني من (القصور الذاتي)؛ حيث إن نظم الدلالة ونظم التفسير والفهم لا تفي بحاجات اللّاغين على الوجه المطلوب، حتى إنني أكاد أقول: إن اللغة كما أنها وسيلة للفهم والإفهام يمكن أن تكون وسيلة لحجب المعنى وتضليل السامع، وهذا ما دعا أحد الباحثين إلى القول: إن اللغة ذات طبيعة مراوغة، وأبدى باحثون آخرون نوعًا من اليأس من إمكانية تحسين دلالة الألفاظ على معانيها؛ ولذا صرخ أحدهم: لا تسأل عن معنى الكلمة، ولكن سلْ عن استعمالها، وقال أحد كُتّاب القصة الإنجليزية: **ينبغي للإنسان أن يحمل معه على ظهره الأشياء التي ينوي الحديث عنها!**

وقد كان أسلافنا على وعي بهذا حين أطلقوا العديد من العبارات الدالة على أن الشيء قد لا يتضح معناه أحيانًا إلا من خلال ذكر ضده، وذلك كقولهم: وبضدها تتميز الأشياء.

وقولهم: والضد يُظهر حسنَه الضد.

وقولهم: إن للشوهاء فضلًا على الحسناء؛ إذ لولا ما لدى الشوهاء من قبح ما ظهر حُسن الحسناء. نعم لو لم يكن بين النساء امرأة قبيحة، فكيف نفهم دلالة كلمة (جميلة)؟ ولو لم يكن في البلد أي جبان أو بخيل فكيف يعرف الناس فيه معنى كلمة شجاع أو جواد؟....

٢ _نستطيع أن نقول: إن إدراكنا للمعاني قد تأسّس على أن الشيء الذي نريد فهمه أو التحدث عنه هو أشبه بخرزة في عقد، وهذا واضح جدًّا في أمور لا حصر

لها، خذ على سبيل المثال الكلمات الدالة على تقديرات الطلاب في النجاح، حيث إنك تجد أنه لا معنى لكلمة (جيد) أو (مقبول) أو (ممتاز) لولا أنها جزء من منظومة متكاملة، وانظر إلى الرقم (٢) فإنه سيكون غير مفهوم لدى أي أحد لولا أنه مسبوق بالرقم (١) ومتبوع بالرقم (٣)... وحين تُحرم كلمة من بعض السياقات والقرائن التوضيحية، فإن دلالتها على المراد تكون ضعيفة للغاية، فلو أن واحدًا منّا سمع رجلًا يتحدث في الإذاعة، عن رجل توفي وترك مالًا كثيرًا، كيف نستوعب معنى (كثيرًا) هنا هل هو ألف، أو مئة ألف أو مليار، أو عشرون مليارًا؟ كم هو؟ **لا أحد يعرف، وذلك - كما أشرت - لأن الكلمة قاصرة في دلالتها على مضمونها، ومحرومة مما يساعدنا على فهمها على نحو أفضل، حتى الألفاظ الدالة على العدد تعاني من القصور في الدلالة على المعدودات فإذا قلنا عندي ثلاثون أو خمسون لم تعرف المراد حتى تقول: خمسون ألفًا من الدراهم أو الدنانير أو الرجال...، أي إن المعنى المقصود لا يُفهم من الكلمة الواحدة، وإنما من حقلها الدلالي الذي** يشتمل على عدد من الكلمات المترابطة والمتظاهرة على بلورة معنى واحد.

٣ - نستطيع القول: لكلِّ شيء وجودان: وجود ذاتي ووجود علائقي: الإنسان والحيوان والنبات والجماد وكل ما يخطر في البال من الأشياء يتمتع بوجود مستقل محسوس وملموس وذلك من خلال خصائصه وميزاته والحيِّز الذي يشغله... وله إلى جانب هذا وجود علائقي؛ فالإنسان الناضج يرتبط بعدد كبير من العلاقات: زوج، أب، جد، ابن، أخ، طالب، معلم، رئيس، مرؤوس، صديق، زميل، عضو في منظمة، زبون، جار، صديق.

إن من الممكن أن نصف بهذه الصفات أشخاصًا كثيرين من الناس، وكل صفة هي

رمز لعلاقة، وكل علاقة تشكل قناة للتفاعل الإنساني وانتقال للخبرات والأفكار والمشاعر، مما يعيد صياغة الإنسان على نحو جديد جدًّا إلى درجة أننا نستطيع القول: إن الإنسان السلبي والمنعزل عن المجتمع هو نصف إنسان، أو إنسان ناقص. نحن في الغالب ندرك الوجود الذاتي، ونهمل التفكر في الوجود العلائقي، مع أنه من أعظم مصادر امتياز الإنسان عن الحيوان، وقد آن لنا أن ننظر إلى كل الأشياء من خلال العلاقات التي تربطها بغيرها، فالشيء كثيرًا ما يكون ابن علاقاته.

● تطبيقات عملية:

١ - يعظم الشيء، ويكبر، أو يهون ويصغر بحسب الظروف المحيطة به، من مقاصد وحيثيات وعقبات، وهذا صريح وواضح جدًّا في قوله ﷺ: « **سبق درهم مئة ألف درهم** » قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: « رجل له درهمان، فأخذ أحدهما، فتصدق به، ورجل له مال كثير، فأخذ من عُرْض مَالِه مئة ألف درهم، فتصدَّق بها »[٣]. إن المتصدَّق به هو درهم في الحالتين لكن هذا الدرهم يشكل نصف ما يملكه المتصدِّق الأول، ومئة الألف ربما كانت تشكل واحدًا على مئة مما يملكه المتصدق الثاني، وهكذا فإن الدرهم لا يتمتع بقيمة مستقلة، ونجد قريبًا من هذا في حديث علماء الاقتصاد عن (دخل الفرد)؛ حيث ذكروا أن علينا أن ننظر إلى دخل الفرد من أفق (القدرة الشرائية) للعملة المستخدمة، إذ إن المواطن السوداني أو الأفغاني يكون غنيًّا إذا كان دخله السنوي عشرة آلاف دولار في السنة، أما المواطن السويدي أو السويسري، فإنه يكون فقيرًا جدًّا إذا كان يحصل على مثل هذا الدخل، وذلك بسبب الارتفاع الفاحش

---

٣ - رواه النسائي وغيره.

للأسعار، ولك أن تقول مثل هذا في رجل ينفق على أسرته عشرة آلاف في الشهر، ودخله مئة ألف؛ حيث إنه قد يكون في نظر أسرته شحيحًا جدًّا إذا ما نظرت تلك الأسرة إلى جارهم الذي يتماثل دخله مع دخلهم إلا أنه ينفق على أسرته ثلاثين ألفًا.

٢ - التناسق هو أهم معيار من معايير الجمال؛ بل إن بعض الفلاسفة يقولون: إن التناسق هو الجمال عينه، وهكذا فالعين الواسعة والفم والأنف الصغيران وأهداب العيون الطويلة... تعد جميلة في نظر الناس؛ لأن أضدادها ليست جميلة، لكنها قد تفقد الكثير من بهائها وجاذبيتها إذا لم تظفر بالتناسق، فالعيون الكبيرة جدًّا - مثلًا - في وجه صغير جدًّا تفقد الكثير والكثير من جمالها، وهكذا كل الأشياء الجميلة تفقد سحرها حين لا تتناسق مع ما حولها، حيث الافتقار إلى الغير، وهذا يكاد يشمل كل شيء، فنحن - مثلًا - نعرف أن من المستحسن أن يكون للكِتَاب وللخطبة والمحاضرة مقدمة، ومن المنطقي والمألوف أن تشكل المقدمة جزءًا مما ذكرناه قد يصل إلى العشر، وإن المقدمة تفقد الكثير من جمالها ومنطقيتها لو كانت تشكل معظم الكتاب أو معظم الخطبة، وقل مثل هذا في نوعية الكلام المتداول في جلسة سمر، أو انسجام؛ حيث إن مما يخل بالتناسق، التحدث بكلام يؤذي روح الجلسة، مهما كان ذلك الكلام فصيحًا وصوابًا، وقد عبَّر عن هذا المعنى أحدهم حين قال:

ذكر الجفا وقت الصفا جفا.

إن الكلمة القاسية أو غير المهذبة ممجوجة في الأصل، لكنها حين تكون في سياق الرد على كلمة فاحشة، أو قاسية جدًّا، فإنها قد تكون هي الكلمة المناسبة؛ لأن النطق بكلام ناعم لطيف مع شخص همجي قد يعبر عن الضعف وانعدام الغيرة

والشهامة، وقد قال – جل وعلا –: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[4].

٣ – من الواضح أن وقع الأعطيات والمنح في نفوسنا لا يكون مجردًا عن بعض الحيثيات المتصلة به انطلاقًا من سنة ارتباط الأشياء بمحيطها وبيئتها، وقل مثل هذا في إحساسنا بالمصائب والكروب، وعلى سبيل المثال فإنه إذا كان حقِّي في شيء ما هو مئتين وأُعطيتُ ثلاثمئة، فإنني سأكون مغتبطًا ومسرورًا، لكن الأمر لن يكون كذلك إذا كان حق الذي أعطاني في ذلك الشيء هو مئتين، وأخذ أربعمئة، حيث إنني في هذه الحال لن أشعر بالامتنان، وإنما سأشعر بالظلم؛ لأن غيري أخذ أكثر مما أخذته، ونحو من هذا إحساسنا بالمصائب، فالمرء يشعر بثقل المصيبة حين يجد أنه وحده الذي أصيب بها، كما لو احترق بيت زيد من الناس دون سواه، وسيكون الأمر مختلفًا لو أن الحي كله تعرض لحريق، وسيكون الإحساس مختلفًا أكثر لو كان ما احترق من دار زيد هو غرفة واحدة، إنه سيشعر آنذاك بلطف الله – تعالى – ورحمته، وفي هذا المعنى تقول الخنساء – رضي الله عنها –:

فلولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكين مثل أخي ولكن	أسلِّي النفس عنه بالتأسي

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ – من الواضح جدًّا أن قصور النظم اللغوية يتجلى بوضوح في التعبير عما هو

---

٤ – سورة النساء: ١٤٨. قال بعض أهل العلم: يجوز لمن ظُلم أن يدعو على من ظلمه، وأن يجهر بالسوء لمن جهر له به، ومع ذلك فالعفو أَوْلى.

من قبيل الكيف والوصف، وهذا يجعلنا لا نعي مدلول الكلمات الدالة على ذلك من غير الاعتماد على السياق والمحيط والحيثيات... وليس هناك حلّ جذري لهذا المشكل، لكن يمكن التخفيف منه من خلال التوجه إلى استخدام (اللغة الكمية) أي الأرقام والأوزان والمقادير والمقاييس، وعلى سبيل المثال، فإن الأفضل أن نقول: إن ثروة فلان تقدر بمليون عوضًا عن القول: إن فلانًا يملك الكثير من المال.

٢ - ما دام كل شيء يتأثر بمحيطه، ويستفيد قدرًا من دلالته وفاعليته منه فإن علينا الاهتمام بالبيئة: البيئة في المنزل والعمل والمدرسة.... وإن العالم كله اليوم يشتغل على هذا الموضوع، فأنت لا تستطيع تغيير أفكار الناس وطباعهم، ولا تستطيع حملهم على ما لا يريدون؛ ولذا فالأفضل هو توفير البيئة التي تساعدهم على أن يكونوا صالحين ومنتجين ومتعاونين...

٣ - الاهتمام بالتناسق والتناسب، تناسق ألوان ما نلبس، ومدى مناسبة تصرفاتنا وأقوالنا للجوّ السائد، وهذا يكون من خلال التركيز على عدد من الأمور، منها تنمية الحسّ الجمالي وتنمية الذوق الرفيع من خلال الاهتمام بأذواق الناس ومشاعرهم. العناية الشديدة بالعلاقات التي تربطنا بالناس من زملاء ورؤساء ومرؤوسين وأصدقاء وأقرباء، فمن خلال العلاقات الجيدة نستمتع بالحياة، ونستفيد الكثير مما يُصلحنا في أمور ديننا ودنيانا، كما أننا أيضًا نُمتّع غيرنا ونفيدهم.

٤ - تعميق مفهوم النسبية، والتعددية؛ فالأشياء لا تتبدى لكل الناس في مظهر واحد، والناس لا ينظرون إلى الأشياء من زاوية واحدة، وإنما من زوايا مختلفة، ولهذا فإن أحاسيسنا تجاه كثير من الأمور لا تكون مُتّحِدة أو متطابقة.

4

لا تتسع مرحلة...
سابقة لمرحلة لاحقة



لا تتسع مرحلة... سابقة لمرحلة لاحقة

هذه السُّنَّة قول الله -جل وعز-: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[٥]، لم يكن في وسع علمائنا الأولين إدراك مسألة اتساع الكون بسبب عدم توفر ما يكفي من المعرفة ومن الأدوات لإدراك ذلك، ولهذا فإن ابن كثير قال في تفسير ﴿ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾: (قد وسَّعنا أرجاءها، ورفعناها بغير عمد حتى استقلَّت كما هي)[٦]، فهو يرى أن التوسعة قد انتهت. ولم يكن لدى علماء الفلك أي معلومات حول الاتساع المستمر للكون حتى كان عام (١٩٢٩م) حيث شاهد عالم الفلك الأمريكي (إدوين هابل) بواسطة التلسكوب أن المجرات تتباعد

٥ - سورة الذاريات: ٤٧

٦ - تفسير ابن كثير: ٧/ ٤٢٤

عن بعضها البعض بسرعات هائلة.

إن حركة ابتعاد المجرات تعني توسع الفضاء (الكون) وامتداده، وإن لفظ (موسعون) يدل على هذا؛ حيث إنه (اسم فاعل) من أوسع، وهذه الصيغة تدل على الاستمرار، وفي هذا دلالة أخرى على صدق محمد ﷺ وعلى أن الكتاب العزيز هو كلام الله البارئ المصور.

إن توسع الكون صار في النصف الثاني من القرن العشرين موضع اتفاق بين الفلكيِّين، وهذا أسقط فرضية أزلية الكون؛ حيث ثبت أن للكون بداية ونهاية.

إنني من خلال تأمل سيرورة الأفكار والنُّظُم والأوضاع والعلاقات وجدت أنها جميعًا تنتقل من الضيق إلى السعة، ومن البساطة إلى التركيب والتعقيد، إنها فعلًا تتسع وتتمدد كما يتمدد الكون، وكما هو الحال في كل مفردات الشأن الإنساني، فإن هناك استثناءات قليلة، تؤكِّد القاعدة. لو تساءلنا عن أسباب وجود هذه السُّنَّة، فإنه يمكن لنا أن نتحدَّث عن الآتي:

١ - إذا عدنا مئات السنين إلى الوراء، فإننا سنجد أن معظم الناس كانوا يعيشون في البوادي والقرى والهُجُر، وقسم قليل منهم يعيشون في المدن؛ حيث كان الحصول على الطعام هو الهمَّ الأكبر الذي يسيطر على الناس، وإن البادية والريف هما موطن استنباته وتوفيره. في البادية والريف يكون كل شيء بسيطًا ومحدودًا، وبالتالي فإن الناس كانوا يدبرون أمورهم، ويديرون شؤونهم مع القليل القليل من المعارف والنظم والأدوات، لكن هذا يتغير باستمرار مع تكاثر الناس، وتحولهم إلى سكنى المدن. في المدن تكون الكثافة السكانية عالية، وهذا يزيد في التوتر مما يتطلب من كل شخص أن يدقق في كلامه، ويحسب خطواته حتى لا يقع التصادم بينه وبين

الآخرين، وهذا بمفرده كافٍ لإنشاء ثقافة ذات طابع معقَّد؛ ولهذا فإن ابن البادية يجد نفسه حين ينزل إلى المدينة في مأزق كبير، فهو لا يحسن التعامل مع الناس، ولا يستطيع حماية مصالحه - على نحو جيد - من عدوان المحتالين، ويبدو في نظر أبناء المدينة وكأنه لا يملك ما يكفي من الحصافة للاختلاط بهم والتعامل معهم، ومما يذكر في هذا السياق أن أحد قادة جيوش عمر بن الخطاب ﷺ ولّى على إحدى الكتائب رجلًا بدويًّا، فبلغ ذلك عمر، فقال له: ويحك أتولّي بدويًّا على حضري؟!

وذلك لأن البدوي بخلفيته الثقافية البسيطة لا يستطيع إدارة الحضري واستيعابه على نحو جيد.

٢ - على مدار التاريخ كانت التقنية هي التي تطور الحياة اليومية للناس؛ حيث **يوفّر التقدم التقني المزيد من الأدوات التي تمد في سلطان الحواس، فيصبح الناس أكبر قدرة على إنجاز المهام، مع راحة أكبر لأبدانهم، كما أن توفر الأدوات يستلزم تطوير النظم،** وهذا يمكن أن تلمسه في كل مجال، خذ على سبيل المثال النظم الكثيرة والمعقَّدة التي تطلَّبها وجود الطائرات المدنية؛ حيث صار لدينا نظام جوي للسير يشبه إلى حد نظام المرور على الأرض، وتقوم على تشغيله ومراقبته هيئات دولية ومحلية، وحين تتوفر النظم، فإن الناس ينقسمون إلى قسمين: عارفين بالنظام وجاهلين به، وهذا يستلزم معاهد وكليات لتعليم من لم يعلم مما يعني اتساع الخبرات والمعارف المتعلقة بتلك النظم، ولو افترضنا أن شخصًا خبيرًا بنظم الطيران توفي قبل خمسين عامًا، أحياه الله اليوم، فإنه سيجد ما كان لديه من معارف وخبرات غير كافٍ للتوظف في مؤسسة تعمل على تنظيم حركة الطائرات

في العالم؛ لأن تطور الطائرات وتكاثرها اقتضى تطوير نظم الطيران واتساعها وكثرة المعارف المتعلقة بها، وقل مثل هذا في المجال الطبي والعسكري والهندسي والصناعي، وكل المجالات دون استثناء.

٣ - مرور الأيام والليالي وتوالي الأحداث مما يضفي التوسع على الأفكار والأوضاع والنظم والمعارف... وذلك من تراكم المعارف والخبرات ومن خلال الحلول التي يوجدها الناس لحل المشكلات التي يواجهونها وتجاوز العقبات التي تعترض سبيلهم، ولك أن تنظر في بدايات التأليف عند العرب وكيف كان عبارة عن ملاحظات متفرقة في كل علم من العلوم، ثم تقارنه بما آل إليه الأمر من وجود عشرات العلوم المتشعبة والمنظمة تنظيمًا عاليًا، وإذا أخذنا (العلوم الطبية) نموذجًا، فإننا سنجد أن ما كان لدى شيخ الأطباء (ابن سينا) من معارف طبية لا يكاد يصل في حجمه ودقَّته إلى مستوى ما لدى طبيب عادي من أطباء اليوم، ولك أن تنظر كذلك إلى الأسلوب الذي اتبعه أهل الدراية بالاقتصاد قبل ثلاثمئة عام في مواجهة البطالة والجوع والقحط ثم تقارنه بما كتبه علماء الاقتصاد اليوم حول مشكلة البطالة وكيفية معالجتها، لتجد الفارق الماثل بين المعالجين، ولتجد أن كلام السابقين في هذه المسألة بدائي للغاية، وغير ممحَّص ولا مختَبر.

● تطبيقات عملية:

سأكتفي هنا بذكر نموذجين تطبيقيين لهذه السُّنَّة:

١ - الاجتهاد الفقهي:

لو تأملنا في بِنْية الشريعة الإسلامية لوجدنا أن فيها حوافز ظاهرة وخفية على

الاجتهاد، ومن تلك الحوافز: أنه ﷺ ذكر أن لمن اجتهد فأصاب له أجرين، أما من اجتهد فأخطأ، فله أجر واحد، ولا يخفى مع هذا أن معظم نصوص الكتاب والسنة ظنية في دلالتها على المراد، ولهذا فإن مجال الاختلاف في فهمها والمراد منها يظل رحبًا، ويمكن أن نضيف إلى هذا وذاك ما هو ملموس بقوة من أن ما لا يختلف باختلاف الزمان والمكان من الأوضاع والأحوال فقد تناولته النصوص تناولًا مفصّلًا كما هو الشأن في العبادات، أما ما يختلف باختلاف الزمان والمكان، فقد تناولته النصوص تناولًا مجملًا، كما هو الشأن في كثير من القضايا الاقتصادية والإدارية والسياسية، وهذا يعني أن على أهل كل زمان أن يجتهدوا من أجل توفير غطاء فقهي لنوازل زمانهم، وهذا هو الذي فعله فقهاء المسلمين. إن الصحابة - رضوان الله عليهم - وجدوا أن ما أخذوه عن رسول الله ﷺ في مسائل العمران وإدارة شؤون البلاد - مثلًا - غير كافٍ لزمانهم، فاجتهدوا، وبعد عصر الصحابة وجد التابعون أن ما تركه الصحابة - رضي الله عنهم - من الفتاوى والأحكام ليس كافيًا لتغطية ما استجد من أوضاع، فاجتهدوا كذلك، وهكذا فعل تابعوهم، ومن تبعهم، وهذا ما يفعله الفقهاء و ما تقوم به المجامع الفقهية اليوم، وهذا كله يؤكِّد السُّنة التي نتحدث عنها؛ حيث لا تتسع معارف ونظم ومفاهيم مرحلة سابقة لمرحلة لاحقة.

٢ - التنظيم الإداري:

لا نختلف أن رسول الله ﷺ كان يتصرف على أنه رئيس لدولة المسلمين، لكن جهاز الدولة لديه كان في أبسط صوره؛ حيث لم يكن هناك وزراء ذَوُو مهام محدَّدة، ومع أن النبي ﷺ كان يستشير أصحابه في الكثير من الأمور، إلا أنه لم يكن هناك مجلس للشورى معلوم الأعضاء، كما أنه لم يكن هناك جهاز للأمن والشرطة

بالمعنى الدقيق للكلمة... وبعد وفاة النبي ﷺ أخذ كل شيء يتبلور ويتعقّد حتى صار هناك دواوين للجند والموظفين، كما صار لدى المسلمين (عملة) متداولة وصار لديهم بيت للمال يتمتع بخزنة وقيود تنظم ما يدخله، وما يخرج منه، وهكذا أخذ كل شيء في الاتساع والتعقيد. ولو أننا تأملنا في أحوال تنظيم الدول اليوم لوجدنا أن الإحاطة بالنظم والقوانين واللوائح المتوفرة لدى كل دولة ـ تتطلب تخصُّصًا جامعيًا، ولا شك أن هناك عشرات رسائل الماجستير والدكتوراه التي تتمحور حول القوانين والنظم الإدارية الموجودة داخل كل قطر، وتلك التي تتعلق بالنظم العالمية، ولهذا فإن ما كان سائدًا من نظم وقوانين إدارية قبل قرن من الزمان غير كافٍ اليوم لتسيير دولة عصرية، حيث استجد الكثير من الأمور وتم طرح الكثير من الأسئلة التي لم يكن لدى السابقين أي إلمام بها.

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ – نحن نحترم جهود السلف، ونعتز بها، لكن علينا أن نميِّز بين جهودهم في فهم النصوص وبين جهودهم في فهم الحياة وتفسير الظواهر الكونية وإسداء النصح حول التصرف حيال المشكلات، لا شك أن قربهم من مرحلة البعثة وصدر الإسلام أعطاهم ميزة فريدة في فهم النصوص وتعليلها، وفهم الدين على نحوٍ عام، لكن الأمر ليس كذلك في شؤون الحياة الأخرى؛ إذ إننا كلما رجعنا إلى الوراء كانت الخبرات البشرية أقرب إلى مرحلة الولادة والطفولة، ونحن اليوم في مرحلة النضج في معظم مناحي الحياة، ولهذا فلا ينبغي أن تتحول إنجازات السلف إلى عوائق أمام التحديث والتطوير، كما أن علينا أن نكفَّ عن التغني بأمجاد السلف

والافتخار بانتصارات لم نخضْ معاركها. إن تعقد كل النظم واتساع كل مجالات الحياة يجعل إنجازات السابقين ذات دلالة رمزية ليس أكثر، وعلينا عوضًا عن ذلك أن نتساءل عن جهودنا في الإضافة لما أنجزوه، وأن نحاول نقده، فالنقد أحد وجهي البناء.

٢ - علينا أن نقتدي بأهل القرون الثلاثة المفضَّلة في جرأتهم على الاجتهاد؛ حيث إن المسائل التي طرحوها، وأبدوا آراءهم فيها كانت كثيفة جدًّا، والأمَّة اليوم في حاجة إلى مثل ذلك الإقدام؛ لأن التطور السريع الذي نشهده اليوم يحتاج إلى أن نواكبه برؤى وآراء وأفكار تجمع بين التأصيل والتحديث.

٣ - اتساع المرحلة اللاحقة يتطلب منا أن نتلقى الجديد بعقول وقلوب مفتوحة، وهذا لا يعني بالطبع أن نتقبل كل جديد، فهذا لا يقول به عاقل، لكنه يعني الاستعداد للتفهم والمناقشة والتنازل عن بعض آرائنا القديمة حين يلوح لنا الصواب بقطع النظر عن قائله.

٤ - انتهى زمان العالم الموسوعي؛ لأن المتراكم من المعرفة في السابق كان محدودًا، ولهذا فقد كان في إمكان المرء أن يكون مرجعًا وحجة في عدد من العلوم، أما اليوم فإن لدينا قدرًا هائلًا من المعارف والخبرات والملاحظات، ولذا فلا بد للتعامل معه من التخصص والتخصص الدقيق، ولهذا فإن من المهم أن نحفِّز كل شاب من الشباب على أن يكون له شيء محدد يهتم به ويتقنه، ويُعرف به.

●●●●

5

الإنسان كائن متذمر

هي... هكذا

5 فهم

الإنسان كائن متذمر

الطبيعة البشرية، وانعكاساتها في السلوك ومحاولة النفاذ إلى ملابسات كل ذلك - من الأمور المهمة في إدراك الواقع وتذليل سبل التعامل معه.

الإنسان كائن شاكٍ متذمر، ما في هذا شك، وحين يقرأ كثير من الناس هذا العنوان يظنون أن الشكوى شيء سلبي في حياتنا، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه.

التذمر عبارة عن انزعاج داخلي بسبب شعور الإنسان بوجود تصرفات أو أشياء لا تُرضيه، أو هو عبارة عن شحنات سلبية يطلقها الإنسان للتعبير عن انزعاجه. والهدف العام من التعبير عن الانزعاج يتمثل في تخفيف الكرب العصبي وفي لفت الأنظار إلى شيء ينظر

إليه المتذمّر على أنه سيئ أو غير صحيح... وأَوَّد أن أبادر إلى القول: إن شيئًا من التذمر ضروري جدًّا لتوازن الشخصية واستقامة الحياة العامة، والتذمر من هذه الناحية يشبه (القلق) قليلُه نافع، وكثيره ضار. والحقيقة أن التذمر دليل على وعي الإنسان بمحيطه، ودليل على امتلاكه درجةٍ حسنة من الحيوية العقلية والروحية، ولهذا فإن البشرية اتخذت من الشكوى محرِّضًا على التقدم، ولا نعرف دور الشكوى في التقدم الحضاري إلا إذا تصورنا شعبًا منغمسًا في الملذات مع الشعور بأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان. الإنسان كائن متذمر، هذا ما تخبرنا به التجربة الإنسانية، وأعتقد أننا لو رجعنا إلى التاريخ لما رأينا أي أهل زمان راضين عن زمانهم، والغريب أن الناس يتذمرون من واقعهم، فإذا صار تاريخًا شعروا بنوع من الحنين إليه، بل أحيانًا نلمس ما يدل على أن الناس يعتقدون أن الماضي دائمًا هو الأفضل، ويصوِّر لنا عروة بن الزبير ذلك بقوله: رحم الله خالتي حين كانت تقول: رحم الله لبيدًا حين كان يقول:

ذهب الذين يُعَاش في أكنافهم ... وبقيت في خلْف كجلد الأجرب

لو أن لبيدًا عاش إلى زماننا ماذا يقول؟ ويقول عروة: رحم الله خالتي عائشة لو عاشت إلى زماننا ماذا كانت تقول؟ وقد صدق من قال:

كل من تلقاه يشكو دهره ... ليت شعري هذه الدنيا لمن

يخرج الطفل من رحم أمه صارخًا تأسيسًا منه لحياة شاكية، وحين يموت يصرخ أهله ليكون آخر حياته مثل أولها.

الكل يشكو ويتأفف، ويُظهر الضيق والعوز، لكن شكوى المعدمين غير شكوى المترفين، قوم يشكون من قلة الطعام وقوم يشكون من عدم تمكنهم من قضاء

إجازة الصيف خارج بلادهم، وبين هؤلاء وأولئك أطياف واسعة من الشاكين والباكين.

لماذا يتذمر الإنسان؟

قلت: إن القليل من الشكوى طبيعي ومطلوب؛ لأن دلالات الكف عن الشكوى على نحوٍ ظاهر تؤشر إلى أمور سيئة، ومن الواضح أن وضع الحدود الفاصلة بين ما هو مقبول ومعتدل من التذمر، وما هو مؤشر على نقص وخلل - من الأمور المعقدة والمبهمة، لكن إلقاء الضوء على ما يدفع الناس نحو الشكوى يساعد على نحو جيد في تحسين وَعْينا نحو هذه المسألة.

والحقيقة أن ما يحتاج إلى بحث وتوضيح هو التذمر غير المألوف وغير الطبيعي، ولعلَّ من أسبابه الآتي:

١ - للبيئة تأثير كبير في رفع وتيرة الشكوى لدى الناس، وفي جعلها طابعًا عامًّا لهم، وقد كان كثيرون في صدر الإسلام، وما بعده يلحظون كثرة شكوى أهل (الكوفة) من سلوك حكامهم، مع أنهم قد لا يكونون أسوأ من غيرهم، وأنا ألاحظ اليوم ارتفاع نبرة الشكوى لدى أهل مدن بعينها، مما يدل على أن الشكوى تكون في بعض الأحيان ثقافة عامَّة يتلقفها الصغار من الكبار، ويصاحب ذلك في العادة نوع من تعكّر المزاج ونوع من اليأس أيضًا.

٢ - التقدم الحضاري يقوم بدور مزدوج في مسألة الشكوى، فهو يزيد في الشكوى؛ لأنه يوسّع طموحات الناس، ويزيد في مطالبهم، ويحسّن وعيهم بمصالحهم، وذلك من خلال تذوقهم للرفاهية، ومن خلال تنمية حاسَّة (المقارنة) لديهم، وهو إلى جانب هذا (يُعَقْلِنُ) الشكوى، ويجعلها أكثر موضوعية؛ لأن الإنسان المتحضر

يجد أمامه الفرص والخيارات التي يحقق من خلالها تطلعاته، ويعالج مشكلاته، أما الإنسان الذي يعيش في بيئة مُتخَلِّفة فإن ما يطمح إليه قليل، كما أنه يشعر بأنه محاصَر من كل جهة؛ مما يجعله يشكو مما هو موضع شكوى ومما ليس كذلك، أي إن شكواه تكون أقل عقلانية ومنطقية.

٣ - هناك تداخل قوي جدًّا بين النقد والشكوى، وإذا تأملنا في نقد عامَّة الناس لبيئتهم وأوضاعهم فإننا نجد أنه متلبس دائمًا بالشكوى، وأحيانًا لا يعرفون من النقد سوى الشكوى، أما خاصّة الناس ومثقفوهم فإن ملابسة نقدهم للشكوى تكون أقل بسبب ما يطرحونه من حلول وبدائل، وبسبب تفهمهم العميق لأسباب ما يجري، وما يقع من خطأ وقصور.

٤ - من الملاحظ وجود ارتباط قوي بين الشكوى وبين سيطرة العاطفة؛ إذ كلما كان الإنسان عاطفيًّا أكثر اتسعت مساحة الشكوى لديه، ونجد ذلك واضحًا في أدب ما يسمى (الحب العذري). وسيطرة العاطفة مرتبطة من جهتها على نحو واضح بضعف التعليم وضعف المحاكمة العقلية أيضًا، وما ذلك إلا لأن المعرفة والرشد الفكري يضبطان العاطفة ويكبحان من جموحها ومن تطرف الشكوى.

٥ - ترتفع وتيرة الشكوى أيضًا لدى الانطوائيين والمنكفئين على أنفسهم؛ وذلك لأن الواقع هو الأستاذ الذي ينبغي أن يأخذ عنه الجميع، وإن الذين يميلون إلى العزلة يحرمون أنفسهم مما يوفره الانفتاح على الواقع من رؤية وفهم ووعي وإدراك لجذور الظواهر الاجتماعية وأسبابها وطرق معالجتها، وحين تُجري نقاشًا معهم حول ما يشكون منه، فإنك تلمس بوضوح ضعف حُجَجهم لما يرونه، وتلمس أن شكواهم ليست أكثر من نفثة مصدور.

٦ - حين أنظر إلى من هم الآن في الثمانينيات والتسعينيات من أعمارهم أشعر باغتباطهم وشكرهم لله - تعالى - على ما أفاض من خير؛ لأن معظمهم عانى في صباه من الفقر والمرض وعانى من مشاقّ يصعب حصرها، على حين أن الأجيال التي نشأت في النعمة تقارن أوضاعها بأوضاع الناس الذين يعيشون في الدول المتقدمة والمرفّهة، وهذا يشكل مبعثًا للشكوى لديهم.

٧ - أحيانًا نجد من يتخذ من النقد والشكوى من سوء الأحوال وسيلة لإبعاد الأنظار عنه، عملًا بالمبدأ القائل: « الهجوم خير وسيلة للدفاع » ويتم هذا بطريقة غير واعية، وقد رأيت من يشكو من انتشار الرشوة في بلده مع أنه أحد المرتشين، ورأيت من يشكو من ضعف التعليم في جامعته، وهو أحد من يُسهم في ذلك... وهناك من الناس من يبعدون الأنظار عنهم بطريقة أخرى؛ حيث إنهم يشكون من أمور يعتقدون أنهم غير متلبّسين بها، ويسكتون عمّا هم متورطون فيه، فإذا كان الواحد منهم مواظبًا على صلاة الجماعة، ومتورطًا في التدخين أو التسويف أو عدم الدقة في الوفاء بالوعد... فإنه يشكو من أمور كثيرة إلا من ظاهرة الاستخفاف بصلاة الجماعة، ويغض الطرف عن الأمور الأخرى، وهكذا تصبح الشكوى وسيلة خفية للتعمية والدفاع عن الذات بطريقة غير مباشرة.

• كيف نتعامل مع هذه السُنة؟

١ - ما دام شيء من الشكوى يعد شيئًا صحيًّا، فإن علينا أن نرحّب بمن يشكو من بعض الأمور، ونصغي إليه باهتمام، وهذا ما علّمنا إيَّاه نبينا ﷺ؛ حيث إنه كان يتوقف في قارعة الطريق؛ ليستمع إلى شكوى من يشكو إليه، ويعمل على

مساعدته، وهذا ما علينا القيام به، إذ إن الشاكي يطلب غالبًا نوعًا من الدعم للتغلب على ما يضايقه ويزعجه.

٢ - إن من أركان الإيمان الرضا بما قدَّره الله علينا من خير وشر وحلو ومر، وعلينا أن نتذكر أننا في دار ابتلاء واختبار، والله - تعالى - يبتلي عباده بالسراء والضراء؛ ليرى كيف يتصرفون مع هذه وتلك، ولهذا فإن المسلم يحاول أن يظلَّ في حالة من التردد بين الشكر والصبر.

٣ - من المهم أن نفرِّق بين المصيبة وبين القضاء والقدر، أي بين ما يقع لنا من مكروه من غير أي تسبب أو تقصير شخصي، مثل: المرض وشُحّ المطر والتأذي بجار سيّئ وارتفاع الأسعار... إلخ، وبين المكروه الذي يصيبنا بسبب أخطائنا وخطايانا. إن كلًّا منهما مقدَّر من الله - تعالى - لكن الموقف ينبغي أن يكون مختلفًا؛ حيث إن ما أصابنا من غير سبب شخصي نعرفه نتلقاه بالحمد والصبر والرضا، أما ما يصيبنا بسبب ذنوبنا وأخطائنا وتقصيرنا، فهذا يحتاج إلى التوبة والتغيير والإصلاح والتعاون على البرِّ والتقوى... إن التفريق بين هذا وذاك يحتاج إلى بصيرة واهتمام وإدراك حسن، ومن المؤسف أن كثيرًا من الناس محرومون من المستوى المطلوب من كل هذه الأمور!

هناك قاعدة ذهبية تقول: « أنت لا تستطيع الحصول على حلول كاملة في وسط غير كامل » وقاعدة أخرى تقول: « إنجازات الإنسان دائمًا نسبية الصواب ونسبية الكمال »، وهذا لأن ما نحتاجه من رؤى وأفكار ومعطيات وظروف.. في سبيل تحقيق رغباتنا وحل مشكلاتنا هو دائمًا ناقص أو أقل مما هو مطلوب، ولهذا فإن علينا ألا نتوقع من أحد أن يحقق لنا كل ما نريد، أو ينجز الأشياء كما نهوى، وإن

مثل هذه الرؤية تخفف من حِدَّة الشكوى، وتبعث في نفوسنا الكثير من الرضا، لكن هذا لا يمنعنا من النقد ومن التماس ما هو أصوب وأكمل.

٤ - نحن نحتاج إلى أن تكون شكوانا أكثر موضوعية وعقلانية، وهذا قد يتحقق من خلال شرح أسباب ما نشكو منه والعمل على طرح حلول له، وقد تعود الناس إلقاء اللَّوم على المسؤولين من غير تفهُّم للإمكانات المتاحة، وأنا أقول: ضع نفسك في موضع من تلومه، وتصور لو أنك كنت وزيرًا في دولة فقيرة، وكنت حريصًا على أموال الدولة وفي قمَّة النزاهة، كيف تستطيع التغلب على شُحِّ الميزانية الموضوعة بين يديك إذا كانت من الضآلة على نحوٍ لا يمكِّنك إزالة (٥٪) مما يشكو منه الناس؟ إذا كان لديك أفكار تساعد في هذا فأوصلها لمن يهمه الأمر، أو انشرها على الملأ حتى يستفيد.

٥ - من المهم أن نتذكر أن الشكوى من الشيء تشكل بداية جيدة للعمل على إصلاحه، كما يفعل المريض حين يشكو من ألم في معدته، إذ إن إحساسه بالألم يرتِّب عليه السعي إلى تشخيصه والبدء في علاجه، وإذا كنا عاجزين تمامًا عن الإصلاح فالإقلال من الشكوى يكون هو الموقف الحكيم.

٦ - لا ينبغي لسوء الأوضاع أن يحرمنا من إظهار الفرح والسرور بما نرفل به من نعم الله - تعالى - وخيراته، وبركاته؛ حيث إننا نملك دائمًا ما يستوجب الحمد، ويبعث على التفاؤل والرضا.

● ● ● ●

6

الانفتاح طريق التكامل



الانفتاح طريق التكامل

الله - تعالى - النَّاسَ والأشياء والنظم... على شيئين: النقص والافتقار؛ حيث لا يستطيع أي شيء القيام بذاته والاستغناء المطلق عن غيره، الأشياء كلها مفتقرة إلى الله - تعالى - ومفتقرة بوجه من الوجوه إلى بعضها، ولهذا نقول دائمًا: إن (العلائقية) هي صفة دائمة لكل الأشياء، وهي من مقتضيات الافتقار.

إن الانغلاق يعني باعتبارٍ من الاعتبارات، الاختناق والانحسار والتجذر في النقص والافتقار، أما الانفتاح فإنه يُدخل الأشياء في وضعية السيرورة والتحول ويتيح لها الاستعارة والتشذيب والصقل، إن كل شيء نراه يحتاج إلى أن ينخرط في علاقة مع شيء آخر، وتكون هذه العلاقة هي معبر التكامل بينهما... كثيرون منا ينظرون

إلى الانفتاح على أنه عبارة عن مغامرة وجودية كبرى، وهذا صحيح إذا لم يتم الانفتاح بوعي واعتدال، فنحن نعرف أن كثيرًا من الأنشطة والأعمال يفقد ما فيه من خير ونفع، ويتحول إلى شيء مؤذٍ وضار إذا تجاوز حدودًا معينة، وبما أن رؤية تلك الحدود لا تكون ميسَّرة في كثير من الأحيان، فإن لنا أن نقول: إنه لا تكامل من غير انفتاح، لكن ليس كل انفتاح يُنتج التكامل.

● **تطبيقات عملية:**

١ - التكامل مع الآخرين:

يحمل كل واحد منا بصمة شخصية تجعله يختلف عن غيره في كثير من الأمور، وبما أن هذه الدنيا محدودة، فلا بد أن يكون كل ما فيها محدودًا، ولا يُستثنى من ذلك أي شيء، ومن الواضح أننا لا نستطيع النظر إلى الأشياء من كل الزوايا، كما أننا لا نستطيع أخذ كل الحيثيات بعين الاعتبار، ونحن إلى جانب ذلك كثيرًا ما نجد أنفسنا عاجزين عن الإحاطة بالتفاصيل الموجودة في كل علوم الحياة..

وعلى سبيل المثال: فإن المسلم لا يستطيع أن يقرأ التاريخ الأوربي وهو يتحلّى بما يتحلى به الأوربي من حماسة وتعاطف خلال قراءته لذلك التاريخ: المسلم يقرأ التاريخ الأوربي وفي نفسه وعقله اعتراضات جوهرية على ذلك التاريخ، ولديه أسئلة كثيرة لا يعثر لها على أي جواب، وهذا هو بالضبط حال الأوربي حين يقرأ التاريخ الإسلامي، وهذا نابع في الأساس من اختلاف الخلفية الثقافية، ومن اختلاف الانتماء لكلا التاريخين، ومن هنا فإن انفتاح المسلم على ما يقوله الباحث الأوربي في التاريخ الإسلامي، وانفتاح الأوربي على ما يقوله الباحث المسلم في التاريخ

الأوربي سيجعل كل واحد منهما ينظر إلى تاريخه من زاويتين، ويستخدم خلفيتين ثقافيتين عوضًا عن استخدام خلفية واحدة، وقل مثل هذا في مسألة النقد؛ فالمرء لا يرى إلا جزءًا من عيوبه، كما أنه قد لا يستطيع اكتشاف الكثير من مواهبه، وفي الحالتين يكون من المفيد جدًّا الاستماع إلى ما يقوله الآخرون فيه؛ لأنه بالإصغاء إلى الآخرين يكمِّل رؤيته لنفسه برؤية الآخرين، وما أجمل قوله ﷺ: « **المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى** ». إن قدرة كل يد على تنظيف نفسها محدودة، وبالتلاقي والاحتكاك يحدث ما هو مطلوب من التكامل وتبادل المنافع.

٢ - التكامل بين المربِّي والمتربِّي:

يولد الإنسان - بخلاف الحيوان - ناقص الإنسانية، ومن خلال التربية يكتسب إنسانيته؛ لهذا فالإنسان كائن مكتسب، بمعنى أن كل ما يملكه في الحياة على صعيد الأفكار والخبرات والعواطف هو حصيلة ما تلقفه من الآخرين.

التربية تفاعل حقيقي بين المربي والمتربي، والتفاعل الجيد هو الذي ينطوي على انفتاح شبه تامّ بين جميع أطراف التفاعل: المربي من جهته يستخدم الأسلوب الحكيم واللطيف في التربية، ويغمر المتربي بمشاعر الوّد والعطف والاهتمام، كما أنه يحاول أن يغوص في أعماق الذي يربيه؛ ليتعرف على ما يمكن أن يكون مصدرًا لمعاناته.. أما المتربي فإن انفتاحه على مربيه يكون من خلال إدراك أنه يسعى إلى مصلحته، وأن لديه القدرة على مساعدته في كثير من الأمور، ولهذا فإنه يفتح له قلبه، ويحدِّثه عن كل شؤونه، ويكشف له عن طموحاته وآماله وآلامه... هذا الانفتاح يتفاوت تفاوتًا عظيمًا من أسرة إلى أسرة، لكنه على كل حال يظل مناط التكامل بين المربي والمتربي، وأقصد بالتكامل هنا تحديدًا تلك التحويرات التي

يُدخلها التفاعل التربوي على شخصيات المربِّين والمتربين؛ إذ إن المتربي مهما كان متمردًا وغير مكترث، ومهما كانت علاقته بمن يربيه سيئة، فإن الواقع يقول: إنه بوصفه إنسانًا هو نتاج علاقته بأفراد أسرته أولًا، وبأبناء مجتمعه ثانيًا، كما أن المربي مهما كان معتدًّا بنفسه، ومهما كان مسيطرًا، فإنه يدرك بعض وجوه نقصه، وكم من مربٍّ لَامَ نفسه؛ لأنه يغضب بسرعة، أو لأنه ضرب ابنه ضربًا مبرحًا، أو لأنه لم يكن قدوة حسنة لطلابه... وهذا يجعله يراجع نفسه، ويشذب بعض الزوائد في شخصيته، وهذا واضح جدًّا، من خلال التطور الإيجابي الذي يطرأ على تعامل الآباء مع الابن الرابع والخامس؛ حيث يصبح المربي أكثر أناة في اتخاذ القرارات وأعظم لطفًا وأفضل تفهمًا لحاجات من يربيهم. هذا التكامل موجود باطراد لكنه يختلف من مُربٍّ ومُتربٍّ إلى مُربٍّ ومُتربٍّ آخر، واختلافه تابع لاختلاف درجة التفاعل بين من أشرت إليهم.

٣ - التكامل بين الزوجين:

حين نتأمل في التركيب الجسمي والعقلي والنفسي لكل من الرجل والمرأة، نوقن بأن الخالق - جل وعز - خلقهما ليعيشا مع بعضهما جنبًا إلى جنب؛ حيث لا تكتمل سعادة أي منهما من غير الآخر، ويزداد هذا اليقين إذا نظرنا إلى الوظيفة التربوية لكل منهما، والحقيقة أن هناك مبدأ وجوديًّا كبيرًا نراه بوضوح في طبيعة تكوين الرجل والمرأة وطبيعة العلاقة بينهما، وهذا المبدأ هو: (التنوع في إطار الوحدة) فعلى الرغم من كثرة ما يجمع بين الرجل والمرأة من قواسم إنسانية مشتركة، إلا أن كل واحد منهما، يشكل نوعًا مستقلًّا كامل الاستقلال، ولا يخفى أننا نشهد اليوم الكثير من التصدع الأُسري بسبب ما تقوم به العولمة، وتداعياتها

الثقافية من تفكيك منتظم لكثير من البِنَى الاجتماعية، ونحن لا نريد اتهام العولمة بكل القبائح، ولا ينفعنا ذلك الاتهام بأي شيء؛ ولهذا فإن من المهم التركيز على العولمة الموضوعية التي تؤدِّي إلى إخفاق الحياة الأسرية.

السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الانفتاح المطلوب بين الزوجين؟وكيف يؤدي ذلك الانفتاح إلى التكامل بينهما؟

الحقيقة أن لكل من الرجل والمرأة خصائص وحاجات تميزه عن صاحبه، وإن الانفتاح المطلوب - باختصار - هو أن يدرك كل واحد من الزوجين خصائص الأخر وحاجاته، ثم يتعامل بالطريقة المناسبة، وتلك الخصائص والحاجات كثيرة، لكن أودُّ أن أشير إلى أهمها عبر الملاحظات التالية:

أ - الرجل يفكر بعقلانية أكثر من المرأة، ويحسب حساب العواقب بدقَّة أشد، لكن لديه درجة من الجفاف في العواطف.

ب - المرأة على العكس من هذا؛ حيث إن عاطفتها المشبوبة تساعدها على تحمل أعباء كبيرة، وتدفعها إلى تقديم تضحيات نادرة، لكن قوة العاطفة تضغط على العقل، فلا يفكر بالروية المطلوبة. لدى المرأة في تربية الأولاد نظرة ذات بُعْد استراتيجي، ولهذا فإن حساسيتها تجاه انحراف أبنائها وبناتها كثيرًا ما تكون أشد من حساسية الرجل.

ج - الرجل يحتاج من المرأة أن تثق به، وتحترمه، وتحتاج المرأة من زوجها إلى أن يحوطها بالرعاية والعطف، وأن يؤكد لها المرة تلو المرة بأنها ما زالت عروسه الأثيرة والمفضَّلة.

د - حين تقع المرأة في أزمة حادَّة، فإنها تبحث بشدة ليس عمن يساعدها في حلِّ

تلك الأزمة، وإنما تحتاج إلى من يستمع إليها، ويتعاطف معها؛ ولهذا فإنها تُطلع على مشكلتها من تثق به من الأقرباء والأصدقاء والجوار، أما الرجل فإنه يودُّ أن لا يسمع بمشكلته إلا عدد محدود جدًّا من الناس، وحاجته إلى الحلول تكون غالبًا أعظم من حاجته إلى التعاطف.

هـ - حين يقدم الرجل إلى زوجته هدية باهظة الثمن، فإنها تفرح بها فرحًا غامرًا، لكن لمدة قصيرة، أما الرجل فإنه لا يستطيع نسيان فضل من قدَّم له هدية قيِّمة، أي إن الرجل يهتم بقيمة الهدية على حين أن ما تحتاجه المرأة هو استمرار الهدايا مهما كانت قيمتها ضئيلة.

و - يغلب الحياء على المرأة، ولهذا فإنها تتحمل الكثير من الضغوط والآلام دون أن تتحدث عما تستحي من التحدث عنه.

ز - سلسلة المعقولات لدى الرجل مختلفة عما لدى المرأة، أي ما تهتم به المرأة وتعقله، وتكون ماهرة في إدراكه، والاستنتاج منه كثيرًا ما يكون مختلفًا عما لدى الرجل من ذلك، ولهذا فقد يتحاور الرجل والمرأة في قضية عشرين سنة، ثم لا يصلان فيها إلى أي شيء، وهذا طبيعي.

إن هذا التباين يمكن أن يكون مصدرًا للتكامل والائتلاف حين نعترف به، وندركه، ونتعامل معه على نحو جيد، وهذا ما تفعله في الحقيقة الأسر الناجحة؛ وذلك لأن التكامل يكون مبنيًّا على الاختلاف، وليس على التشابه كما هو معلوم، كما أنه يمكن له أن يكون مصدرًا للشقاق - على نحو ما هو مشاهَد في كثير من الأُسر - وذلك إذا لم ننفتح عليه، ولم نقف منه الموقف الراشد.

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - ينبغي أن نؤمن أن كل ما حولنا اليوم متحرك، وإن فهمه يقضي أن ننفتح عليه، ولا يتهيأ لنا هذا إلا إذا تخلصنا من عوالق الانغلاق الفكري؛ لأن المنغلق فكريًّا يميل إلى رؤية الأشياء على أنها جامدة وثابتة.

٢ - في إمكاننا من خلال الانفتاح، أن نحوِّل التناحر والتنافس إلى تكامل، وهذا ما يفعله أذكياء التجار، حيث نجد أن كل واحد منهم يحاول المتاجرة بسلعة ليست موجودة عند جيرانه من التجار من أجل الخلاص من شرور التنافس، والفوز بخيرات التكامل.

- سنجد السبيل إلى التكامل مع غيرنا - حتى لو كانوا أعداء - إذا تصرفنا على أساس أن لدينا مشكلات ليس لها حلول إلا لدى الآخرين، وأن لدى الآخرين مشكلات لن يجدوا لها حلولاً إلا عندنا.

٣ - سننظر إلى الانفتاح على أنه فضيلة إذا أدركنا أن البيئات المغلقة هي بيئات مثالية للانحراف والتفسخ.

٤ - الانفتاح الجيد هو الذي يمكِّننا من الحفاظ على جوهر ما لدينا مع مساعدتنا على إنعاشه وإثرائه ونقده وتطويره.

● ● ● ●

7

التوازن مسألة...
تستعصي على الحسم

7 التوازن مسألة... تستعصي على الحسم

أعتقد

أن النزوع إلى التوازن من الأشياء التي فطر الخالق ﷻ عباده عليها، ولا يوازي ذلك النزوع في الانتشار سوى الاتهام المتبادل بين الناس بعدم التوازن!

الموقف المتوازن هو ذلك الموقف الذي يدرك فيه الإنسان على نحوٍ جيد أهدافه وحاجاته وواجباته وإمكاناته والظروف المحيطة به، والمعوقات والعقبات التي قد تواجهه.. ثم يقوم بالتحرك وفق ذلك الإدراك على مقدار الوسع والطاقة.

● **ولعلّي أتناول هذه القضية المهمة عبر المفردات التالية:**

١ - أهمية التوازن:

نحن ننظر إلى أهدافنا وحاجاتنا وما هو مطلوب منا.. على أنه متفاوت في أهميته، فمنه ما هو ملحّ جدًّا وفوري، ومنه ما يقترب من الكمالي، أو أنه مهم لكنه يقبل التأجيل، ونحن ننظر كذلك إلى أعمارنا وطاقاتنا وإمكاناتنا، فنجدها محدودة، وهنا نجد أنفسنا أمام رغبات في الجاه والثراء والتمتع والنفوذ لا تكاد تقف عند أي حدود، وأمام أدوات وفرص محدودة لتلبية ذلك، ومن النظر إلى هذه وتلك تنبع أهمية التوازن. نحن قد لا نعرف أهمية التوازن في حياتنا إلا إذا تأملنا من صور انعدام التوازن على نحو ما نجده في سلوكيات كثير من الناس، إننا في الحقيقة نشعر بأن من يستدين ليشتري سيارة نفيسة بأنه غير متوازن؛ لأنه لبّى رغباته خارج إطار إمكاناته، كما ننظر إلى من ينسب كل الفضائل إلى قومه، وكل الرذائل إلى أعدائه بأنه أيضًا غير متوازن، ونفعل نحوًا من هذا حين نجد شخصًا يشغله جمع المال عن العبادة أو صلة الأرحام، ومن يشغله الصيام وقيام الليل عن أداء وظيفته بهِمّةٍ ونشاطٍ... وكلنا نعرف قصة زيارة سلمان الفارسي لأبي الدرداء - رضي الله عنهما - وكيف أنه وجد أمّ الدرداء متبذلة، وعلّلت ذلك بأن أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، كما أنه ألفى أبا الدرداء صائمًا وراغبًا في قيام كثير من الليل مما جعل سلمان يعتقد أن أبا الدرداء قد جار على نفسه، ولم يفِ أهله حقّها، فقال له قولته المشهورة: « إن لنفسك عليك حقًّا، ولربك عليك حقًّا، ولضيفك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه » وقد ذهب الرجلان إلى

النبي ﷺ فذكرا له ذلك، فقال: « **صدق سلمان** »[٧]. ومما يمنح التوازن أهمية إضافية ذلك الترابط القوي وشبه المستمر بين فقه الموازنات وفقه الأولويات، فنحن لا نستطيع أن نحدد أولوياتنا في أحيان كثيرة إلا بعد أن نوازن بين أمور كثيرة، منها: ما سندفعه، وما سنأخذه، ومنها ما هو مُهِمّ، وما هو أشدّ أهمية، وما هو عاجل وما هو آجل... وبما أن فقه الموازنات لا يكتمل؛ أبدًا، فإن فقه الأولويات - المبني عليه في أحيان كثيرة - هو الآخر لا يكتمل حيث نظلُّ في إطار التخمين والاجتهاد.

٢ - لماذا يستعصي التوازن على الحسم؟

يعني التوازن النظر في أمرين فأكثر كي نرجّح أو نختار واحدًا منها ونعمل على تحقيقه أو توقّيه والخلاص منه كما لو خيِّر الإنسان بين اثنين من الشرور، فإنه يختار أخفهما. التوازن إذن يقوم أولًا وقبل كل شيء على فهم الأمور التي نريد إقامة التوازن بينها، والمشكل الأساسي هو أن (العقل) البشري لا يملك المهارة المطلوبة لفهم ما هو من قبيل الصفات والكيوف مثل: الخطِر والآمن، والجيد والرديء، والعاجل والآجل، والصغير والكبير، والخشن والناعم، والنافع والضار... على حين أنه يعمل بكفاءة في فهم ما هو من قبيل(الكم) مثل: الأرقام والأوزان والمقاييس المادية، ومن هنا فإننا حين نريد الموازنة بين شيئين من قبيل (الكيف) فإننا في الحقيقة نوازن بين شيئين غير واضحين بالقدر الكافي؛ ومن ثَّم فإن الحكم على مدى ما يحققه اختيار أحدهما من مصلحة، وما قد يجلبه من ضرر يظل أمرًا غير معروف على نحو دقيق، هذا شاب حصل على شهادة الثانوية، ونظر في أمره، فوجد أن أمامه

---

٧ - أخرجه الترمذي.

خيارين: خيار العمل في وظيفة متواضعة والحصول على مرتَّب صغير، هو بحاجة إليه، وبين الذهاب إلى الجامعة وإكمال دراسته والضغط على نفسه، وربما اقتراض بعض المال من أجل تأمين بعض احتياجاته. إن هذا الشاب يوازن بين نفع عاجل، وبين نفع آجل، وحجم كل منهما، ومدى تحققه غير واضح بالنسبة إليه بما يكفي، فهو إن درس قد يتلاءم مع ما يدرسه، وقد لا يتلاءم، وكم من طالب ترك الجامعة بعد هدر سنوات من عمره، وكم من طالب أنهى دراسته الجامعية وبعد تخرجه قد يشعر أنه استفاد علميًّا مما درسه، وقد لا يشعر، وحين يبحث عن عمل قد تفيده الشهادة والمعرفة التي حصل عليها في عمله، وقد لا تفيده، ففي البلدان الفقيرة كثيرًا ما يعمل الإنسان في مجال بعيد عن مجال دراسته بسبب اضطراب خطط التنمية أو انعدامها... وإذا اختار الطالب الوظيفة على الدراسة، فإنه بعد مدة قد يشعر بأن مُرتَّب وظيفته لا يساعده على الزواج وبناء أسرة والإنفاق عليها، وقد يجد أنه محظوظ جدًّا بتلك الوظيفة؛ لأن الخبرة التي حصل عليها جعلت مُرتَّبه أعلى من مرتَّب الجامعيين، وبهذا يشعر أن اختياره للوظيفة على الدراسة كان صحيحًا، لكن بعد مدة فصلوا من الدراسة كل أصحاب الشهادات المُتدنِّية، وصاروا يبحثون عن أصحاب الشهادات العليا، فوجد صاحبنا نفسه خارج العمل، وتمنَّى لو أنه درس وتعلم؛ لأن أصحاب العمل يبحثون عن أصحاب الشهادات، وليس عن أصحاب الخبرات.... هذا الذي ذكرناه في هذا المثال هو ما يشعر به ملايين الشباب في كل مكان من الأرض، والسبب أن المعادلة قامت على تقديرات ومعطيات ليِّنة وظنِّية ومحتملة.

٣ - صعوبات التوازن متفاوتة...

مع أن كل محاولات وعمليات التوازن مشتركة في الاستعصاء على القطع والحسم إلا أن الأمر يختلف من أمر إلى أمر، ونستطيع أن نُقرِّر بوضوح أن لدينا شيئين يتحكمان في نجاح التوازن وإخفاقه أو قُلْ في قربه من اليقين وإغراقه في الحَدْس، وهذان الأمران هما:

أ - حجم القضية التي يتعلق بها طلب التوازن.

ب - المدة الزمنية لحسابات التوازن.

* أما ما يتعلق بالأمر الأول؛ فإن من الواضح جدًّا وجود فرق كبير بين موازنة يجريها شخص في مسألة شخصية وبين موازنة تجري في قضية تمس حياة عشرات الملايين من الناس، هذا شعب احتُلت أرضُه من قِبَل عدو غاشم، فأخذ قادته في التفكير في الأسلوب الممكن والمجدي للمقاومة، ووجد نفسه أمام خيارين أساسيين: خيار المقاومة العسكرية، وخيار المقاومة السلمية، ونجاح كلا الخيارين يتوقف على عدد من العوامل والمعطيات؛ منها:

- الخلفية الثقافية للشعب الذي سينهض للمقاومة؛ إذ إن الشعوب المتحضِّرة جدًّا تجيد المقاومة السلمية والعصيان المدني، وترتاع لرؤية الدماء، على حين أن الشعوب الأقل تحضرًا تجد غالبًا أن المقاومة المسلحة هي التي تجدي في طرد المستعمر.

- العتاد والإمكانات المتوفرة لدى الناس، فحين يكون لديهم الكثير من السلاح والعتاد الحربي، فإنهم يميلون في العادة إلى استخدامه.

- موقف العدو الغازي ومدى خوفه من خسارة أرواح بعض جنوده، حيث إن الدول (الديموقراطية) والمتقدمة لا تتحمل خسارة الكثير من الجنود، ولهذا فإن المقاومة المسلَّحة تؤذيها كثيرًا، وليست كذلك الحكومات الأقل تحضرًا، وتلك التي تحكم بالقهر والبطش.
- الموقف الإقليمي والدولي، إذ لا يستطيع اليوم أهل أي بلد تجاهل موقف أهل إقليمهم بل موقف العالم كله من قضيتهم، وعلى نحو عام فإن المقاومة السلمية تلقى التعاطف أكثر من المقاومة المسلحة.

هكذا فإن كثرة العناصر التي يجب أخذها بعين الاعتبار عند تكوين الموقف المتوازن والذي هو الموقف الصحيح تشكل عبئًا على أدمغتنا، وتجعلها ترتبك، كما أن كلَّ عنصر يضطرنا إلى إجراء حسابات تتعلق به، والحسابات تحتاج إلى معلومات، وهذه كثيرًا ما تكون غير متوفرة، ولهذا فإن المواقف المتوازنة في القضايا الكبرى تكون قليلة، والحصول عليها يكون شاقًّا.

* أما على صعيد الزمن فالمسألة كذلك واضحة؛ حيث إن أي توازن يتعلق بمآلات الأشياء والأحداث يكون صعب الحسم، ولا سيما إذا طالت المدة، كما لو أن شركة أرادتْ أن توازن بين أرباح محدودة ستحصل عليها خلال سنتين وأرباح ستحصل عليها بعد خمسين سنة. ما الذي سيجري بعد خمسين سنة، وما قيمة الأرباح التي ستحصل عليها تلك الشركة آنذاك، وهل ستكون الشركة نفسها موجودة في تلك الفترة المتوقَّعة؟ إن هذا كله من الغيب الذي استأثر الله - تعالى - بعلمه، ومن ثمَّ فإن إدخال الأشياء البعيدة جدًّا في الموازنات والأولويات يعقِّد الأمور، ويجعل ما نسمِّيه توازنًا أقرب إلى الوهم والتخبُّط.

● **تطبيق عملي: فهم الواقع:**

لو طلبنا من شخص مثقف أن يحاول الوقوف من الواقع المعيش في بلده موقفًا متوازنًا على صعيد الاستيعاب والتعامل والاستجابة والحركة...فإن ذلك يتطلب منه بالطبع أن يفهم ذلك الواقع على نحو ملائم، فلو أردنا أن نُزوِّده ببعض النصائح التي تساعده على ذلك، فما الذي سنقوله له؟

أتوقع أن نقول له الآتي:

١ - تثبت من كل المعلومات التي تعثر عليها مما يتعلّق بالواقع الذي ترغب في فهمه. وعليك أن تفرّق بين المعلومات المنقولة وبين ما هو من قبيل التحليل الشخصي للمتحدث، كما أننا سنحذِّره من الانسياق خلف الشائعات.

٢ - التزام الموضوعية في فهم الواقع والحكم عليه قدر الإمكان، والحذر من مسايرة الهوى والوقوع تحت تأثير الجماهير.

٣ - بلورة رؤية متوسطة للواقع، وذلك من خلال بعدها عن الوجهة التشاؤمية والاعتذارية والتآمرية والمتفائلة أكثر مما ينبغي.

٤ - تجنب القطع والجزم في توصيف الواقع؛ لأنه في الحقيقة لا يرى سوى جزء منه.

لو أراد صاحبنا أن يعمل بنصائحنا هذه، فإننا سنجد أن نتائج جهوده في الالتزام بما ذكرناه هي دائمًا غير مكتملة، فنحن نعرف أن (الموضوعية) لا تكتمل أبدًا، ولهذا فإننا نرضى بموضوعية ناقصة، والنتيجة هي موقف من الواقع غير متوازن على نحو كامل.

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - الاعتقاد بأن كلَّ مواقفنا التي ندَّعي أنها متوازنة على صعيدنا الشخصي، وعلى الصعيد الدعوي والإصلاحي، وعلى صعيد العلاقات الاجتماعية، وفي مجال الأعمال والمهن... هي مواقف ذات توازنات ناقصة قابلة للنقد والجدل، وقابلة لأن تُرى من خلال منظورات مختلفة، وهذا يتطلَّب مِنَّا تفهُّم مواقف الناقدين والمعترضين وإظهار نوع من التسامح تجاههم.

٢ - النظر إلى كلِّ موازنات الآخرين على أنها اجتهادية، تحتمل الخطأ والصواب، ولهذا فإننا نعذرهم ما دامت اجتهاداتهم في إطار الأصول والكليات وما استقر من القواعد العامَّة والحقائق العلمية، وكما أننا نعذرهم، فإن من حقِّنا أن نخالفهم ونبيِّن مواقفنا تجاههم، ولكن بالأسلوب العلمي وبالأدب الإسلامي الرفيع.

٣ - نحن نعرف أن التطور التقني المتسارع قد مسَّ كلَّ جوانب الحياة، وجعل كل المعطيات التي بين أيدينا في حالة من التطور المستمر، ولهذا فإن نقاط التوازن التي نرتكز عليها تتغير، وبتغيرها تختل موازناتنا، ويكون علينا التماس توازنات جديدة، وهذا ما يندفع إليه الناس بالفطرة على نحو ما يفعله من عليه ديون للناس، فإن تصرفه يكون متوازنًا إذا قتَّر على أسرته في الإنفاق إلى أن يتمكن من قضاء دينه، فإذا قضى دينه، فإن التقتير يصبح غير مقبول بسبب تغير الظروف والمعطيات. وقُلْ مثل هذا في التاجر الذي تعرَّض لخسائر كبيرة في تجارته، فإن لزومه للحذر في عقد الصفقات يظل مقبولاً مدة من الزمن، وليس كذلك التاجر الذي ينتقل من نجاح في عقد صفقة إلى نجاح في عقد صفقة أخرى، فإنَّ زملاءه التجار ينظرون إلى تحفظه في عقد الصفقات على أنه شيء في غير محله، وهكذا...

٤ - التوازن يفقد توازنه بعد مدة، ويصبح في حاجة إلى توازن جديد، ولله - تعالى - في خلقه شؤون.

●●●●

8

المبالغة في الشيء...
مَكْمَن مقتله

هي...
هكذا

8 المبالغة في الشيء... مكمن مقتله

هذه السُّنة ليست بعيدة عن السُّنة التي قبلها من حيث الظاهر، لكنها تعدُّ سُنَّة أخرى إذا نظرنا إلى الجوهر، ففي السُّنَّة السابقة كان الهمّ المسيطر هو توضيح كون كل ما يُسمَّى بالتوازن والاعتدال هو شيء نسبي، ويصعب فيه وضع السكين على المفصل، أما في هذه السُّنة، فإن الشيء الذي أرمي إلى توضيحه هو كوْن المبالغة في أي شيء تسيء إليه إلى حدّ الإفناء والإزالة من الوجود.

● **تقوم هذه السُّنة على عدد من المعطيات:**

١ - إن الله - جلَّ وعلا - بحكمته البالغة بثَّ في هذا الكون الكثير من التوازنات على مستوى الإنسان والطبيعة والأشياء، وبما أن كل

شيء تقريبًا هو جزء من منظومة من المنظومات، فإن المبالغة في أي شيء تُدخل نوعًا من المزاحمة على بعض أجزاء المنظومة، أي إنها تضغط عليه، وتلحق الضرر به، وهذا يجعل المبالغة - في العموم - شيئًا مؤذيًا. وهذا مثل الذي يسرف في النوم أو في اللهو، فإنه يُلحق الضرر بوظيفته التي يجب أن يذهب إليها مبكرًا، ويُلحق الضرر بواجباته الاجتماعية والأسرية.

٢ - للأشياء منفعة حَدِّية، وحين يتجاوز شيءٌ ما حدود منفعته، فإنه يصير إلى التلاشي، ولك أن تتأمل في تعاملنا مع الطعام، فحين يمضي على المرء يوم كامل دون أن يأكل شيئًا، ويوضع أمامه صحن كبير من الحلوى، فإنه يُقبل عليه بشراهة كبيرة، فإذا وصل إلى منحنى التشبع الكامل، فإن الموقف مما تبقّى من الحلوى يصبح مختلفًا؛ حيث تتراجع الشهية عنها شيئًا فشيئًا، فإذا تجاوز نقطة التشبع صدر عنه رد فعل عكسي، هو التضايق من الحلوى والإعراض عنها، وهكذا فإن الإمعان في تناول الحلوى أفضى إلى إنهاء ذلك التناول.أما إذا تناول أحدنا كل ساعتين أو ثلاث ساعات قطعة صغيرة من الحلوى، فإنه قد يستمر في ذلك أيامًا بسبب انتفاء المبالغة في التناول.

٣ - الشيء المبالَغ فيه كثيرًا ما ينتهي؛ لأن وجوده مكلف للغاية، وهكذا فإن علماء النبات والغابات يخبروننا عن انقراض كثير من الأشجار العملاقة التي انقرضت بسبب عملقتها الزائدة، فهي تحتاج إلى تغذية كبيرة يعجز محيطها عن توفيرها لها مددًا طويلة.

٤ - الدول المنتجة للنفط تحاول أن تبقي أسعاره في فلك معين مع أنها قادرة على تقليل الكميات المستخرجة منه، مما يؤدّي إلى ارتفاع الأسعار، لكنها لا تفعل ذلك؛

لأنها تدرك أن تجاوز أسعار نفطها لحدود معينة سوف يدفع الدول المستهلكة إلى تكثيف الإنفاق في البحث العلمي حول الطاقة البديلة مثل: الطاقة الشمسية وطاقة الرياح وطاقة أمواج البحر... أي أن الارتفاع المبالغ فيه لأسعار النفط هو مقتل وجوده بوصفه مصدرًا للحصول على المال الوفير. وتستطيع أن تقول مثل هذا في (السلاح النووي)؛ حيث إن قوته التدميرية الهائلة هي التي تجعل استخدامه شبه مستحيل، أي إن قوته المبالَغ فيها هي التي تجعل وجوده شبيهًا بعدمه، ولهذا فإنه كثيرًا ما يقال: إن السلاح النووي لا يُستخدم إلا وسيلة لردع العدو الذي يمتلكه، أي أن وجود السلاح النووي عند دولتين متعاديتين يؤدِّي إلى أن يصبح استخدامه أقرب إلى المستحيل، وما ذلك إلا لأن كلفة استخدامه من أي طرف هي هلاك أو خسارة فادحة للطرفين. إن ميزات القوة تظلُّ موجودة ما دامت باقية ضمن حدودها، أما إعجازها فيكمن في ملامسة الحد الأقصى لمجالها دون تجاوز ذلك الحد.

● **تطبيقات عملية:**

١ - التهديد وسيلة تربوية يستخدمها كثير من المُربِّين؛ لشعورهم بجدواه مع بعض من يربونهم، وأنا أعتقد ذلك مع اعتقادي أن التربية المثالية هي التي تنطوي على أقل قدر ممكن من التهديد والعقاب والقسوة. بعض المُربِّين يبالغ في التهديد، فتنطبق عليه السُّنَّة التي نحن بصددها أي يفقد التهديد معناه، ويصبح وكأنه غير موجود، وذلك كما تفعله بعض الأمهات حين تقول لطفلها ابن العاشرة: إذا ذهبت إلى بيت الجيران فسأكسر رِجلك، وحين تقول له: إذا تحدثت لأحد بشيء مما قلته لك، فسأقطع لسانك..

الطفل يدرك أنه لا يمكن لأم أن تكسر رِجْل طفلها، أو تقطع لسانه، كما أن تجربته الشخصية تدل على ذلك؛ حيث إنه خالف أمه في الكثير من المواقف، ولم تُنفَّذ تهديداتها المبالَغ فيها.

٢ -الضحك أحد أهم البوابات التي يدخل منها السرور على النفوس، وله الكثير من المزايا النفسية والفسيولوجية، لكن المبالغة فيه تفقده بعض ميزاته، فنحن ننظر إلى الضحك بسبب وبغير سبب على أنه مؤشر على طيش صاحبه وبلاهة مشاعره، وقد قالوا قديمًا: الضحك من غير سبب من قلة الأدب. إذا حدثت مبالغة شديدة في الضحك فإنه ينقلب من مصدر للسعادة والهناء إلى مصدر للشقاء والألم، ويُستخدم الضحك في بعض السجون بوصفه أداة للتعذيب، بل إن الضحك المتوالي بشدة عالية قد يؤدِّي إلى توقف عضلة القلب ثم الموت!

٣ - الناس بطبعهم يميلون إلى الرفاهية والتوسع في الاستهلاك، وتلبية رغبات النفوس، وهم يجدون متعة كبيرة في كل ذلك، لكن المبالغة في الدِّعة والرفاهية وإعطاء النفوس مشتهياتها يؤدِّي إلى انقطاع ذلك الاستمتاع، وتحوُّل ما كان مصدرًا للذَّة إلى مصدر للألم والقلق. إن أجسامنا حتى تحتفظ بلياقتها وحيويتها مدة طويلة من الزمن في حاجة إلى شيئين: الرياضة والغذاء المعتدل المتوازن، وإن الخلود إلى الراحة وحرمان الجسم من الرياضة إلى جانب الإسراف في تناول الطعام يؤدِّي إلى ترهُّل الجسم وزيادة الوزن والتي تشكِّل بوابة لكثير من العِلَل؛ حيث يعني المزيد من الطعام المزيد من المرض والألم، نحن نعتقد أن الأعمار بيد الله - تعالى - إذ يمكن لمن يملك جسمًا رياضيًّا أن يموت في الثلاثين، كما يمكن لمن يُعاني من عدد من الأمراض أن يحيا إلى السبعين أو الثمانين، لكن

هذا ليس هو القاعدة، إن القاعدة تقول: أنت مُخيَّر بين حياة قصيرة مملوءة بالمتع والملذات، وبين حياة طويلة تتسم بالاعتدال وتأخير بعض الرغبات، والامتناع عن بعض الملذات، وإن مما هو مشاهد بوضوح أننا لا نكاد نرى شخصًا بلغ التسعين مع أن وزنه يزيد (٦٠٪) على وزنه المثالي!

٤ - يقولون: الضد أقرب خطورةً في البال، ونحن نعرف أن من يقوم بمديح شيء أو الثناء على عظيم، فإنه يهدف إلى إبراز خصائص وجميل صفاته ومناقبه، وهذا ما يفعله بعض طلاب العلم حين يثنون على شيوخهم، وما يفعله بعض الشباب حين يثنون على جماعاتهم ويفعله بعض الشعراء حين يثنون على قبائلهم... وهذا المديح يقوم بأداء دوره وتحقيق غاياته ما دام في حدود المنطق والاعتدال، ويفقد في الغالب كل ذلك حين يتجاوز ذلك إلى المبالغة والتطرف؛ إذ من المعروف أن التطرف في مديح شخصٍ مَا يؤدِّي إلى استحضار نقائصه وعيوبه، وكم رأينا من انبرى لذم شيخ من المشايخ بسبب مبالغة طلابه في الثناء عليه! المبالغة في الثناء تثير غيرة الآخرين وحسدهم، وقد تستفز مكامن رؤيتهم العقدية والأخلاقية، فحين نسمع ثناءً على شخص يبلغ به مرتبة المعصوم الذي لا يخطئ، فإننا نتأذَّى بذلك؛ لأننا نعلم أن الكمال لله - تعالى - وحده، والعصمة لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام. وهكذا يصبح المديح وكأنه غير موجود، بل يصبح مصدرًا لإثارة الحنق والغضب تجاه الممدوح حين يتجاوز الحدود القصوى للمعقولية الاجتماعية.

٥ - نحن نعرف أن المزاح بين الأصدقاء شيء مألوف ومحبَّب، فما بينهم من ثقة ومودة وصلات جميلة تجعل من المزاح شيئًا يرطب الأجواء وينعش النفوس، والناس لا يرتاحون في العادة للصديق الجاد جدًّا والجامد جدًّا بسبب الشعور

بالحرمان من المرح والهزل، وهذا شيء معروف وملموس، لكن المزاح النافع والمقبول يفقد فائدته ومشروعيته حين يتجاوز الخطوط الحمراء التي وضعها مَنْ نُمازحه، وربما دمَّر الصداقة التي كانت المسوِّغ له، وكثيرًا ما رأينا المزاح وقد فرَّق بين الأصدقاء، بل قد رأيت من المزاح ما تحول إلى شِجَار عنيف، ومن المؤسف أننا لا نعرف في بعض الأحيان القدر المقبول من المزاح لدى الآخرين، كما أن بعض الناس يملك حساسية مفرطة تجاه أي كلام يمسُّ حياته الشخصية أو عرضه أو محارمه.. المزاح يستمر ويؤدِّي وظائفه الإيجابية ما دام في حدود المعروف والمألوف، وما دام ضمن الحدود التي رسمها من نمازحه لنفسه، فإذا تجاوز ذلك انفجر على ذاته، وانتهى، وأنهى معه علاقات وصداقات جميلة.

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

الجهل بالعواقب من أكثر الأسباب المؤدِّية إلى انتشار (المبالغة) ولو عرف الناس على نحو جيد أن توسعهم في تلبية الرغبات سيحرمهم من الاستمرار في تلك التلبية؛ لضغطوا على أنفسهم، وعملوا على ضبط سلوكهم، ولهذا فإن شرح هذه السُّنة وتثقيف الناس بكثير من الأمثلة والنماذج المجسِّدة لها، سوف يُقلِّل من التمادي في المبالغة، وهذه التوعية هي من مسؤولية المُفكِّرين على نحو أساسي.

التربية داخل الأسرة على فضيلة الاعتدال والتوسط في الشأن الشخصي، وفي النظرة إلى الأشياء، وهذا يكون في الأساس في اعتدال الأبوين وفي توفير بيئة تتَّسِم بروح التوسط والتوازن على صعيد الإنفاق المالي وعلى صعيد التعامل مع الصغار.

9

الفوضى...
موصولة بالغموض



الفوضى... موصولة بالغموض

حين يولد الإنسان يشعر بخوف شديد من كل ما حوله، ومصدر ذلك الخوف كثيرًا ما يتجسَّد في غموض القوى والأشياء المحيطة، ومع الأيام يزول الغموض وتتحدد العلاقات، ويتم تصنيف الأشياء الآمنة والأشياء الخطرة، لكن ذلك كلّه يظلُّ غير مكتمل، ومع التقدم الحضاري تتعقَّد الحياة، وتكثر التفاصيل، وتتفتَّق الأذهان عن الكثير من الأسئلة التي لا يعثر لها الإنسان إلا على أجوبة احتمالية، لا تقطع نزاعًا، ولا تشفي غلة، وهذا يكون في مجال الإنسانيات والاجتماعيات أكثر بكثير منه في مجال الطبيعيات والعلوم البحتة عامَّة، مما يؤدِّي إلى انتشار غموض واسع المدى، ومع الغموض تأتي الفوضى؛ حيث يصبح الإمساك برؤوس الموضوعات وتحرير بعض

المسلَّمات أمرًا صعبًا بل خارجًا عن الطوق، هنا تبدأ الشكوى من عدم اليقين ومن ضآلة ما هو موضع إجماع، ولك أن تتأكد من هذا من خلال استعراض الجدال العريض الذي يدور حوله مدلولات كلمات من نحو: الأمن،الحرية، التطرف، الدولة الإسلامية، العلمانية، الليبرالية، الإسلام السياسي..إن هذا كله يسبِّب للإنسان الكثير من الإزعاج؛ حيث إن الإنسان قد تعلم من تاريخه أن الغموض يأتي بالكثير من المفاجآت غير السَّارة؛ مما يربكه، ويجعله غير قادر على اتخاذ القرار الصحيح، أي يقع في الفوضى أو ما يشبه الفتنة.

● لماذا تتصل الفوضى بالغموض؟

أكرم الله – تعالى – بني الإنسان بأدمغة عملاقة بما تعنيه الكلمة، لكنها في النهاية محدودة وذات طبيعة خاصَّة، ومن طبيعتها أنها لا تستطيع التعامل بكفاءة مع الأشياء العائمة، ولهذا فإن أول نتائج زوال الحدود بين الأشياء يتمثل في ارتباك عقولنا، فتضطرب أحكامنا، وتختلف آراؤنا. الأمور العائمة هي كل ما هو من قبيل (الكيف) أو ما يُسمَّى بـ (الصفات) وهي لا تحصى، ولا تعد، وذلك مثل ألفاظ من نحو: الكرم، البخل، الشجاعة، القوة، القلة، الكثرة، الانتصار، التقدم، التخلف، الجمود، النشاط.... فحين نقول: لدى فلان الكثير من المال، فإن المخاطب يرتبك في فهم كلمة (الكثير)، ويبدأ في البحث عن قرائن تساعده على الفهم؛ حيث إن مدلول عبارة: لدى فلان الكثير من (المال) قد يعني مئات الملايين إذا قالها رجل يملك المليارات، وقد تعني مئة أو مئتين إذا قالها رجل لا يجد عشاءه مخاطبًا بها أشخاصًا مثله وهكذا... هذا الغموض في مدلول العبارة يُحدث نوعًا من

الفوضى في مواقف الآخرين ممن قيلت فيه، فإذا تبرع الرجل بمئة درهم لمشروع خيري، فهناك احتمال؛ لأن يوصف بالكرم البالغ من قِبَل أشخاص يعتقدون أنه لا يملك سوى ثلاثمائة درهم، ويمكن أن يوصف بالشُّحِّ البالغ من قبل أشخاص يعتقدون أنه يملك الملايين، مع أن هؤلاء وأولئك سمعوا كلمة (الكثير) لكن بما أنها تدل على شيء مائع وغير محدد حصل التباين الذي وصل إلى حدِّ التضاد، وهكذا تلازِم الفوضى الغموض.

شيء آخر يؤدِّي إلى ارتباط الفوضى بالغموض، وهذا الشيء هو أن عقولنا غير مؤهَّلة - في تركيبها الأصلي - إلى إدراك الحدود التي تنقلب عندها الفضائل والإيجابيات إلى رذائل وسلبيات، ففضيلة مثل (الحلم وسعة الصدر) إذا زادت عن حدٍّ معيَّن تحولت إلى رذيلة نُسمِّيها الجبن والذل والتخاذل والعجز، ولهذا فإننا نجد تعليقات متضادة على الموقف الواحد، وكم سمعنا من يقول: فلان حليم على خصومه، ومن يقول: إنه ليس بحليم لكنه عاجز عن أن يفعل أي شيء، أو يقول: فلان تعود الذل، فلا يشعر بالإهانة. تنظيم ردود الأفعال يخضع لمحصول ما ندركه من الأحداث والمواقف والوقائع، وإن غموض هذه لا بد أن يُحدِث نوعًا من الفوضى في ردود أفعالنا عليها.

ينشأ الغموض - وما يتصل به من فوضى - في أحيان كثيرة بسبب القصور في التوصيف وبسبب غموض القوانين التي تحكم بعض التصرفات والحالات. إن الغموض فيما أشرت إليه يُتيح للرغبات أن تتحقق بعيدًا عن الضوابط الأخلاقية، والقانونية، وهذه هي الفوضى بعينها، وحتى يكون ما أقوله واضحًا فإن لك أن تنظر في الفوضى التي تسود مؤسسة تفتقر إلى التوصيف الوظيفي؛ حيث يجهل

الموظفون أمورًا أساسية عن مؤسستهم ودورهم فيها مثل:

- مُسمَّى العمل الوظيفي.
- الأهداف الأساسية التي يجب على الموظف تحقيقها.
- الواجبات والمسؤوليات مع وصف كل واجب ومسؤولية في فقرة منفصلة.
- علاقات الموظف: حدود علاقته برؤسائه ومرؤوسيه وتحديد من يحق له الاتصال بهم...
- المهارات المطلوبة لإنجاز المهام وتحقيق الأهداف.
- الحقوق المعنوية والمادية.

إن هناك الكثير من المؤسسات الصغيرة التي تعاني من الافتقار إلى التوصيف الذي أشرنا إليه؛ ولذلك فإنها تكون غارقة في الفوضى والنزاعات والاتهامات المتبادلة مع انخفاض الإنتاجية.

● تطبيقات عملية:

١ - تعقد مدلول الكلمات:

لدينا ما لا يحصى من الكلمات ذات الدلالات الرجراجة، لكن بعض الكلمات تتسع لتشمل وضعًا أو قطاعًا طويلًا عريضًا، مثل كلمات: الحضارة، الثقافة، التقدم، التخلف.. في هذه الحالة فإن الغموض يصبح أمرًا لا مفر منه، ومن هنا فإننا لا نعجب مما ذكره بعض الباحثين من أن لـ (الثقافة) نحوًا من مئة وخمسين تعريفًا! ونستطيع هنا أن نشرّح مدى الغموض الكائن في كلمة (الأمن) على نحو الآتي:

يرتبط التعريف التقليدي للأمن على المستوى الموضوعي بغياب التهديد ضد

القيم المركزية، أما بالنسبة إلى الناس فإنهم يكونون آمنين حين يغيب الخوف من أن يتم المساس بتلك القيم. القيم المركزية هي قيمة الحياة والمعتقد وحرية التعبير والحركة والتملك والنقد، وقيم أخرى من هذا القبيل.

تقوم الحكومات بتكوين الأجهزة التي تأخذ على عاتقها حماية ما يعدُّه الدستور والعرف قيمًا جوهرية.

يشعر الناس في بعض بلاد العالم بالكثير من الطمأنينة حين يحضر رجل شرطة أو رجل أمن لأنهم يشعرون بأنه جاء من سيساعدهم على حماية ما يرونه جوهريًا في حياتهم. في بلدان أخرى يشكِّل حضور رجال الأمن شيئًا مرعبًا، مع أن الأهداف المنصوص عليها والمقننة لهؤلاء وأولئك واحدة، وهي توفير الأمن وحمايته!

هناك رجال أمن لا يلتزمون بالعمل على تحقيق الأهداف التي تمَّ توظيفهم من أجل حمايتها، ومنهم من لا يلتزم بالتعليمات والقيود التي تحكم ممارساتهم، وهؤلاء خارج نطاق حديثنا.

رجل الأمن ليس مطالبًا بالحفاظ على أمن الأشخاص فقط، بل إنه مطالب بحفظ أمن البلاد والمصالح العامة، ومطالب كذلك بالحفاظ على أمن الحكومة، وهو ولا شك خلال قيامه بكل ذلك سيسعى إلى حفظ أمنه الشخصي.

ليس كل رجال الأمن مثقفين بما فيه الكفاية بالقيم والحقوق التي عليهم حمايتها وصونها، ولهذا فإن رؤيتهم لما عليهم القيام به ليست موحَّدة، ولا واضحة بالقدر الكافي.

جرت عادة الناس أن يطالبوا المساعدة على حفظ أمنهم الشخصي، أما حفظ أمن البلد أو أمن الحكومة، فهذا كثيرًا ما يكون مغيَّبًا، أو غائرًا في الوعي؛ ولهذا

فإنهم وهم يمارسون ما يرون أنه حرية شخصية وحق مشروع - قد يضرون بالمصلحة الوطنية أو بسياسات الحكومة أو حقوقها.

لا يستطيع رجل الأمن في كثير من الأحيان رؤية الموقف والتصرف المتوازن الذي يحفظ فيه القيم والحقوق الأساسية لكل من الناس والبلد والحكومة في آنٍ واحد بسبب التداخل الشديد بين كل ذلك وبسبب عدم توفر ما يكفي من المعلومات والمعطيات حول المشكلات التي يعالجها.

النتيجة المتوقعة لكلِّ هذا الغموض وكل هذا التعقيد هو ارتباك شديد واختلاف عميق حول الخطوات والجهود المناسبة للحفاظ على الأمن، فلا تكاد تدخل بلدًا من بلدان العالم، حتى تجد نوعًا من الجدل حول تصرفات بعض رجال الأمن، والسبب الرئيسي هو ما ينطوي عليه مفهوم (الأمن) من غموض وتركيب.

٢ - غموض الأشخاص:

نلتقي من خلال حركتنا في الحياة بأشخاص كثيرين مختلفي الأطوار، فنرى الذي يعرض كل تفاصيل شؤون حياته أمام الملأ، ونرى كذلك من يتكتم على كل شيء يتصل به، وكأنه أسرار خطيرة، لا ينبغي لأحد الاطلاع عليها، ومع أن كلا النموذجين بعيد عن الاعتدال إلا أن النموذج الثاني هو موضع الاستشهاد.

إن الناس على نحو عام لديهم فضول وحب لمعرفة كل شيء عن الذين يعرفونهم، كما أن لديهم توجُّسًا عميقًا من الجهل التام بهم، ولهذا فإنهم يتعاملون بحذر شديد مع الأشخاص الغامضين. الرجل الذي يتكتم على كل شيء إلى حد الوقوع في الكذب حين يُسأل عن أمور لا يرغب في إطلاع الناس عليها، هذا الرجل يجعل من نفسه محورًا لظنون الناس وشكوكهم وتقوّلاتهم؛ حيث إن غموضه يثير شهيتهم

للحدس بشأنه، وحين تستمع إليهم تلمس فوضى تحليلاتهم وتقديراتهم وأحكامهم عليه، وذلك بسبب قلة المعلومات التي تساعدهم على تكوين رؤية واضحة حول معالم وملامح شخصيته ومعالم أوضاعه وأحواله.

٣ - غموض الحدود الفاصلة:

شَرَعَ القيِّمُ عَلى مسْجِدِ حَيِّنَا ذات يوم بتجديد فرشه، وأراد أن يضع خطوطًا بلون مختلف عن باقي الفرش من أجل المساعدة على استقامة الصفوف، وقلت وقتها له: أرجو أن يكون الخط عريضًا يساوي حجم (القدم). فقال لي: ولمَ؟ قلت إذا كان الخط ضيقًا، فسوف يتيح للناس أن يجتهدوا في وضع أقدامهم عليه، فمنهم من سيضع مؤخرة قدمه، ومنهم من سيضع رؤوس أصابعه، ومنهم من سيضع منتصف قدمه، لكن صاحبنا لم يَعِرْ هذه الملاحظة الاهتمام الكافي، وتمَّ فرش المسجد، وكانت الخطوط المغايرة ضيِّقة جدًّا، وبعد انتهاء فرش المسجد ومُبَاشرة الناس للصلاة فيه وإذا بالإمام يفاجأ بأن الصفوف غير مستوية؛ حيث وقع ما حذَّرتُ منه، فاضطُّر إلى توجيه الناس المرة تِلْو المرة -دون فائدة تُذْكر- إلى أن يضعوا رؤوس أصابعهم فوق الخطوط الرفيعة!

وكم ثارت بين الفلاحين من مشكلات أريقت فيها الدماء بسبب عدم معرفة الحدود الفاصلة بين أراضيهم؟

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - علينا أن ننظر إلى الوضوح في كل شيء على أنه فضيلة من أعظم الفضائل، ولهذا فإن من المهم أن نحدد التعريفات والمصطلحات التي نستخدمها تحديدًا

دقيقًا قبل إصدار أحكام على مدلولاتها أو اتخاذ مواقف منها أو إجراء نقاشات حولها؛ حيث إن عدم القيام بذلك ربما جعل كثيرًا من جهودنا عقيمًا أو من غير معنى.

٢ – حين تشرح لإنسان موضوعًا مُعقَّدًا، أو تحدِّثه عن قضية كبرى، فإن من المفيد دائمًا أن تسأله عما فهمه منك من أجل تفادي سوء الفهم قدر الإمكان.

٣ – إذا تحدثنا عن قضية كبرى مثل: التخلُّف أو الإصلاح أو الالتزام أو التحلُّل الخلقي... فإن علينا من أجل التخلص من الغموض أن نفتتها إلى وحدات صغيرة، فنقول في الإصلاح – مثلًا –: لدينا إصلاح تربوي وتعليمي واقتصادي وسياسي واجتماعي... ثم نتحدث عن البيئة التي يتطلبها الإصلاح وعن الجهات التي ستباشره، وعن التكاليف التنظيمية والمادية التي يتطلبها ذلك.

٤ – اعتماد التوصيف أساسًا في محاربة الغموض والفوضى: توصيف المهمات والأهداف والمسؤوليات والحقوق والواجبات والعلاقات وكل ما يمكن أن يتيح فرصة للفهم السيئ أو الاستغلال من قبل هذه الجهة أو تلك.

٥ – ما دامت عقولنا ترتبك في التعامل مع ما هو من قبيل (الكيف) فإن من المهم أن نركز في تعبيراتنا على (الكم) والذي يتمثل في الأرقام والأوزان والمقاييس، فنقول: فلان حصل في الاختبار على (٩٤٪) عوضًا عن القول: فلان نجح بتفوق، ونقول: مساحة القاعة التي جلسنا فيها (٦٠) مترًا مربعًا عوضًا عن القول: جلسنا في قاعة كبيرة وهكذا..

●●●●

10

كلما تقدم الإنسان اتسعت دائرة مسؤولياته

هي... هكذا

10

لا بد

كلما تقدم الإنسان اتسعت دائرة مسؤولياته

من القول في البداية: إن الشعور بالمسؤولية هو شعور فطري؛ فالإنسان مهما كانت درجة تحضُّره وتعلُّمه، يشعر بمسؤوليته حيال سلامة جسده، وحيال استمرار حياته وضرورة الدفاع عن وجوده؛ بل إننا نجد أن البارئ عَجَلَّ قد برمج الحيوان على هذا، فهو يستطيع مع القليل جدًّا من التعليم والتدريب تأمين قوته وحماية نفسه من الأخطار المُحدِقة. هذا الشعور ينمو مع الأيام، وتتسع دوائره كلما تعلم الإنسان، وكلما تحضّر أكثر، وكلما شعر بالأمن والاستقرار، وتقلّب في الرفاهية أكثر، وهو سُنَّة من سُنن الله - تعالى - في الخلق، ويمكننا استخدام هذه السُّنَّة في توجيه حياتنا المعاصرة، والارتقاء بها إلى حيث ينبغي أن تكون.

● مفاهيم في إطار هذه السُنَّة:

١ - الشعور بالمسؤولية هو شعور المرء بأنه قادر على أن يُلزم نفسه بإنجاز عمل أو وقوف موقف ما، ثُم القدرة على الوفاء بذلك الالتزام بواسطة جهوده الخاصَّة.

ومن الواضح أن الشعور بالالتزام لا يأتي من فراغ؛ لأنه سلوك وموقف يقوم على شعور والشعور يُسبق عادة بتصور معين، ولهذا فإن تطور التصورات سيعني تطور المشاعر، أما انسجام السلوك مع المشاعر، فهذا لا يكون آليًّا، وإنما لا بد مع المشاعر من وجود الإرادة الصلبة، وإن مشكلة كثير من الناس أنهم لا يملكون تلك الإرادة، ولهذا فإنهم لا يفعلون ما يشعرون بأهمية فعله.

٢ - لو تأملنا في النصوص الشرعية لوجدنا أن الكثير منها أسَّس بوضوح تامّ للشعور بالمسؤولية أفقيًّا ورأسيًّا، فمن النصوص الدالة على الشعور الأفقي قوله ﷺ: **« كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع، ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهلّه، ومسؤول عن رعيته، والمرأة في بيتَ زوجها راعية، وهي مسؤولة عنَ رعيتها، والخادم في مال سيده راع، وهو مسؤول عن رعيته »**[٨]. والتعميم في قوله: « **كلكم راع، وكلكم مسؤول عَن رعيته** » يُظهر أن التفصيل المذكور في الحديث هو عبارةً عن أمثلة، والمقصود هو لفت الانتباه إلى أهمية بحث المسلم عن المسؤوليات المُلْقَاة على عاتقه كي يقوم بها على الوجه المطلوب.

ومن النصوص التي تؤسِّس للشعور بالمسؤولية على المستوى الرأسي قول الله - تعالى - : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ

---

٨ - رواه الشيخان وغيرهما.

إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[٩]. قال ابن جبير: إن المقصود بهذه الآية هو ما سنُّوا من سُنَّة، فعمل بها قوم من بعد موتهم، فإن كان خيرًا فله أجورهم، لا ينقص من أجر من عمله شيئًا، وإن كانت شرًّا فعليه مثل أوزارهم، ولا ينقص من أوزار من عمله شيئًا[١٠]، وهذا المعنى واضح جدًّا في قوله ﷺ: « **مَن دعا إلى هُدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا** »[١١]. إن هذا المعنى من المعاني الجليلة في تأسيس الشعور بالمسؤولية؛ حيث إن على المسلم أن يحذر من أن يؤدِّي شيء من كلامه أو عمله إلى إضلال الناس أو تسهيل المعصية عليهم.... وهذا الحذر يعني أن يمتلك المسلم درجة من الخيال تمكّنه من تصوُّر تفاعل الناس مع أقواله وأفعاله، وذلك التفاعل قد يكون جيدًا، وقد يكون سيئًا، وعلى المسلم أن يكون واعيًا بهذا وذاك، وإذا أردنا مثالًا عمليًّا لهذا، فلننظر إلى قول عمر ؓ: « والله لو عَثُرتْ شاة في أرض العراق لخشيت أن يسألني الله عنها، يقول: لِمَ لَمْ تعبِّد لها الطريق؟ »!

٣ - لو تساءلنا عن الأداة الأساسية لبناء الشعور بالمسؤولية لدى الأجيال الجديدة لوجدنا أن تلك الأداة هي (التربية) فهي التي تحوِّل المعلومات والمعطيات المعرفية والأخلاقية والاجتماعية إلى (ثقافة) أي قناعة وسلوك يتعاليان عن النقاش والجدال؛ حيث يندفع المرء إلى تحمل مسؤولياته في موقف معين بطريقة

---

٩ - سورة يس: ١٢.

١٠ - تفسير ابن كثير ٦: ٥٦٦.

١١ - رواه مسلم.

لا واعية، أو بطريقة تشبه أن تكون آلية. التربية هي التي تجعل المرء معاصرًا - بما تعنيه الكلمة - ولهذا فإننا نجد أن أبناء بعض الأسر يقدّمون نموذجًا للذوق والإحساس بالآخرين وفق آخر ما انتهى إليه المجتمع في ذلك، ونرى أبناء أسر أخرى يعيشون في حيٍّ آخر من المدينة يتصرفون وفق ما كان يتصرف أقرانهم قبل قرن أو قرنين. إن التربية هي التي تصنع الفرق، وهكذا فإنك ترى طفلًا ابن ثلاث سنوات ينظف أسنانه قبل النوم دون انقطاع، ويبحث في السوق عن سلة قمامة ليلقي فيها شيئًا في يده، وترى طفلًا آخر من سِنّه لا يعرف شيئًا اسمه فرشاة الأسنان، ولا شيئًا اسمه وضع القمامة حيث ينبغي أن توضع. التربية إذن هي الأداة التي توسع مساحة الشعور بالمسؤولية، ومن خلال ذلك التوسع تتكون النماذج الريادية التي تأخذ بيد المجتمع في حركة تصاعدية في معارج التقدُّم والتحضُّر، ومن غير التربية تظلُّ المعاناة من الهُوَّة الفاصلة بين ما نعلم وبين ما نفعل.

٤ - تتسع دائرة الشعور بالمسؤولية في الأوضاع الحضارية المتقدمة بسبب ما يحدث من تغيرات بيئية وبسبب ما يملّكه التقدم الحضاري للناس من فرص وإمكانات، وما يوفره من بدائل. دعونا نتصوَّر أوضاع شخص عاش في البداية قبل مئتي سنة؛ لنقارن ما ندركه من تلك الأوضاع مع أوضاع إنسان يعيش في مدينة متحضرة مثل: برلين أو طوكيو، وسنجد من خلال تلك المقارنة الفارق الهائل بين شعور كل منهما بالمسؤولية.

أ - ابن البادية يعيش مع مجموعة محدودة من قومه، أي في بيئة ضيقة يعرف فيها الناس بعضهم عن بعض أدق التفاصيل، ويمكن أن يُناقَش ويعاتَب أي واحد منهم في أي موقف يقفه، وأي تصرف يتصرفه، وهذا يجعل الجميع يتصرفون بحذر شديد

مع شعور برقابة الآخرين وتقييدهم لحرياتهم؛ ولهذا فإن الواحد منهم يمتنع عن عمل الكثير من الأشياء التي يرغب في عملها بسبب الخوف من النقد والمقاطعة، أما الذي يعيش في مدينة كبرى فإنه لا يعرف إلا القليل جدًّا من الناس، ولا يعرفه إلا القليل، وإذا خرج من حيِّه أمكنه أن يفعل الكثير من الأشياء دون خشية المحاسبة أو المتابعة من قبل أي أحد، وهذه المساحة الواسعة من الحرية تجعله يشعر بمسؤولياته عن القرارات التي سيتخذها في ممارسة ذلك العدد الكبير من الأنشطة والسلوكيات التي أتيحت له، ولهذا فإن الوازع الداخلي لدى المستقيم من أبناء المدن الكبرى أقوى بكثير من الوازع الداخلي لدى الذين يعيشون في بيئات بدائية أو ضيِّقة جدًّا، ولكلٍّ قاعدةٍ شواذٌ.

ب - في البادية يفتقد الإنسان الكثير من الأشياء المهمة، على حين أن الإنسان في مدينة متقدمة يجد الكثير من البدائل التي يحار عند اختيار واحد منها، خُذْ على سبيل المثال مسألة تعليم الأولاد؛ حيث نجد أن من النادر جدًّا أن يجد البدوي في الصحراء روضة لتعليم أطفاله، ولهذا فإنه لا يشعر بأي مسؤولية تجاه هذه المسألة على حين أن ابن المدينة يجد بالقرب من منزله عددًا من رياض الأطفال، وعليه أن يُقرِّر أكثرها ملاءمة له، ولأولاده، إنه قطعًا يشعر بمسؤولية الاختيار، ولك أن تقول مثل هذا في مسألة التعليم الجامعي وفي اختيار المهنة أو الوظيفة التي على المرء الالتحاق بها، ففي الصحراء ليس أمام الشاب من عمل سوى رعي الماشية أو العمل في زراعة قطعة أرض صغيرة، على حين أن الشاب في المدينة يجد عشرات المجالات التي يمكن أن يعمل فيها، وفي كل مجال عشرات المؤسسات والمصانع والورش التي يمكن أن يلتحق بواحدة منها، وعليه أيضًا أن يُقرِّر ما الذي

عليه أن يتَّجه إليه، وسيجد نفسه مهمومًا حيال العثور على القرار الصحيح في ذلك.
ج -في البادية تكون المعارف المتعلقة بجوانب الحياة المختلفة ضحلة أو معدومة، وليس كذلك الشأن في المدينة، ولنأخذ على سبيل المثال شعور المرء بالمسؤولية تجاه سلامة جسده وحمايته من الأمراض ومعالجته حين يلمُّ به المرض، فنحن نجد أن ابن البادية ليس لديه سوى روايات شعبية غير مُوثَّقة ولا موثوقة حول أسباب الإصابة بالأمراض، وهو لا يجد إلا القليل من الأدوية التي يمكن أن يستخدمها.. أما ابن المدينة فهو مُثقَّف ثقافة صحّية جيِّدة، وبين يديه إمكانات عملية للاستشفاء والتداوي، ولهذا فإن ربَّة المنزل في المدينة تأخذ بأسباب وقاية المنزل من الجراثيم، كما أنها تحرص على إعطاء أبنائها الأدوية، وتعرف أيضًا المشافي الملائمة لعلاج ابنها إذا ألمّ به مكروه... ومن هنا فإن ابن المدينة يشعر بمسؤولية كبيرة تجاه وقاية نفسه وأبنائه من الأمراض، كما يشعر بالمسؤولية حيال علاجهم حين يمرضون، وهكذا نجد أن هموم ابن المدينة تجاه العديد من جوانب الحياة أكبر بكثير من هموم ابن البادية الذي ليس لديه سوى القليل من المعرفة، وليس بين يديه سوى القليل من الأسباب.

● **نماذج تطبيقية:**

١ - الإسلام بنية حضارية متقدمة، وإن التمسك الصارم بتعاليمه يعني ارتقاء المسلم في سلم التحضُّر، والذي يعني كما أسلفنا المزيد من الشعور بالمسؤولية، ومع أن لدينا الكثير الكثير من الأمثلة إلا أن من أوضحها مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حيث يشعر المسلم الصالح أنه مسؤول على نحو مباشر

وشخصي عن سلامة مجتمعه على مستوى المظهر العام وعلى مستوى الحفاظ على الآداب والفضائل السلوكية كما أنه مسؤول عن إشاعة العدل ودفع الظلم والحفاظ على مقدَّرات بلده ومكتسباته ومرافقه وموارده... وعليه من أجل النهوض لكل ذلك أن يوجِّه ويرشد وينصح، كما أن عليه أن ينهى وينكر، ويمارس نفوذه الأدبي... من أجل محاصرة الشر، وحين لا يكون المسلم ملتزمًا، فإنه لا يشعر أنه مسؤول عن أي شيء من ذلك، وعدم الالتزام يشكل ضربًا من ضروب التخلف، وأظن أن هذا واضح.

٢ - في حالات التخلُّف الحضاري الشديد، وفي الحياة البدائية والبدوية تكون معرفة الإنسان بما يجري في العالم معدومة، أو محدودة حتى إنها لا تكاد تكون أكثر من أخبار متناثرة تفد من هنا وهناك، أما تكوين بنية ذهنية متماسكة عن أحوال العالم، بل عن أوضاع الناس في المدن القريبة، فإنه بعيد المنال، ونجد تجسيد هذا المفهوم في الأعمال التطوعية والخيرية عبر العالم، فالدول والشعوب الأكثر تقدُّمًا وتحضُّرًا هي الدول الأشد اهتمامًا بالقراءة وتداول المعرفة، وهي الأكثر انخراطًا في العمل التطوعي والأكثر اهتمامًا بالعمل الخيري والأكثر تشييدًا لمؤسساته والأكثر جمعًا للأموال التي تنفق في وجوهه، ويكفي في هذا السياق أن نقول: إن أمريكا تجمع سنويًا للعمل الخيري أكثر من مئتي مليار دولار، وينخرط من أبنائها في أعمال تطوعية منظمة نحو من ثلاثة وتسعين مليون شخص، أي نحو (٣٠٪) من السكان، ولدى فرنسا ما يزيد على ستمائة ألف مؤسسة خيرية، ونحو من (٤٥٪) من البالغين فيها يقومون بأنشطة تطوعية؛ والحقيقة أن الأرقام المتوفرة في هذاالمجال كثيرة، وإذا قارنًا هذا مع العمل الخيري في العالم الإسلامي عامَّة،

والوطن العربي خاصّة، فإننا سنجد أنه لا وجه للمقارنة، وعلى سبيل المثال فإن في الكيان الصهيوني مؤسسة خيرية أو لا ربحية لكل (١٧٦) شخص، على حين أن في الدول الخليجية مؤسسة خيرية لكل ستين ألف شخص!

إن الإنسان الذي يعيش في بلد مُتحضِّر يشعر بإشباع حاجاته الأساسية، ومِن ثَمَّ فإنه ينتقل إلى إشباع حاجاته الروحية، وهو يجد في العمل التطوعي والخيري ما يشبع تلك الحاجة على نحو جيد؛ حيث يتواصل الإنسان حينئذ مع قيم عميقة في ذاته مثل: قيم التضحية والتعاطف والمؤازرة والإغاثة والتعاون والتشجيع...

٣ - التحضر العمراني يزيد في إحساس الإنسان بالمسؤولية من خلال توسيع مساحات الاهتمام بالأحداث والأوضاع العامَّة مما يدفع الإنسان إلى أن يتحمل نتائج أعمال وتصرفات، ليس مسؤولًا عنها من الناحية الشرعية أو القانونية، ولكن بدافع ما لديه من سموٍّ نفسي وشعور بآلام الآخرين وشعور بالمصلحة العامة للبلد أو الإقليم الذي يعيش فيه، وهكذا فإننا نرى اليوم الناشطين في حماية البيئة، ونرى الذين يتظاهرون في فلسطين ضد الجدار الفاصل وقد وفدوا من أنحاء الأرض لمناصرة شعب لا تربطهم به أي رابطة، كما أننا نسمع بين الفينة والفينة عن وزراء يستقيلون من مناصبهم بسبب أخطاء فادحة يرتكبها موظفون صغار في وزاراتهم مع أنهم في الغالب لم يقوموا بتوظيفهم، ولا يعرفون عنهم أي شيء، وهذا شيء يدعو إلى الإعجاب!

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - في البداية علينا أن نتَّخذ من اتساع مساحة الشعور بالمسؤولية معيارًا للتحضُّر

الحقيقي، ونتخذ من اتساع الشعور باللا مبالاة ومخالفة القوانين والنظم السارية مؤشرًا على التخلف، وإن في إمكاننا أن نتخذ من حجم العمل الخيري والتطوعي في أي بلد مؤشرًا على قوة الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، وهذا معيار جيد؛ لأننا به نمتلك مقياسًا كميًّا لحالة معنوية وشعورية.

٢ -من المهم أن ننمي في بيوتنا ومدارسنا فضيلة الشعور بالمسؤولية من خلال تنمية الإحساس بالآخرين، وتقدير ظروفهم، ومن خلال مساعدتهم والوقوف إلى جانبهم، وهذا يتطلب أن نكوِّن لدى الصغار عقلية السعة عوضًا عن عقلية الشُّح والأثرة والغيرة والمنافسة، وهذه هي الإشارة التي ينبغي أن نلتقطها من قول الله - جل وعلا -: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[١٢]، ولهذا شرحٌ لا أودُّ أن أخوض فيه هنا.

٣ - لا ينمو الشعور بالمسؤولية في أجواء القهر والكبت والمتابعة الشديدة، وإنما ينمو في أجواء الحرية؛ حيث يشعر الإنسان أنه مُخيَّر بين أن يفعل كذا، وأن يفعل كذا، وحين يختار أحدهما يكون قد مارس حُرِّيته، وعليه أن يتحمل مسؤولية اختياره، على قاعدة: « مارس حريتك، وادفع الثمن » ومن هنا فإن التربية والقيادة وكل محاولات التغيير والإصلاح ينبغي أن يُعوَّل في نجاحها على التحفيز والجاذبية، وليس على الإكراه والضغط.

٤ - إن زجَّ النفس في سياق المبادرة الاجتماعية مثل مباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالشروط والآداب المعروفة وممارسة الدعوة إلى الله - تعالى - إلى جانب الانخراط في العمل الخيري والتطوعي، مما ينمي لدى الإنسان الشعور

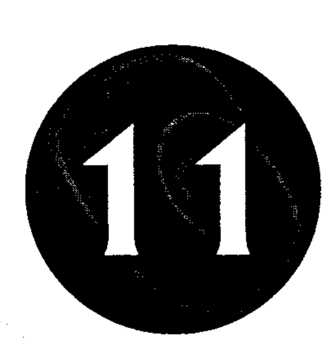
---

١٢ - سورة البقرة: ٢٦٨.

بالمسؤولية؛ حيث يلمس منافع ذلك، ويألفه، ويصبح بالتالي جزءًا من حياته اليومية، وهذا مشاهَد ومجرَّب، لكن نحتاج إلى ما يكفي من العزيمة كي نكسر رهبة الخطوة الأولى.

٥ - إن مما يُنمي الشعور بالمسؤولية وضوح العقود وتوصيف الوظائف وكل ما يتحدث عن الالتزام الشخصي، فالعقد الواضح تمامًا يحدد مسؤوليات كل طرف من أطرافه، والموظف الذي يعرف ما الذي عليه أن يعمله بالضبط، ويعرف ما هو خارج اختصاصه يسعى في الغالب للوفاء بما تمَّ توظيفه على أساسه، وقد دلَّتْ الخبرة التاريخية على أن غموض العقود والاتفاقيات من أكثر ما يتيح للناس التنصُّل من واجباتهم ومسؤولياتهم.

● ● ● ●



كل ما هو إنساني نسبي



كل ما هو إنساني نسبي

الدنيا محدودة، هكذا قال جميع الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وقالوا أيضًا: إن الإنسان ضعيف، وقدراته محدودة، وحصوله على الكمال لا يتجاوز المقاربة والمناهزة، ولهذا فإن كل ما لديه من صفات حسنة وقبيحة نسبيّ في حسنه وقبحه، وكل ما لديه من إنجازات، وما يرتكبه من أخطاء نسبي في عظمته وفحشه، وحين نريد تقييم أي شيء، فإن ما نقوله سيظلُّ غير حاسم، فإذا كنا - مثلًا - نقيِّم لوحة لحديقة متخيَّلة فقد نقول: إن هذه أجمل لوحة يمكن للعين أن تراها، فإذا اطلعنا على لوحة أخرى، فقد نقول: إن اللوحة الأولى تبدو وكأنها مملوءة بالعيوب إذا ما قارنّاها باللوحة الثانية، وقد نرى موقفًا مريعًا في اللؤم والجحود، ونظن أن ذلك

الموقف هو أسوأ موقف يمكن أن يقفه إنسان، وبعد ذلك قد نرى ما هو أسوأ منه، ونقول: ذلك الموقف لا يُذكر إلى جانب هذا الموقف وهكذا...

إن الفعل البشري - في كل الاتجاهات- ما زال مستمرًّا، ولهذا فإن الأفضل والأسوأ قد يكون فيما هو قادم، وليس فيما مضى، ومن هنا نقول: إن كل ما هو إنساني نسبي. وقد قرَّر القرآن الكريم ما يشير إلى هذه الحقيقة، على ما نجده في قوله -تعالى-: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[١٣]؛ حيث إن الإشارة التي نلتقطها من هذه الآية: وفوق كل ذي فهم وذي تقوى وذي جمال وذي غنى... من هو أجمل وأفهم وأتقى وأغنى منه.

● مفاهيم في إطار هذه السُّنَّة:

١ - إن علينا حين نتعامل مع شيء معقَّد - كالشأن الإنساني - أن نلزم الدقة في تعبيرنا، فأنا لا أقول: كل شيء نسبي، فهذا غير صحيح في نظري بسبب كثرة المطلقات التي نؤمن بها، ونلمسها، ولكنني أتحدث هنا عما يتعلق بالإنسان من صفات، وما يصدر عنه من أفعال، وهكذا فالشخص الذي يوصف في بلد مثل الدنمارك بأنه قصير، يُنظر إليه في أندنوسيا أو كوريا على أنه طويل، بحسب ما يغلب في كلِّ بلد من الطول والقصر، والشخص الذي يُنَظر إليه في أوربا على أنه أسمر يُنظر إليه في أفريقيا بأنه أبيض أو شديد البياض، لكن اعتقادي بأن هناك بلدًا اسمه مكة المكرمة أو القاهرة أو بكين... هو اعتقاد مطلق تمامًا مثل الاعتقاد بأن الكرم - في الجملة - ممدوح، وأن البخل مذموم، وأن بر الوالدين فضيلة....

---

٣١ - سورة يوسف : آية ٦٧.

٢ - يمكن لكثير من الأشياء أن يتأرجح بين المطلق والنسبي، والقاعدة العامة في هذا أننا حين نذهب باتجاه تصورالأصول والكليات والقواعد الكبرى، فإننا نتجه في الحقيقة نحو المُطلَقات، وحين نتحدث عن الجزئيات والفرعيات والمسائل والملاحظات الصغيرة، فإننا نتحدث آنذاك عن أمور نسبية، وهذا يعود إلى وحدة الطبيعة البشرية، وإلى ما تراكم من خبرات ثقافية عالمية على مدى التاريخ، وهكذا فإن من الصعب أن نعثر على ثقافة تمجِّد الغدر بالجار وأكل حقوق الناس، وتؤثر الفقر على الغنى والموت على الحياة، وما ذلك إلا لأن الوفاء واحترام حقوق الآخرين والسعي إلى الغنى والحفاظ على الحياة من القيم المطلقة التي أجمعت عليها البشرية، أو من نعرفهم من شعوب الأرض على الأقل، وحين نخوض في شيء من تفاصيل وجزئيات هذه القيم، فقد نجد من يعتقد أن من المسموح به أخلاقيًا في بعض الظروف الخاصَّة أن يسلك المرء سلوكيات تجرح هذه القيم، أو تعكِّر صفوها، كما هو الشأن في رذيلة (الكذب) حيث ورد الترخيص في الكذب في محادثة الرجل زوجتَه ومحادثة المرأة زوجَها، مما يطيِّب النفوس، ويدرأ بعض المفاسد، ومثله الكذب في الإصلاح بين الناس وفي شؤون الحرب؛ لأن الحرب خدعة. ولك أن ترى مثل ما أشرنا إليه في الفقه الإسلامي؛ حيث نجد أن الفقهاء مجمعون على وجوب صلاة الظهر ووجوب القيام في الصلاة وكون كل ركعة مشتملةً على ركوع وسُجودَين... لكن حين يصيرون إلى كيفية وضع اليدين أثناء القيام وحكم القراءة خلف الإمام وما شاكل ذلك من الأمور الجزئية، فإنهم يختلفون في ذلك؛ لأن الجزئيات والفرعيات هي موطن الرؤية النسبية وموضع الجدال والاختلاف، وهذا واضح.

٣ - لدينا شيء مهم، هو أن الناس وإن كانوا يؤمنون بأن القيم مطلقة وأن الموقف منها ينبغي أن يكون موحَّدًا إلا أنهم حين يدركونها يدركونها على أنها نسبية؛ حيث يستطيع وعي الواحد منهم أن يكتشف لصاحبه نوعًا من الخصوصية التي تمكّنه من التخفف من الالتزام ببعض الفضائل، كما تمكّنه من استسهال الوقوع في بعض المحظورات، ولدينا الكثير من الأمثلة على ما نقول: هذا رجل يقول: أنا كذبت على مديري؛ لأنه يحقدعليّ، وهو ينتظر أي هفوة أقع فيها حتى يفصلني، من عملي، وهذا طالب يقول: سمحت لنفسي أن أغش في الامتحان؛ لأني لو لم أفعل لرسبت، ورسوبي يشكّل كارثة لأسرتي التي تنتظر تخرجي على أحرّ من الجمر... هذا اللون من الإدراك ومن التفكير يُخرج القيم في كثير من الأحيان من حيز الإطلاق، ويُدخلها في حيِّز النسبية، وهو يشكل مقتلًا خطيرًا للقيم النبيلة ومنزلقًا مخيفًا نحو الوقوع في المحظورات!

● تعليل هذه السنَّة:

١ - على مدار التاريخ كانت الثقافات الشعبية عبارة عن ملوِّنات لطبائع البشر، إنها تجعل الناس يظهرون وكأنهم لا ينتمون إلى نوع واحد من مخلوقات الله - تعالى - إن أعراف الشعوب وتجاربها وانطباعاتها عن أحداث الحياة وشؤونها مُتَّحِدَة أو متوافقة فيما لا يحصى من الأشياء، لكنها أيضًا مختلفة في الكثير من الأمور، ونحن نشاهد أن الأوربيين قد ينظرون بعين الريبة حين يرون رجلين من العرب أو غيرهم وهما يتعانقان بحميمية ولهفة عارمة، وحين يلتقي رجل مسلم برجل وامرأته، فإنه يصافح الرجل ويضع يده على صدره حين يرحب بالمرأة، أما الغربيون فإن الواحد منهم إذا

لقي رجلًا وامرأة، فإنه يصافح الرجل، ويقبِّل المرأة، وهذا مستنكَر لدى الشرقيين على نحو عام،إذن سيرورة الأعراف والتقاليد في العالم ليست مُتَّحدة الوجهة ولا موحدة الملامح، ولهذا فإن الفعل الإنساني الواحد يبدو مقبولاً لدى شعب ومرفوضًا لدى شعب آخر.

٢ - الظروف التي يمرُّ بها الشخص والشروط والمعطيات المصاحبة أو المحيطة بنشاط أو إنجاز من الإنجازات تجعل رؤيتنا للأشياء متباينة، على نحو ما نشاهده في كثير من المواقف. هذا طالب نجح بدرجات متدنية جدًّا، ومع ذلك فهو فرح وممتن لذلك؛ لأن الذي كان يتوقعه من نفسه هو الرسوب بسبب المشكلات التي تعصف بأسرته وبسبب اعتقاده بِكُره بعض أساتذته له وحرصهم بالتالي على رسوبه... أما والد الطالب، فإن نتيجة ابنه قد خيبت آماله؛ لأنه يعتقد أن ابنه ذكي جدًّا، لكنه لم يبذل أي جهد من أجل النجاح، وهكذا فالطالب مبتهج بما حصل عليه من درجات قليلة، وأبوه غاضب وحزين بسبب اختلاف منظور كلٍّ منهما، ولو أن الأب وابنه اجتهدا للنظر من كل الزوايا وأخذ كل المعطيات بعين الاعتبار، فربما انتهيا إلى رؤية موحَّدة أو متقاربة لتلك النتيجة.

٣ - اختلاف المعايير مؤثر ثالث في وجود النظرة النسبية؛ فالجهة التي تستخدم معايير عالية في التقييم ترى الأشياء بطريقة مختلفة عن جهة تستخدم معايير منخفضة، وهكذا فإن أرباب العمل يرحبون في شركاتهم بأي شاب متخرج في جامعة مرموقة جدًّا، بل إن بعض الشركات تقول: إذا لم تكن متخرجًا من واحدة من الجامعات العشرين التالية... فلا تتقدم إلينا بطلب للعمل، على حين أنهم ينظرون نظرة مختلفة جدًّا لطلاب الجامعات الضعيفة أو العادية، والسبب هو معايير

الجودة المتَّبعة في الجامعات، والتي تختلف بين جامعة وأخرى.

٤ - قد ذكرت أن الفضائل الكبرى مطلقة وموضع اتفاق بين الناس على اختلاف شعوبهم ومِلَلهم، لكن هناك أمرًا مهمًّا يجعل كثيرًا من القيم يبدو في نظر الأمم والأفراد وكأنه نسبي، وهذا بسبب ما نعرفه من أن الفضيلة وسط بين رذيلتين، ونحن مع الأسف لا نعرف الحدَّ الذي إذا جاوزته فضيلة من الفضائل انقلبت إلى رذيلة، وعلى سبيل المثال فإن الشجاعة فضيلة من أعظم الفضائل، لكنها محفوفة برذيلتين: التهور والجبن، وقل مثل هذا في الكرم والحلم واللطف والاهتمام بالآخرين.. ومِن ثَمَّ فإن من السهل أن يقول بعض الناس عن موقف من المواقف: إنه شجاع، ويقول آخرون: إنه متهور ومندفع أكثر مما ينبغي، بل يمكن أن تقول فئة ثالثة: إن ذلك الموقف عادي، بل يميل إلى الخوف والجبن. وقل مثل هذا في اهتمام أحدهم بأصدقائه ومحاولة مساعدتهم في الكثير من شؤونهم. هذه الفضيلة يمكن أن يُنظر إلى من يتحلَّى بها على أنه إنسان عظيم ووفيّ، ويمكن أن يُنظر إليه على أنه متطفل ويبحث عمَّا لا يعنيه.

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - شيء جيد أن يعرف المرء منذ البداية أنه لن يبلغ الكمال لا في شكله ولا في مواقفه ولا في أعماله وإنجازاته، وهذا مهمّ؛ لأن بعض الناس لا يعرف هذا المعنى، مما جعله يُرهق نفسه وغيره، وأحيانًا تكون طموحاته غير متناهية، مع أن إمكاناته متواضعة، فيشعر بالكثير من الشقاء والتعاسة مع أن عليه أن يكون سعيدًا وشاكرًا لما وفَّقه الله - تعالى - له.

٢ - الاعتقاد بنسبية نجاحاتنا يحمينا من الغرور والكبر، إذ إننا حين نُدِلّ بإنجازاتنا نكون قد وضعنا أنفسنا في سياق سيِّئ: نتكبر على مَن هُم دوننا، ويتكبر علينا مَن هُم فوقنا، وليس هذا طريق المؤمنين. طريق المؤمنين هو اتهام النفس بالتقصير وتشجيع الآخرين على المزيد من العطاء والتقدم.

٣ - علينا انطلاقًا من نسبية ما لدينا أن نتقبل النقد والنصح، فالمسلم يفرح بالنصيحة، ويصغي للناقدين حتى لو كان نقدهم بأسلوب غير مهذب، وعلينا من باب أَوْلَى أن نقبل مناقشة إنجازاتنا وأوضاعنا والعمل على تطويرها والارتقاء بها.

٤ - إذا كان الوعي البشري يدرك القيم على أنها نسبية - كما أشرنا - فإن هناك خطورة مستمرة تتمثل في إيجاد المسوغات للتقصير في واجب والقعود عن مكرمة والوقوع في خطأ أو معصية، والحل الناجع لهذا هو أن نطلب المعونة من الله - تعالى - ونأخذ بالعزائم، ونجاهد أنفسنا في ذات الله كي نقدم النموذج الريادي في السراء والضراء.

●●●●

12

الشيء بوظيفته

هي... هكذا



الشيء بوظيفته

الحكمة الإلهية خلف كل الأشياء الجميلة والدقيقة وخلف كل التوازنات العظيمة في هذا الكون، وهذه السُّنة التي بين أيدينا الآن تشكل لونًا من ألوان توازنات الوجود؛ حيث إن لكلِّ شيء ما يمكن أن نسميه (تكلفة وجود) إنه يأخذ حيزًا من الفراغ، وقد يسهم في تلويث البيئة، وقد يُحدث شيئًا من التوتر لمخلوق ما، وقد يستهلك شيئًا من الموارد المتاحة... وتأتي وظائف الأشياء؛ لتخفف من تلك التكلفة، أوتلغيها، فيكون الغُنْم في مقابل الغُرْم، وبما أنه ليس هناك اليوم شيء مجاني - تقريبًا - فإن اكتشاف أو تحقيق التوازن الذي أشرنا إليه لن يكون مجانيًا، وهذا من تمام الابتلاء، إذ إن تكاليف الوجود ثابتة ويتم دفعها سواءً عرفناها أم لم نعرفها، أما اكتشاف

وظائف ومنافع الأشياء، فإنه يحتاج إلى بحث واجتهاد وكَدٍّ وعمل، وهذا ما يقوم به الباحثون والمُفكِّرون في أرجاء الأرض.

المعنى المباشر لهذه السُّنة واضح؛ فقيمة الأشياء بالوظائف والأدوار التي تؤدِّيها، وكلما كثرت الوظائف الإيجابية للشيء علتْ قيمته، واشتدت الحاجة إليه، وصار إحساسنا به أقوى، وكلما فقد الإنسان أو الشيء وظيفة من وظائفه تراجعت قيمته، وفقد جزءًا من مسوغات وجوده، وهذا ثابت إلى درجة يمكن أن نقول معها: إن فقدان الوظيفة هو فقدان للذات أو فقدان للوجود، تعالوا لنطبِّق هذا الكلام على شخص يرأس شركة عظمى، فيها عشرات الألوف من الموظفين، ولها فروع حول العالم؛ حيث إننا سنرى أن ذلك الرئيس ينتقل من بلد إلى بلد، وفي كل بلد يلتقي بعشرات الأشخاص، ويصدر الكثير من التعليمات، ويراجع الكثير من الأعمال، وهو إلى جانب هذا زوج وأب وفرد في قبيلة أو أسرة ممتدة..كما أنه قد يكون عضوًا في عشرات المؤسسات الخيرية والربحية، وله أصدقاء وجيران.. إنه في الحقيقة يؤدِّي عشرات الوظائف في الحياة، ويقوم بالكثير من الأدوار. هذا الشخص بلغ الخامسة والستين، وتمت إحالته إلى التقاعد، فتقلصت أسفاره، وتراجعت قدرته على تحمل أعباء السفر، كما أن كل العلاقات التي كانت تربطه بالعملاء والحلفاء صارت من ذكريات الماضي بسبب ترك الوظيفة، كما أن دوره بوصفه مربيًا لأطفاله قد انتهى؛ حيث كبر أولاده، وصاروا آباء يمارسون التربية، وتضاءلت حاجته الغريزية إلى زوجته، فصار من الممكن أن تقوم بزيارة بعض بناتها الشهرَ والشهرين دون أن يشعر بالضيق، فإذا طال عمر ذلك المدير، وبلغ التسعين، سيطر عليه السأم من الوجود ومخالطة الناس، وضعُفت صلته بالواقع بسبب تراجع اهتماماته

وذاكرته وبسبب ضعف حواسه (السمع والبصر أساسًا) فإذا ثَقُل، وصار غير قادر على خدمة نفسه فإنه سيشعر بأنه عِبء على الحياة والأحياء، إنه فقد تقريبًا كل وظائفه في الحياة، ولم يبقَ لأحد عنده حاجة، مما يدفع بالناس إلى نسيانه وعدم الإحساس به، فإذا دخل في غيبوبة طويلة عُدَّ في الأموات، وإن لم يمت ولم يدفن بعد، وقد يكون لهذا التوصيف بعض الاستثناءات القليلة والمؤقتة مع أن العين ربما لم ترَ قطُّ رجلًا في المئة يقوم بوظائف ابن الأربعين أو ابن الخمسين.

● نماذج عملية:

هذه السُّنَّة ثابتة، وما سأذكره من أمثلة لا يهدف إلى إثباتها، وإنما إلى إثراء الخبرة بها وتنبيه الوعي إلى الأسلوب الأمثل في التعامل معها:

١ - النقود التي نستخدمها في تبادل المنافع وظيفتُها الكبرى والأساسية هي قياس القيم المالية، فحين نقول: هذا الثوب يساوي عشرة جنيهات، وهذا الثوب يساوي خمسة جنيهات يتَّضح للسامع أن قيمة الثوب الأول هي ضعف قيمة الثوب الثاني، وبما أن السمة الأساسية للمقاييس هي الاستقرار والثبات - كما هو الشأن في الذراع والصاع والرطل - كي تتمكن من التعبير عن قيم الأشياء، فإن العملة تفقد معناها حين تفقد دورها، وأذكر أن (الليرة التركية) مرت مع عملات أخرى بهذه الحالة قبل ربع قرن من الزمان، فكان سعر صرفها يتغير يوميًّا، ولهذا فإن استخدامها صار شكليًّا، حيث كان البائع لأي شيء ثمين يسأل أحد الصرافين عن قيمة الليرة بالنسبة إلى (الدولار) أو (المارك الألماني) في تلك اللحظة! أما العملات المستقرة فهي تعبر عن قيم ثابتة؛ ولهذا فإنها تكون مقياسًا للعملات غير المستقرة.

٢ - إن وظيفة (البندقية) هي إلحاق الأذى بالعدو دون التماسّ معه، أي إنها مدَّت في سلطان اليد، بل إنها تفعل أكثر مما تفعله اليد، وتفقد البندقية معناها وقيمتها الوجودية حين يدخل صاحبها في معركة حامية، ثم تنتهي ذخيرته. إن البندقية في هذه الحالة لم تعد قادرة على إلحاق الأذى بالعدو عن بُعْد، وبذلك يصبح الرمح أعظم فائدة منها.

٣ - حثنا ﷺ على إكرام الجار والإحسان إليه مهما كانت ديانته أو أوضاعه وأحواله، والناس يفرحون بالجار الجيد، بل إن قيمة الدار ترتفع حين تكون في جوار شخص جوَّاد أو عظيم... إن الناس يأنسون بالجار الصالح، ويستمتعون بالتواصل معه في أوقات الرخاء، وينتظرون منه المعونة والمساندة في أوقات الشدة، ويتوقَّعون منه كذلك شيئًا من البرِّ والجود، هذه هي الوظيفة الأساسية للجار، فإذا لم يلمس الجار من جاره شيئًا من ذلك، فإن عدمه خير من وجوده؛ لأن الذي يحدث حينئذ هو شيء من المضايقة؛ حيث إن من شأن احتكاك الناس بعضهم ببعض توليد التوتر وشيء من الصراع والعتب والنقد المتبادل... وما أجمل قول الشاعر:

يلومونني أني بعتُ بالرخص منزلي ... ولم يعلموا جارًا هناكَ ينغِّص
فقلت لهم: كفُّوا الملام فإنما ... بجيرانها تغلو الديار وترخص

٤ - الثروة التي نجمعها لها مهمة أساسية: هي التقرب إلى الله - تعالى - بالإنفاق منها، والحصول على المنافع الأساسية والكمالية، فإذا لم تؤدِّ الثروة هذه الوظيفة، فإن ملكيتنا لها تصبح (وهمية) أي تكون مجرد أموال مكدَّسة لا معنى لها، ووجودها يقترب من عدمها. تصور معي أن شخصًا لا يتصدق، ولا يعرف شيئًا اسمه صلة الرحم، وهو يحتاج حتى يعيش في أقصى درجات الرفاهية الممكنة إلى

مليون شهريًّا، لكن الذي يرد إلى حساباته هو مئة مليون، هذه الملايين الفائضة، والتي لا يستفيد منها صاحبها لا في شيء ديني ولا شيء دنيوي ليست له في الحقيقة؛ لأنها فقدت دورها ووظيفتها في إسعاده ونفعه، وقد عبَّر نبينا ﷺ عن هذه الحقيقة المهمة بتعبير بسيط للغاية حين قال: « **يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت** »[١٤]، هذه العلاقة الوهمية بالمال يمكن أن تتحول إلى علاقة أبدية مثمرة وعظيمة، وذلك إذا أنفقنا المال في سبيل الله - تعالى - إننا نكون بذلك قد جعلناه يؤدِّي أفضل وظائفه على الإطلاق.

٥ - يُعدُّ (الزواج) نموذجًا مثاليًّا لهذه السُّنَّة؛ حيث إن من المعروف أن حاجة كل من الذكر والأنثى إلى شريك حاجة ماسَّة لا تقل في أهميتها عن الحاجة إلى الطعام والشراب، كما أن الزواج هو وسيلة لبقاء النوع الإنساني، أضف إلى هذا أن العلاقة بالزوج والأولاد تشكل مصدرًا من أهم مصادر السعادة... هذه الوظائف البالغة الأهمية والحيوية جعلت من الزواج وبناء أسرة هدفًا لكلِّ شابٍّ وشابّة، مع أن تكاليف الزواج باهظة؛ حيث إن كل زوج يشكل قيدًا على شريكه، كما أن الرجل ينفق الكثير من المال على أسرته، وتعاني المرأة أشكالًا من المعاناة بوصفها أمًّا وزوجة، والناس يتقبلون التكاليف والأعباء الثقيلة للزواج تقديرًا منهم لوظائفه، فإذا اتَّضَح أن الشراكة الزوجية كفَّت عن القيام بوظائفها، فإن المتوقع حينئذ هو (الطلاق) وهذا ما نلمسه في كل مكان من الأرض رغم المرارة التي يتذوقها الأولاد، حين يكون هناك أولاد.

---

١٤ - رواه الترمذي.

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ -على المرء أن يفتح عينيه جيدًا على الوظائف المنوطة به في هذه الحياة، والتي تُعَدُّ المسوِّغ الحقيقي لوجوده، كما أنها هي التي تعمل دون تحوُّل وجوده إلى عبء أو شيء زائد. وهذه الوظائف لا ينفرد الواحد منا ببلورتها وتحديدها، بل لا بد لنا من التأمُّل فيما يطلبه منه التزامنا بالمنهج الرباني الأقوم من سلوكيات ومواقف وعطاءات، كما أنه لا بد لنا من أخذ توقعات الأسرة والمجتمع ومكان العمل بعين الاعتبار، فحين ينظر الناس إلى المثقف - مثلًا - على أنه رجل المرحلة، وأن في إمكانه القيام بكذا وكذا... فإن عليه أن يعمل على تحقيق تلك التوقعات على قدر الإمكان، وإلا فقد معناه في عيون مجتمعه وأهله.

٢ - ما دام الشيء بوظائفه، فإن القيام الجيد بالكثير من الوظائف يعني حياة مضاعفة، ومن هنا فإننا نلاحظ أن أبناء الشعوب الحيَّة والمتقدِّمة يتحركون في كلِّ اتجاه ليسجلوا الكثير من الإنجازات، ويكفي أن نعرف أنهم أكثر أبناء الأمم بذلًا للمال في الأعمال الخيرية وأكثرهم انخراطًا في الأعمال التطوعية، كما أنهم يجوبون الأرض للسياحة واكتشاف الآثار، وما تركته خلفَها الأمم الغابرة. المُسْلِم الذي يشعر بالتميز والاستخلاف في بناء الأرض أولى بذلك من غيره.

٣ - فقدان الوظيفة يؤدِّي إلى فقدان الذات أو فقدان الحياة، وهذا على مستوى التحليل النهائي، لكن قد يتبدى فقد الدور في شكل من أشكال التسلط والعدوان، وذلك يتجلى واضحًا لدى الجهات التي تملك إمكانات كبيرة، كما هو الشأن في الجيوش المُدرَّبة والمسلَّحة بأنواع العتاد، إنها حين تفقد الشعور بوظيفتها في درء

المخاطر عن الأوطان أو تحقيق المصالح الوطنية، تشعر بالضآلة والعدمية، وربما استخدمت قوتها في العدوان على الحياة المدنية والاستيلاء على ما ليس لها، وقد حدث شيء من هذا في التاريخ الإسلامي، ويحدث شيء منه الآن في بعض الدول. وهذا الكلام ينطبق أيضًا على أفراد الناس، فالقوة مثل النار إذا لم تُستخدم بشكل دقيق وحذر فيما ينبغي أن تُستخدم فيه فإنها تتحوَّل إلى أداة إفساد وتخريب.

●●●●

13

لا موازنات جيدة في ظروف متدهورة



لا موازنات جيدة في ظروف متدهورة

لو تساءلنا عن أهم المحاور التي تدور حولها قراراتنا الكبرى، والصغرى، فربما عثرنا على محورين أساسيين:

المحور الأول هو: الموازنة المستمرة خلال التفاعل مع حاجاتنا ومرغوباتنا، فنحن حين نريد تناول أو شراء شيء أو الإقدام على ممارسة عمل من الأعمال نسارع إلى إقامة موازنة بين ما سنأخذه، وبين ما سندفعه، أو بين مضارِّه ومنافعه، ونحن نقوم بهذا من خلال اعتقاد راسخ لدينا بأن لكلِّ شيء ثمنًا يجب دفعه عن طيب خاطر.

المحور الثاني هو: مواجهة التحديات التي تقابلنا، والبحث عن حلول للمشكلات التي نعاني منها.

السُّنَّة التي نتحدث عنها تقول لنا: إن الإنسان سواء أكان في وضعية

الذي يُجري الموازنات بين الأشياء أو في وضعية الباحث عن حلول لمشكلات لا يستطيع أن يصل إلى ما يريد من غير النظر إلى الخيارات المتاحة له، فنحن معاشر البشر ذوو إمكانات محدودة وسيطرتنا على بيئاتنا أيضًا محدودة، ومِن ثَمَّ فإن حُلُولنا لمشكلاتنا ستكون غير كاملة ما دامت المعطيات الناجزة والبيئات التي نتحرك فيها غير كاملة، كما أننا حين نكون في ظروف صعبة ومتدهورة فإن كل الموازنات التي نُجرِّبها ستكون رديئة؛ لأننا حينئذ سنوازن بين السيئ والأسوأ، بل إن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن وعي الإنسان الذي يعيش في ظروف صعبة يفقد حساسيته الخاصَّة للتفريق بين ما يتم الإقدام عليه بدافع الضرورة والحاجة الملحَّة، وبين ما يتم الإقدام عليه بدافع شهوة خفية من حرص وطمع أو بدافع الخوف من وقوع مكروه أشد، وهكذا فإن الشخص الذي يفتقر افتقارًا شديدًا قد يمتهن اللصوصية وسؤال الناس، ويستمر في ذلك ولو تجاوز المحنة دون أن يستشعر ضرورة التوقف لزوال الباعث، وهذا يحدث فيما يبدو لي بسبب ما ولَّدته الوضعية المخزية من تشويه للضمير والوازع الداخلي، فلا يكفُّ اللص عن اللصوصية... بسبب فقد الإحساس بالجرم الذي يرتكبه والإحساس بما يترتب عليه من عقوبة. أما في الأوضاع والظروف الممتازة فإن الشيء الذي يسود هو قائمة طويلة من الخيارات، ولهذا فإن الموازنات تكون سهلة ومريحة، ولك أن تتصوَّر معي شخصًا ينزل في أحد الفنادق الفخمة؛ حيث إن أنواع الأطعمة التي تكون متاحة له قد تتجاوز المئة، ولهذا فإنه سيعثر - غالبًا - بينها على أنواع مما يشتهيه، كما سيعثر على أنواع مما يلائم حالته الصحية، ولو كان يعاني من عدد من الأمراض وفي هذا وأشباهه قالت العرب قديمًا: « من أخفض تخيَّر » أي من كان في رخاء ونعمة

تكون أمامه خيارات كثيرة، فيختار ما يحلو له. ومثل هذه الوضعية وضعية امرأة نزلت إلى السوق ومعها ميزانية مفتوحة؛ لشراء ثوب لمناسبة من المناسبات، إنها ستجد نفسها وقد خرجت نهائيًّا من موازنة ما ستأخذه، وما ستدفعه؟ وسيكون الأمر صعبًا حين يكون لدى المرأة مبلغ زهيد للقيام بذلك، إنها قد تدور في الأسواق أيامًا دون أن تعثر على ما يلائم.

● **نماذج عملية:**

١ - هذا طالب يعيش في دولة شديدة التخلُّف، جامعاتها متخلفة وقليلة، وفرص العمل فيها نادرة، والنمو السنوي للناتج القومي في أسفل السلَّم، هذا الشاب له ولع شديد بدراسة الفيزياء، وهو موهوب فعلًا في هذا الفرع من المعرفة، وحال أسرته لا يختلف كثيرًا عن حال بلده، فهي في وضع بائس أوشبه بائس، ووالده يبذل الكثير الكثير من الجهد من أجل تأمين القوت الضروري لأسرته الكبيرة، هذا الفتى حصل على الثانوية، وأخذت الحيرة تجتاحه، إنه يحب الفيزياء فعلًا، لكن ليس في مدينته جامعة تدرِّس الفيزياء، وهو لا يملك المال للدراسة في جامعة بعيدة عن بيته، ومِن ثَمَّ فإن تحقيق رغبته يبدو مستحيلًا. ولو استدان ودرس فسيواجه مشكلة أخرى، هي أنه إذا تخرج من الجامعة فلن يحصل على فرصة للعمل في مجال تخصُّصه، وهو يرى بأم عينه شبابًا من أبناء بلده تخرجوا من الجامعة وهم منذ عشر سنوات باطلون عن العمل، وذلك بسبب بطء عجلة التنمية. حسنًا سيختار تخصُّصًا في إدارة الأعمال أو الحاسب الآلي أو المحاسبة؛ لأن فرص العمل فيها أفضل من غيرها، في هذه الحالة سيواجه مشكلة هي أنه سيدرس

في علوم وفنون لا يحبها، وهو يعرف أن حب المرء للشيء الذي سيدرسه شرط للإبداع فيه. هنا جاء من يشير عليه بأن يصرف اهتمامه عن الدراسة، ويبحث عن عمل، ولكن ما العمل الذي سيحصل عليه حامل الثانوية إذا كان خريج الجامعة لا يحصل على أي عمل؟!

هناك من أشار على الشاب بأن يعمل في عمل بسيط لا يحتاج إلى أي مؤهل، وعمل فعلًا خادمًا لدى أحد الأثرياء بمرتب قليل جدًّا لا يمكنه من الزواج وبناء أسرة، ولو استمر فيه ربع قرن! واكتشف مع هذا أن عليه أن يتحمل الكثير من الإهانة، وجرح الكرامة...

خياراتٌ كل واحد منها أسوأ من صاحبه، ونتيجة لسوء الخيارات فإن كل موازنات ذلك الشاب كانت سيئة، فهو كمن يقف في حقل أشواك، حيثما اتجه وجد شيئًا يؤذيه! وأخيرًا قرر الهجرة إلى بلد أوربي بطريقة غير شرعية؛ ليرى نفسه أمام خيارات جديدة قد لا تكون أفضل من تلك التي عانى منها في بلده!

٢ - لو نظرنا إلى حركة نمو أجسامنا لوجدنا أن أعضاء الجسد لا تسير نحو الاكتمال في توقيت واحد، فإذا كان المرء لا يصبح حكيمًا وراشدًا بالمعنى العميق حتى يبلغ الأربعين، فإن بعض أعضائه وقواه يدخل في مسار التراجع وهو ما زال في العقد الثالث مثل (الشعر والذاكرة) وبعد سن الأربعين يبدأ كل شيء فينا بالحركة في اتجاه واحد - مع استثناءات قليلة كالمحاكمة العقلية - هو الضعف والتلاشي؛ حيث تصبح كفاءة أجهزتنا المختلفة أقل، كما أن درجة مناعتها وقدرتها على مقاومة عاديات الزمن تتراجع، ومع هذا التراجع العام تتراجع الخيارات أمامنا، هذا الطعام لا يناسبني؛ لأنه يرفع الضغط، وهذا لا يناسب؛ لأنه ثقيل على المعدة،

وهذا لا يناسب؛ لأنه يرفع السكري.. وكلما تقدمنا في السِّنِّ أكثر تصبح الموازنات شيئًا فشيئًا أصعب، فإذا أصيب ابن التسعين بانسداد بشرايين القلب - مثلًا - فإن الطبيب يجد نفسه محاصرًا بين أمرين سيئين: عملية جراحية تشكل خطورة على حياة المريض وبين تناول دواء غير فعَّال، وغير كافٍ لإبعاد شبح الخطرعنه وهكذا تسوء المعطيات والشروط وتأتي معها قلة الخيارات ورداءة الموازنات.

٣ - هذه امرأة تزوجت برجل، وأنجبت منه خمسة من الولد، وهي تشعر أنها قضت معه أيامًا جميلة، وبعد ذلك بدأت تشعر بإهماله لها، ثم لاحظت أنه يتعاطى المخدرات، وصار يضغط عليها؛ لتنفق من مرتَّبها على البيت، ثم صار يحاول أخذ ما وفرته من مال حتى يقيم مشروعًا تجاريًّا، وبعد مدة صار يكثر من السفر إلى خارج البلاد بصحبة أصدقاء لا يُعرف عنهم صلاح ولا استقامة، وصارت تخشى على نفسها من أن يجلب لها معه الأمراض المعدية... وبعد الكثير من النصح والصبر شعرت أنه لا بد من وقفة حازمة ومراجعة نهائية لعلاقة استمرت عشرين سنة. قد وجدت المرأة أن سوء المعطيات لا يترك لها الكثير من الخيارات، والحقيقة أنه قد لا يكون أمامها سوى خيارين اثنين:

أ - العيش مع رجل تتلقى منه ألوان الإهانة، وربما تصبح علاقتها به مصدر خطورة على حياتها مع صعوبة تربية الأولاد في ظلِّ أب يقدم لهم نموذجًا سيئًا بما تعنيه الكلمة...

ب - طلب الطلاق والذهاب إلى بيت أهلها والذي يترتب عليه عدد من الأمور السيئة: تفرق أسرتها وحرمانها من العناية بصغارها والعطف عليهم إلى جانب التأذِّي بالنظرة السلبية للمُطلَّقة؛ بالإضافة إلى كون بيت أهلها قد يكون غير مهيأ

من الناحية المادية والاجتماعية لاستقبالها...

مهما كانت هذه المرأة ذكية، ومهما استفادت من نصائح الآخرين لها، فإن الحقيقة التي لا يمكن أن تتجاوزها هي أنها أمام أمرين أحلاهما مر!

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - إذا كانت الموازنات مرتبطة بوجود الظروف الملائمة وبوفرة الخيارات المطروحة، فهذا يعني أن العمل الاستراتيجي الذي ينبغي أن يظلَّ محور كثير من أنشطتنا هو تحسين البيئة العامة التي نتحرك فيها؛ فالبلد الذي يتمتع بنمو اقتصادي مرتفع جدًّا كالصين مثلًا يساعد أبناءه على العثور على فرص عمل جيدة بسهولة، و بالتالي فإن موازناتهم كثيرًا ما تكون بين الحسن والأحسن.

٢ - العمل التطوعي والخيري بالمدلول الواسع يحسِّن مستوى الموازنات؛ فالشاب الذي يعثر على منحة دراسية جيدة يستطيع دراسة التخصص الذي يحبه في الجامعة التي يتطلع إليها، ونحن نعرف أن كثيرًا من المشكلات التي نعاني منها هو بسبب قصور النظم السياسية والأخلاقية والاقتصادية..والعمل الخيري يشكل استدراكًا على ذلك القصور، وبالتالي فإنه يسدُّ الكثير من الثغرات، ويساعد على رفع الكثير من المظالم الاجتماعية، ولهذا فإن من المهم جدًّا النهوض بهذا القطاع؛ كي يساعد على نهوض المجتمع.

٣ - حين يجد الواحد منًا نفسه أمام خيارات سيئة وموازنات صعبة، فقد يكون من الملائم حينئذ تأجيل اتخاذ أي قرار، والعمل على إيجاد موازنة جديدة، فالمرأة التي تريد شراء ثوب نفيس؛ لحضور حفلة مهمة، ووجدت نفسها غير قادرة على

ثمنه، قد تستعير ثوبًا من إحدى أخواتها، وقد تقرر عدم حضور الحفلة... المهم دائمًا أن نبحث عن خيارات وموازنات جديدة.

٤ - أحيانًا تكون الموازنة سيئة بسبب قصور الفهم وسوء التقدير؛ وذلك لأن الموازنة بين خيار وخيار تقتضي أن نفهم ميزات وسلبيات كل منهما، وهذه عملية ليست سهلة؛ لأن حسنات بعض الخيارات تكون صغيرة لكنها ناجزة وسريعة ولكن سلبياتها قد تكون كارثية، وإنما على المدى البعيد، فنرى المباشر، ونُخدع به، ونعجز عن رؤية مخاطر النهائي، وبذلك تختل الموازنة، ومن هنا فإن علينا أن نجري موازناتنا بهدوء وروية، وعلينا أن نقرأ ونبحث ونستشير حين نكون أمام موقف صعب أو موازنات دقيقة.

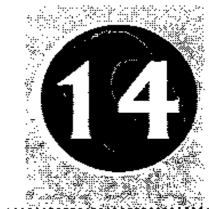
أفضل مكان نحلم بالعيش به هو الجنة؛ حيث كل الخيارات مُتَاحة وغير محدودة مما يعني عدم الاحتياج للقيام بأي موازنة، بلَّغنا الله وإياكم دار كرامته.

●●●●

14

الضغط...
مصدر تشويه

هي...
هكذا



الضغط... مصدر تشويه

من سنن الله - تعالى - في الخلق أن كل شيء ينشأ تحت الضغط ينال حظَّه من التشويه؛ وذلك لأن الله بحكمته البالغة قد منح كل شيء طبيعته الخاصَّة به، وتلك الطبيعة تشكل قوام وجوده، والضغط عليها يغير في شكلها ومضمونها، وحين تصاب البنية بالتشويه تختل الوظائف، وتنشأ العلل، وتتغير العلاقات.

ما الضغط؟

الضغط هو الحمل الذي يقع على كاهل الكائن الحي كي يقوم بشيء، أو يتخلى عن شيء، أو يتلاءم مع شيء يشعر أنه خارج حدود استطاعته أو مصلحته الحيوية...

ويمكن أن ينشأ الضغط من وقوع المرء في حالة من الصراع الحادّ

بين مبادئه ومصالحه، كما أنه قد ينشأ حين يجد الإنسان نفسه مخيَّرًا بين أمرين أحلاهما مر..

ولا بد لي من القول ابتداء: إن شيئًا من الضغط يشكل دافعًا إيجابيًّا؛ لأنه يُحسِّن من مستوى اليقظة الذاتية، فيفتح المرء عينه على أخطاء وقع فيها دون أن يدري أو بسبب سوء التقدير، ولكن حتى يظلَّ الضغط في حيز الإيجابية، فينبغي أن لا يخرج عن حدود الاستثارة، فيتحوَّلَ إلى كبْت. أضف إلى هذا أن المجتمع يستخدم ما لديه من أعراف وتقاليد، وما يعلنه من مصالح مشتركة وأهداف عليا في الضغط على الأفراد من أجل الحفاظ على وحدة المجتمع وتماسكه وسلامه العام.

والحقيقة أن العملية دقيقة جدًّا، وهي أشبه باستئصال ورم في الدماغ؛ حيث إن تراخي المجتمع مع أبنائه ومنحهم الحرية المطلقة قد يدمِّر الأرضية المشتركة التي يقفون عليها، والتمادي في الضغط يجعل التجانس الاجتماعي شكلًا فارغًا من المضمون؛ إذ يعمل الفرد في خلواته ما يخرج على كل ما يعدُّه المجتمع فضيلة، ويظهر أمام الناس وكأنه مواطن مثالي، ومع الأيام تتسع مساحة الحرية الشخصية ويظهر ما كان مضمرًا، ويرى الناس صورًا مريعة من التفسخ.

إذن التحدي الذي يواجهنا على مستوى الأسرة والمجتمع وفي بيئات العمل.. هو: كيف نسمح للطبيعة الإنسانية بالاحتفاظ بجوهرها، وكيف نتيح للتفتح الشخصي الاستمرار بالنمو إلى جانب العمل على أقلمة الأفراد مع النظم والأعراف والتقاليد السارية والمستقرة في بيئاتنا المختلفة؟

- **نماذج عملية:**

١ - الضغط الاجتماعي:

كما أشرت قبل قليل لا يستطيع أي مجتمع الحفاظ على وحدته من غير ممارسة شيء من الضغوط على بعض أفراده، لكن المشكل هو أن العقل الجمعي للمجتمع لا يكون في غالب الأحيان راشدًا بما يكفي، فيضغط على أفراده ضغطًا متعسفًا من أجل التمسك بقيم لا يرى الجيل الجديد أنها صحيحة أو مهمة مما يؤجِّج الصراع بين الأجيال، ويُلحق الأذى بكثير من الشباب والبنات، ويجعلهم في حيرة من أمرهم، والأمثلة في هذا كثيرة، فقد أفادت إحدى الدراسات أن بعض المجتمعات تضغط على الفتيات ممن هم بين العاشرة والخامسة عشرة كي يكَبْرنَ بسرعة، ويسلكن سلوك النساء الراشدات وبعض مواقع (الإنترنت) تحثُّ الصغيرات على وضع المساحيق والعمل على تنزيل أوزانهن بل تجاوز الأمر ذلك إلى النصح بإجراء بعض عمليات التجميل ويمارس المجتمع العربي على نحو خاصّ ضغوطات هائلة على النساء في المظهر الذي ينبغي أن يظهرن فيه في الحفلات والمناسبات الاجتماعية المختلفة إلى درجة أن بعض مجتمعاتنا صارت ترى من المعيب أن تحضر المرأة حفلتين بثوب واحد، وقد أدًّى هذا إلى إرهاق الأزواج وإثارة كثير من المشكلات داخل الأسرة. وإن التشوهات التي تلحق بالرجال والنساء نتيجة الضغط الاجتماعي كثيرة، أهمها التأثير السلبي في كيمياء الجسم وإضعاف الجهاز العصبي وجهاز المناعة مما يعرِّض الجسد للأمراض المعدية، وكذلك أمراض المعدة وشرايين القلب والاكتئاب بالإضافة إلى القلق والتوتر وانطماس

البصيرة وعدم القدرة على التمييز والعجز عن اتخاذ القرار، وهذا كله نتيجة الإرهاق النفسي والعصبي الذي يشعر به الإنسان حين يستمر الضغط عليه فترة طويلة، أما الاستمتاع بالحياة، فيصبح نسيًا منسيًّا!

٢ - الضغط الأسري:

كثيرًا ما تقوم الأسرة بدور الوكيل عن المجتمع فهي إذ تربي صغارها ترقب بعيني صقر رغبات المجتمع والتعريفات التي يضعها لما هو مقبول وما هو غير مقبول، وتزيد على ذلك بالضغط من أجل تلبية رغبات الأبوين وأحيانًا الأجداد والجدات، فإذا قصَّ الفتى شعره قصة ينظر إليها المجتمع نظرة ريبة، قامت الدنيا عليه في المنزل ولم تقعد، ويؤدي التشنج أحيانًا إلى تدمير العلاقة بينه وبين أبويه، مما يعني عجز الأسرة عن التأثير فيه، وهناك من الآباء من كان يرغب في أن يكون طبيبًا، لكنه لظروفٍ ما لم يتمكن من ذلك، فيلحّ على ابنه بأن يدرس الطب ولو كان الابن لا يحب الطب، ولا يجد لديه الإمكانات الذهنية لدراسته، وتتعرض الفتاة في معظم الأسر إلى ضغوط شديدة كيلا تدقّق في الخُطّاب الذين يتقدمون إليها؛ حيث إن شبح العنوسة سيطر على عقول الأمهات، فتقبل البنت بالزواج بشاب تشعر بعمق أنه ليس هو الزوج الذي يمكن أن يسعدها ويصونها، ولهذا فإن لدينا مئات الألوف من النساء المعذّبات بسبب الاقتران برجال قُسَاة عُتاة معدومي المروءة والضمير...

الضغط في الحقيقة لا يقتصرعلى المراهقين والمراهقات؛ بل يتجاوزه إلى الأطفال الصغار، حيث يُحذّر الطفل باستمرار من لمس بعض الأشياء، وقد يعاقَب إذا كسر شيئًا قيّمًا، وتظهر آثار الضغط النفسي عليه في تعود بعض العادات السيئة من مثل:

قضم الطفل لأظافره ووضع أصبعه في أنفه والتلعثم في الكلام والخجل من مقابلة الناس.... إنه سلوك طفولي في الاحتجاج على الضغط الذي يقع عليه؛ حيث يعجز عن التعبير عنه بالكلام!

٣ - ضغوط الامتحانات:

حين يكون النظام التعليمي قاصرًا ومتخلفًا فإن كثيرًا من الطلاب يجدون أنفسهم فارغين من أي مهمات معظمَ أيام السنة، وحين يقترب الامتحان يحدث هيجان هائل؛ حيث يشعر الطلاب بأن عليهم أن يحفظوا كمية ضخمة من المعلومات في مدة قد لا تصل إلى ثلاثة أسابيع، وهذا شيء مرهق للغاية، وتكون النتيجة هي القلق الشديد من عدم التمكن من ذلك، مما يؤدِّي إلى تشويه سلوك الطالب أو تشويه الحياة الطبيعية التي ينبغي أن يحياها، وهكذا فإننا نجد كثيرًا من الطلاب لا ينامون خلال الامتحانات إلا مدة قصيرة، وهم من أجل مقاومة النعاس يتناولون المنشِّطات والتي وإن كانت ترفع درجة الانتباه لدى متناولها إلا أنها لا تحسِّن قدرته على الاستيعاب، وحين ينتهي مفعولها يصاب المرء بحالة انهيار كامل! أضف إلى هذا أن ضغط الامتحانات دفع بعض الطلاب إلى التحايل والغش ودفع آخرين إلى محاولة شراء الأسئلة ورشوة بعض المعلمين من أجل الحصول على بعض الدرجات.. وهكذا فإن ضرر ضغوط الامتحان قد يتطاول؛ ليخرِّب الذِّمم، ويُفسد الضمائر!

٤ - ضغط العاطفة:

العلاقة بين العاطفة والفكر ثابتة؛ فنحن حين نتعلق بشيء نستحث عقولنا على إنتاج الأفكار والبراهين التي تسوغ ذلك التعلق، وحين نغضب من شيء أو نبغضه

نستحث عقولنا على تسويغ ذلك، وكثيرًا ما نجد فعلًا ما نُقنع به أنفسنا، لكن المهم في ذلك هو الحقائق الموضوعية والأصول والكليات التي تشكل المنهج الذي نؤمن به. والحقيقة أن معاناة الناس مع ضغط العاطفة واسعة الانتشار إلى حد يمكن القول معه: إنه مما عمَّت به البلوى، وهذا يكاد يعم العامَّة والخاصَّة، ولا يكاد ينجو منه أحد! من المؤسف أنه حين يستمر ضغط العاطفة طويلًا فإنه يشوه الكثير من الأفكار، والعقائد، ويجعل نظرة من يتعرضون له إلى الواقع والمجتمع عمشاء أو حولاء، وما نراه من قسوة في الأحكام على الآخرين وإقصاء لهم ما هو إلا نتيجة صغيرة من نتائج ذلك الضغط، وقد رأيت من نسي كل أدبيات الإسلام في الرفق والتسامح والإنصاف ليقع في قبضة التعصب المقيت، وليعمل على حمل الناس على ما يهوى، ويرى، ولو كان ما هو مشغول به موضع خلاف ونظر!

إننا في دعوتنا الناس إلى الالتزام بأحكام الشرع نقوم بعمل عظيم ومهم، وإن أعراف المجتمع المسلم الصارمة تجاه كثير من المحرمات ضرورية لوحدة المجتمع وتماسكه، لكن علينا أن ننتبه إلى أن الضغط الذي يمارسه الدعاة والمجتمع عامَّة في اتجاه الصلاح ينبغي أن ترافقه جهود عظيمة جدًا في التربية والدعوة الفردية، وإلا فإن الذي سنحصل عليه هو ازدواج مقيت في الشخصية؛ حيث سيصبح ظاهر المجتمع خيرًا من باطنه؛ لأن من المعروف أن الضغط في المجال الاجتماعي ينتج عنه في الغالب نفاق في السلوك.

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - ينبغي أن نسلِّم بأن شيئًا من الضغط واقع لا محالة، وبعض الضغط - كما

أشرت - إيجابي، ولا غنى عنه، كما أن كون الدنيا دار ابتلاء يقتضي أن نواجه الكثير من الأمور غير السارة والكثير من التحديات المزعجة.

٢ - من المهم أن نوقن أن الطريقة المثلى لجعل الناس يعملون بجدية وجعل الصغار والكبار يمتثلون للنظم والأعراف - هي الجاذبية والتشجيع والتحفيز، وعلينا أن نوقن كذلك أن استخدام الضغط والإكراه إذا زاد عن حدٍّ معين فإنه ينقلب إلى رذيلة، وأنا دائمًا أقول: إن الحكومة الفاضلة هي التي تدير شؤون بلادها بأقل قدر ممكن من القوة، ولا يختلف عنها في شيء أرباب الأسر والمدرسون ورؤساء الشركات ومدراء المصانع...

٣ - أنا أعتقد أن من أفضل ما يمكن أن نتعاون عليه هو أن نخفف الضُّغوط بعضنا عن بعض، فهذا مما يرضي الله -تعالى- ويقوِّي اللحمة الاجتماعية، وإن من جملة ما يمكن أن نفعله في هذه السبيل الاجتهاد في أن لا نحمل إخواننا وكل من له علاقة بنا فوق ما يطيق على الصعيد المعنوي وعلى الصعيد المادي، بالإضافة إلى إتاحة الفرصة لأولي الأفكار بأن يُفصحوا عن أفكارهم، ولو كان فيها شيء من الغرابة أو التشدُّد، فذلك يخفِّف من التوتر لديهم، إنه يقلِّل من غلو أصحابها، ويجعلهم يحسبون حساب ردود الأفعال عليها، كما أنه يدفعهم إلى تلمس صداها لدى الرأي العام.

٤ - حين يواجه الواحد منَّا ضغوطًا غير عادية، فليتأمل فيها، فإن كانت في اتجاه دفعه إلى خير أو فضيلة أو معروف، فليستجب لها، وليتحامل على نفسه، فذاك خيرٌ ساقه الله تعالى إليه، وإن كانت تلك الضغوط ظالمة، أو بسبب سوء ظروف العمل أو ابتلاء حلَّ بالعبد، فليقاوم تلك الضغوط من خلال خطين:

أ - خط استراتيجي؛ حيث يعمد المرء إلى تغيير علاقته بالأشياء التي تسبب له الضغط وإلى العمل على تحسين ظروفه الشخصية.

ب - خط مباشر يعتمد على نوع من إدارة الإدراك، إذ إن من الممكن أن نشتت الضغوط من خلال احتساب الأجر عند الله - تعالى - ومن خلال الرياضة والمرح والاسترخاء والتواصل الاجتماعي ورفع مستوى كفاءتنا الشخصية، إلى جانب البوح عن معاناتنا لبعض الأصدقاء واستشارة أولي الرأي والخبرة.

٥ - المهم دائمًا أن نفرّق بين ما هو طبيعي وإيجابي من الضغوط، فنستجيب له، ونتكيف معه، وبين ما هو غير طبيعي وضار، فنعمل على الخلاص منه...

●●●●

15

التحضر...
يكسو الحياة حلة أنثوية



التحضر...
يكسو الحياة حلة أنثوية

البداوة بكل ما فيها من شظف وخشونة وقلّة هي الحياة الأولى لبني الإنسان؛ لأنها هي الحياة البسيطة، وحياة المدينة هي الحياة المركبة والمعقَّدة، والبسيط يسبق دائمًا المركَّب. حين يسكن الناس الحضر يكونون قد انتقلوا إلى جوٍّ جديد بروحه وأدواته ومُتَعه وحاجاته... ومِن الملاحظ أن الناس كلما مضوا في طريق التحضُّر، وكلما تمكنوا في المدنية أكثر جنحوا نحو المعاني الأنثوية، أي إنه يهيمن على أخلاقهم وسلوكياتهم وعلاقاتهم ما يعد من خصائص المرأة واهتماماتها، حتى إنه ليصحُّ لنا أن نقول: إن روح الحضارة أنثى[١٥]، ولك أن تقول بناء

١٥ - أشار العديد من البحوث والدراسات الأميركية إلى أن التقدم الصناعي يعمل لصالح زيادة الإناث وهذا يظهر على نحو خاص في الأسماك؛ حيث تم اكتشاف ذكور في حوض نهر (نوتاماك)=

على هذا: إن روح البداوة والحياة الريفية ذكر.

ولقائل أن يقول: ما دام العالم كله يرنو إلى المزيد من التحضُّر، وما دام أنه في طريقه إلى ذلك أكثر ميلًا لتمثل المعاني الأنثوية، فإن هذا يعني أن المرأة متقدمة في كثير من خصائصها على الرجل، وعليه أن يتعلم منها الكثير من الأشياء. وعلى كل حال فأنا في هذه السُّنة لا أهدفُ إلى ترجيح كفَّة النساء على كفَّة الرجال، ولا إلى إعطاء شهادة تزكية لكلِّ أشكال التحضُّر وأوضاعه، وإنما أريد مقاربة الموضوع وفهمه على ما هو عليه ليس أكثر. ولا يعني هذا بالطبع إزالة الفوارق بين الرجال والنساء ولا غضّ الطرف عن المخنثين وأولئك الذين يسلكون كل سُبل الفساد، فهذه قضية مختلفة عما نحن فيه؛ ورحم الله مصطفى الرافعي إذ يقول:

وما عجبي أن النساء ترجلت ... ولكن تأنيث الرجال عُجاب

أما أنا فأقول: إن الذي يثير العجب هو ترجُّل النساء، وليس تأنيث الرجال، ما دام العالم كله يجنح إلى التحضُّر، والذي يعني - كما سنرى - اقترابًا من المعاني والخصائص الأنثوية أكثر فأكثر.

● نماذج عملية:

١ - ازدياد نفوذ المرأة:

لا أظن أننا نختلف في أن نفوذ المرأة الأدبي والاجتماعي في المدينة أعظم منه في القرية، كما أن نفوذها في القرية أعظم منه في البادية، والدلائل على ذلك النفوذ

= تنتج البويضات. وبعض تلك الدراسات يعلّل ذلك بالملونات الصناعية التي تلقى في الأنهار، مع إشارة خاصّة إلى حبوب (منع الحمل) المنتشرة في الفضلات الإنسانية. وهذا يعني أن الحضارة تؤنّث الروح والجسد معًا.

كثيرة جدًّا، ومنه ما نشاهده من تراجع تعدد الزوجات كلما مضى الناس في طريق الحضارة، ويتَّضح لنا هذا حين نقارن نسبة الأزواج المعددين في المدن بنسبتهم في القرى فهي في الأخيرة أكبر بكثير منها في الأولى. **السبب المباشر لزيادة نفوذ المرأة في المدن يتمثل في شيئين:**

الأول هو: وجود الكثير من الوظائف التي يمكن أن تحتلها المرأة ووجود فرص كثيرة أيضًا لمزاولة التجارة وإدارة الأعمال الكبيرة، وهذا يجعل استغناء المرأة عن الرجل كبيرًا، إذ في إمكانها الشعور بالاستقلال المالي، سواء أكانت متزوجة أم عزباء.

الثاني هو: **أن الناس في المدن يتذوقون طعم الرفاهية، ومن عادة الكماليات والمرفهات النزوع لاحتلال مقام الضرورات والحاجات**، والمرأة في نظر الرجل من الأمور المهمة لرفاهيته، ولا سيما تلك التي تملك مواصفات عالية، لكنه لا يستطيع أن يترفه بها دون أن يرفهها (ومن هنا قيل إن زواجه ﷺبذلك العدد من النسوة لم يكن للرفاهية؛ لأنه لم يرفِّه نساءه)وإن جزءًا من ترفيه المرأة يكمن في تلبية طلباتها وسماع رأيها والنزول عند رغباتها، وهذا كلها يقوي نفوذها داخل الأسرة، مما يجعل كثيرًا من الرجال في المدن يقومون بأمور يرى فيها ابن البادية نوعًا من المهانة غير المفهومة ولا المقبولة.

٢ - الاهتمام بالتفاصيل:

يمكن القول: إن الاهتمام بالتفاصيل ودقائق الأمور شيء متمكن جدًّا في طبيعة المرأة، ومَن مِنَّا لم يشاهد فتاة في الثالثة عشرة وهي تقف أمام المرآة مدة طويلة، متأملة في قسمات وجهها وتسريحة شعرها مع تخيل الانطباعات التي يمكن أن

تتشكل لدى من ينظر إليها؟ وكم من فتاة رفضت الذهاب إلى حفلة أو زيارة بسبب وجود (بثرة) طارئة في وجهها أو بسبب وجود فتاة لا ترتاح إليها...، وثمة عادة نسائية لا تكاد تشذ عنها امرأة، وهي الحاجة إلى وقت طويل كي تحضِّر نفسها للخروج من المنزل، وقد تقف عشر دقائق أمام خزانة الملابس لتختار الثوب الذي سترتديه، على حين أن الرجل لا يحتاج إلى أكثر من خمس دقائق ليكون جاهزًا للمغادرة. أضف إلى هذا أن معظم الأمهات يقضين جزءًا من وقتهن في تعليم بناتهن ما يليق وما لا يليق خلال الزيارات وحفلات الاستقبال، ومن القصص المتداولة بكثرة في هذا الشأن أن شابًا جاء مع أهله ليخطب إحدى الفتيات، ومن المعروف في بعض البلاد أن الفتاة تقدِّم بنفسها (القهوة) للخاطب ووالدته... مع كأس من الماء، ومن المعروف كذلك أن على من أراد أن يشرب الماء أن يشربه قبل القهوة حتى يبقى طعم القهوة في الفم، لكن ذلك الشاب لا يعرف هذا العرف، فشرب القهوة أولًا ثم أتبعها بالماء، فما كان من الفتاة إلا أن رفضت الزواج من الشاب؛ لأنه لا يعرف (طعم فمه) على ما تقوله الرواية!

لوْ عُدْنا اليوم إلى حياتنا الحضرية لوجدنا أن الاهتمام بالتفاصيل يشكِّل أحد أهم المؤشرات على الرقي الحضاري والتقدم الصناعي، وعلى النجاح في عالم المال والأعمال، وإن شهادات الجودة (الآيزو) كثيرًا ما تُمنح للشركات والجهات التي تهتم بكلِّ شاردة وواردة، وهذا معروف على نحو جيد، ومما يذكر في هذا الشأن أن منظمة الشفافية الدولية خفَّضت ترتيب إحدى الدول الإسكندنافية درجات عدة بسبب تلقي أحد رجال المرور لرشوة من أحد السائقين. وحين يريد رئيس دولة زيارة دولة أخرى فإن الوفد الذي يرتب للزيارة يبحث في دقائق صغيرة جدًّا، ربما لا تخطر

على بال أي واحد مِنّا، وذلك لأن لكلِّ شيء - مهما صغر - معناه ومدلوله الخاصّ.

٣ - النعومة والرقة واللطف:

لا ريب أن اللطف والنعومة هما أهم ما تمتاز به المرأة عن الرجل، وهذا في المبنى والمعنى، فالمرأة في الغالب أقصر من الرجل وأخفّ وزنًا منه، وهذا يجعلها على الصعيد الحسي أضعف من الرجل، وهذا الضعف يصبغ كل كيانها، أضف إلى هذا أن ما لديها من حياء ومن إشفاق على الصغير والضعيف والمظلوم، إلى جانب ما تتمتع به من قدرة على العناية، وما تتمتع به من صبر لا يعرف النفاد، إن كل ذلك يجعل منها الراعي الأساسي لمعاني اللطف والرقة والتصرف الأنيق المحسوب بدقة متناهية.

لو تأملنا في تفاصيل حياتنا اليومية لوجدنا أننا صرنا نقدر اللطف أكثر من أي وقت مضى، وصار من المألوف جدًّا اليوم أن نكرر أثناء تحدثنا مع بعضنا الكثير من الألفاظ والعبارات التي تعبر عن حرصنا على مشاعر من نتحدث معه وعلى راحته، وذلك من مثل: عفوًا، لطفًا، من فضلك، أخشى أن أكون قد سألت عما لا ينبغي أن أسأل عنه، لعلّي قد أسأتُ الفهم... وحين نتصل بصديق من خلال الهاتف، فمن المألوف أن نقول: عفوًا لعلّ الوقت غير مناسب، أعرف أنك مشغول جدًّا، ولكن... أنا في حاجة لأتحدث معك دقيقة واحدة.. كما أننا اليوم قد صرنا نحسن الإصغاء، ونلتزم بآداب الحوار مع خفض الصوت على نحو أفضل بكثير مما كُنّا عليه قبل عشرين سنة، وصار تدخلنا في الخصوصيات أقل، كما صار إعذارنا لبعضنا أكبر، وصار حسُّنا الإنساني أقوى رهافة... والحقيقة أن جزءًا من نعومة الناس اليوم لا ينبع من تأثير الروح الأنثوية في الحياة، وإنما ينبع من انقضاء الحاجة إلى

الخشونة؛ حيث لا نجد حاجة اليوم إلى صراع الوحوش واستخدام العضلات في الدفاع عن النفس أو في قتال الأعداء، وهذا مكّن المرأة من القيام بالكثير من المهام التي كانت موكَلة إلى الرجل؛ حيث أخذت المعرفة تحل محل القوة شيئًا فشيئًا، وطابع المعرفة هو النعومة والتأثير المعنوي مما انعكس على الكثير من مظاهر حياتنا.

٤ - الوله بالتناسق الشكلي:

الاهتمام بالشكل والمظهر جزء من طبيعة المرأة، وقد دلَّ عدد من الدراسات على أن المرأة تُضفي نوعًا من التأنق على مظهرها العام وعلى ثيابها حتى لو كانت في ظروف صعبة جدًّا كتلك الظروف التي يعيشها الناس في (الإسكيمو)؛ حيث البحث المُلحّ عن الدِّفء والغذاء، فقد ذكر بعض الباحثين أن المرأة في الكهوف الثلجية هناك تطرِّز ثيابها وتزخرفها بما يتيسر لها! يحدثني أحدهم أن ابنته التي لم تبلغ الخامسة بعدُ طلبت من أمِّها أن تسمح بتسريح شعرها على نحو معين حتى تلفت نظر زميلها (عبد الله) وقد استغربت الأم من ذلك الطلب!

حين يقع نظر المرأة على حوض زهور فإنها ترى لونه وحجمه ومدى تناسقه على حين أن الرجل قد لا يرى من الصورة إلا بضعة زهور. إن اللون يشكل أحد أعمدة التناسق الشكلي وللمرأة به اهتمام خاص، وتدل الخبرة اللغوية أن لدينا العديد من الألوان الفرعية التي لا تستخدمها إلا النساء.. بل يدل بعض الدراسات على أن قدرة الرجال على التمييز بين الألوان أقل بكثير من قدرة النساء؛ حيث إن عمى الألوان لدى الرجال هو ثمانية أضعافه لدى النساء!

المرأة تهتم بالشكل، وهي تقف أيضًا وراء اهتمام الرجل بشكله، وهذا ليس موضع جدل.

الحضارة الحديثة والتي لم يسبق لها مثيل هي حضارة شكل ومظهر وإضافات بامتياز، وهكذا فقد تكون قيمة ما نُغلِّف به الهدية أكبر من قيمة الهدية نفسها، وقد ندفع ثمنًا عاليًا لوجبة في مطعم من أجل جمال مكانه وإطلالته وموقعه، وليس من أجل نوعية الأكل الذي سنأكله. والحقيقة أنه كلما درج الناس في طريق التمدن والتحضر صار اهتمامهم بالمظهر أكبر من اهتمامهم بالجوهر، وصار التناسق الخارجي أهم لديهم من كُنه البنية الداخلية، ولا أدري السبب الكامن وراء ذلك بالضبط، وربما كان هذا بسبب سهولة تجويد الشكل وصعوبة إتقان المضمون، ومهما يكن الأمر، فإننا نرى اليوم أن إمتاع النظر صار ينال من الاهتمام ما كان يصعب تخيله قبل ثلاثين سنة، وإن كثيرًا من المال يُنفق اليوم على التكميل الشكلي (الديكور) في المنازل والمكاتب والساحات العامة والحدائق... وللمرأة في ذلك كله أثر واضح لا تخطئه العين.

● كيف نتعامل مع هذه السُّنة؟

١ - المدن الكبرى والعواصم هي المسرح الذي تتحرك فيه المرأة بكل جرأة وقوة، وحين يضطر رجل إلى الانتقال من مدينة كبيرة إلى قرية صغيرة لأي سبب فإن ذلك يكون قاسيًا جدًّا على المرأة، وإن على الرجال تفهم هذا والعمل على التعامل معه بالحكمة والكياسة المطلوبة.

٢ - تمنحنا أحكام الشريعة الغراء والأعراف الصالحة والرؤى المعتدلة المعايير

التي نتعرف من خلالها على الحدود التي ينبغي أن يتوقف عندها نفوذ كُلٍّ من الرجل والمرأة في الحياة الأسرية، وإن الاحتكام إليها يقلّل كثيرًا من الخلافات بين الرجل والمرأة.

٣ - نحن سنندفع في ظلّ حضارة الشكل والصورة إلى الاهتمام بالمظاهر بدون أي تفكير أو عناء، ويكون علينا أن نبذل الكثير من الجهد حتى لا نهمل الجوهر، ونجد أنفسنا بالتالي مع الغارقين في القشور والأمور الصغيرة.

٤ - اللطف والرقة والنعومة ومراعاة الآخرين أمور مطلوبة شرعًا وذوقًا، ولكن يظلّ علينا أن لا نقع في الشطط، وأن يكون التوسط والاعتدال مما نحمي به حضارتنا من التفسخ والتحلل.

●●●●

16

الإنسان كائن متكيف



الإنسان كائن متكيف

حركة الحياة ابتلاءات وتحديات مستمرة، والله ﷻ زوَّد الإنسان بقدرة هائلة على مواجِهة تلك التحديات، بل يمكن القول: إننا نلمس مثل هذا لدى الحيوان والنبات في بعض الحالات. نحن لا نُجافي الحقيقة إذا قلنا: إنه يمكن وصف السلوك الإنساني بكونه ردود أفعال للعديد من المطالب والضغوط البيئية والاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان. التكيف هو عملية مواءمة الإنسان لنفسه مع الأوضاع والظروف الجديدة، وهذه المواءمة تكون في بعض الأحيان بتغيير وضعية الإنسان وتعديل سلوكه، وأحيانًا تكون بتغيير البيئة التي يعيش فيها، وتغيير المعطيات التي يتعامل معها، فالجسد يقاوم الحرارة المرتفعة للمناخ عن طريق تعرق الجلد، وما يحدثه

ذلك من شعور بالبرودة، وقد يقاومها الإنسان عن طريق تكييف المكان الذي يعيش فيه، ومن الملاحظ على هذا الصعيد أن من الأهداف الكبرى للتقدم التقني جعل الإنسان يتكيف مع البيئة بتغييرها وليس بتغيير الإنسان، فأنت تلاحظ أن الإنسان استعان على قطع المسافات البعيدة بصنع السفينة والسيارة والطائرة... وليس بتدريب جسمه على تحمل الجري السريع لساعات طوال، كما أنه صنع (المجمِّدات) لأهداف عدة، منها أن يتمكن من أكل ثمار وفواكه الصيف في الشتاء، وخضار وفواكه الشتاء في الصيف، عوضًا عن أن يصبِّر نفسه عنها، ويتكيف مع الحرمان منها. وإذا قارنت بين حياة شخص ثري في سويسرا وحياة فقير معدوم في أوغندا لاحظت كيف أن الأول يكيِّف ما حوله على حين أن الثاني يتكيف مع ما حوله.

● مفاهيم تتعلق بهذه السُّنَّة:

١ - ربما أمكن حصر الأهداف الكبرى التي يتكيف من أجلها الإنسان في ثلاثة أهداف:

أ - البقاء على قيد الحياة على صعيد النوع وعلى صعيد الفرد، ومن أجل هذا البقاء - مع الاستمتاع طبعًا - يتحمل الإنسان تكاليف الزواج وقيوده وأعباء تربية الأبناء ومشكلاتها الكثيرة، كما يتحمل نفقات مكافحة الأمراض وتوفير وسائل الحماية؛ بالإضافة إلى كل أشكال المعاناة التي يتطلبها تأمين الغذاء والماء.

ب - الشعور بالسعادة والرفاهية والراحة والطمأنينة، وهذا يأتي في الأهمية بعد استهداف البقاء، حيث فطر الله - تعالى - الإنسان على السعي إلى الحصول على

المرفهات والكماليات كلما وجد إلى ذلك سبيلًا.

ج - تهيئة البيئة التي تساعد على الأداء المتميز والإنجاز العالي، وهذا مرتبط بالتقدم الحضاري على نحو واضح، فالشعوب الأفضل تقدُّمًا والأكثر تحضُّرًا تبذل الكثير من الجهد والوقت في سبيل التكيف مع متطلبات التفوق والنجاح الباهر. أما الشعوب البدائية والمتخلفة فإن الذي يسيطر عليها في الغالب هو همّ البقاء على قيد الحياة.

٢ - تكيف الإنسان ينقسم إلى قسمين: تكيف هو عبارة عن هبة من الله - تعالى - ولذلك فإنه يتمُّ من غير إرادة منَّا كما هو الشأن في تعرق الجسد حين نكون في مكان حارّ، وكما هو الشأن في تسارع نبضات القلب عند الشعور بالخطر.. أما القسم الثاني - وهو الأهم والأكثر تأثيرًا - فإنه يتمُّ من خلال وعي الإنسان وإرادته وجهده، كما يفعل الخريج الجامعي حين يتدرب على استخدام الحاسب من أجل الحصول على وظيفة في مكان جيد، وكما يفعل من يكظم غيظه حتى لا يثير نزاعًا خطيرًا مع شخص أو جهة..تكيف الحيوان والنبات شبيه بتكيف جسم الإنسان، أي هو عبارة عن تغيرات وتحولات تجري في جسد الحيوان والنبات أو تحدث في سلوكه برحمة الله ولطفه وعنايته وليس بإرادة منه، وهكذا فإن الجمل قادر على العيش في الصحراء أيامًا عدة دون ماء، والحرباء تتلون بلون البيئة التي تعيش فيها، وصارت طيور (القرقف الكبير) تضع بيوضها قبل موعدها بنحو أسبوعين مقارنة مع ما كان يحدث قبل خمسين عامًا ليستفيد الصغار من وفرة الديدان خلال فصل الربيع الذي بات يشهد ارتفاعًا أكبر في درجة الحرارة... إن تكيف الحيوان عبارة عن برمجة زوّده بها الخالق - سبحانه - كي يدافع عن نفسه ويكسب رزقه،

وما أجمل قول الله - تعالى -: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[١٦].

٣ - أحيانًا يعرّفون الذكاء بأنه القدرة على التكيف، وفي نظري أن هذا التعريف وجيه؛ حيث إن ثمار الذكاء تظهر في قدرتنا على استيعاب الواقع بِفرَصِهِ وتحدياته ثم إحداث استجابات ملائمة لها على نحو يمكننا من الاستفادة من الفرص إلى أقصى حدٍّ ممكن والتغلب على التحديات بأفضل صورة ممكنة، ومن وجه آخر فنحن نعرف أن الإنسان اجتماعي بطبعه، فهو خُلق لينشأ في جماعة، وعيشه من غير جماعة يشبه المستحيل، ومن هنا فإن التكيف الاجتماعي الناجح يعبِّر عن ذكاء اجتماعي وعن سواء نفسي جيد، وهذا يأتي من خلال القدرة على التحكم بالمشاعر وضبط الانفعالات في العلاقات الاجتماعية من أجل توفير السعادة والخير للذات وللآخرين، كما يأتي من خلال إيجاد توازن ذهبي بين حاجات المجتمع وحاجات الفرد، ومن خلال دمج طموحات الفرد في طموحات الأمة على نحو يجعله يشعر بأن مصلحته هي عين مصلحة أُمَّته.

٤ - قد يتساءل المرء عن دور التقدم الحضاري في مساعدة الإنسان على التكيف، وهذا التساؤل قد يتركَّز في سؤال جوهري هو: هل التكيف في البيئات المُتقدِّمة والمُتحضِّرة أسهل أو في البيئات النامية أو الأقل تقدُّمًا؟

وأقول للإجابة على هذا السؤال: إن المجتمعات النامية والتي تسمى متخلفة تكون بسيطة في كل شيء، والفوارق بين بيئاتها تكون محدودة، وهذا يجعل التكيف فيها أسهل، أما البيئات المُتقدِّمة فإنها تكون مُعقَّدة، كما أن من شأن التمدن تضخيم الفوارق بين الأفراد والطبقات والبيئات، وهذا يجعل التكيف مع أي وضعية جديدة

---

١٦ - سورة طه: ٥٠.

صعبًا، ويحتاج إلى جهد أكبر، ونستطيع أن ندرك هذا من المقارنة بين الإعداد العلمي والمهني الذي يحتاجه من يريد العمل في شركة كبرى أو مركز أبحاث وبين ما يحتاجه من ذلك من يريد العمل في رعي الغنم أو في تقديم الخدمة للزبائن في مطعم. إن الفارق قد يتطلب خمس عشرة سنة من الدرس والتدريب، لكن علينا أن نقول أيضًا: إن من يعيش في بيئة متقدمة يجد حتى يتكيف مع الأوضاع الجديدة الكثير من التحديات لكنه في الوقت نفسه يجد ما يعينه على مواجهة تلك التحديات؛ فالمدارس والجامعات الجيدة ومراكز التدريب الممتازة متوفرة بكثرة، وأبناء اليوم يجدون ما يمكِّنهم من التغلب على كثير من الصعوبات المختلفة من خلال الانفتاح على البيئات المتقدمة والتواصل مع الخبراء.. وهم في بيوتهم، هذا يعني أن التكيف الجيد اليوم يتطلب معاصرة ومواكبة للمعطيات والمنجزات الجديدة.

التكيف عبارة عن جولات متتابعة من الصراع بين الإنسان وبين كل ما يتطلب منه مواءمة جديدة مع شيء صعب أو غير مألوف أو غير مرغوب فيه... ولهذا فإن المرء كلما كان أقوى عزيمة وأفضل تعليمًا ومتمكنًا ماليًّا أكثر كان التكيف عليه أسهل، ولك أن تتصور معي شخصًا غير متعلم يعيش في البادية، ثم وجد نفسه مضطرًّا للسكنى في المدينة كي يكسب رزقه، أو كي يتمكن من تلقي العلاج في مستشفى متقدم إن عليه أن يتكيف مع الحياة الحضرية، ويحاول تمثيل العادات والتقاليد السائدة فيها، لكن هناك فرق كبير بين من يفد من البادية إلى المدينة وهو فقير معدم وبين من يفد إليها وهو يحمل شهادة عالية أو ثروة أو مبالغ طائلة، إن التكيف سيكون شاقًّا جدًّا بالنسبة إلى الأول؛ لأنه سيجد نفسه وقد سكن في

بيت متواضع جدًّا فيما يسمَّى بحزام الفقر المحيط بالمدينة، وسيعمل في مهنة بسيطة يبذل فيها الكثير من الجهد مقابل القليل من الأجر، وبالتالي فإن أعباء العيش بالمدينة ستكون بالنسبة إليه كبيرة جدًّا. أما المتعلم تعليمًا جيدًا والثري فسيجد الأمور أسهل عليه؛ لأنه سيسكن في حي جيد والمتعلم سيجد عملًا جيدًا، وصاحب المال سيجد فرصًا أكبر لتنمية ماله، ولك أن تقول نحوًا من هذا في ابن المدينة صاحب الثروة وابن المدينة المتعلم إذا ما اضطُرًّا إلى السكنى في البادية، إنهما أيضًا سيجدان أن التكيف عليهما أسهل، فصاحب المال يستطيع بماله إيجاد بيئة، فيها الكثير من نعومة العيش في المدينة، والمتعلم يستخدم ما لديه من معرفة وتفكير منطقي في اكتشاف الفوائد والفرص التي تتوافر لمن يعيش في البادية، مما يجعل التكيف أيضًا سهلًا عليه، وليس كذلك الجاهل والفقير.

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

إن غريزة التكيف من أقوى الغرائز لدى البشر، وبما أنه ليس هناك بيئة وظروف كاملة للعيش وما دامت قدراتنا محدودة مثل سيطرتنا على أهوائنا، فإن من المتوقع دائمًا أن نخفق في بعض تكيفاتنا، وأن يكون بعضها ناقصًا، وإن امتلاك درجة حسنة من الوعي بما يساعدنا على التكيف الجيد والوعي بما يعرقل أو يجهض ذلك التكيف - سوف يحسِّن أوضاعنا على كل صعيد، ولعلِّي أجمل ما أودُّ قوله هنا في المفردات التالية:

١ - القدوة الحسنة:

للنماذج الإنسانية الراقية شرعية اجتماعية واضحة، وتلك الشرعية تجعلنا نتعلم

من الصالحين والناجحين والمتميزين في مختلف مجالات الحياة أساليبَهم في التكيف مع الظروف الصعبة، وقد حدَّثنا القرآن الكريم عن الابتلاءات التي واجهها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وعن جهودهم في مواجهة تلك الابتلاءات حتى نتأسى بهم، وإن من المهم أن ندخل إلى عوالمهم وعوالم كل القدوات العظام حتى نقبس من عزائمهم ونستنير بهديهم.

٢ - وضع الأشياء في موضعها الصحيح:

الدنيا محدودة، وكل ما فيها من خير وشر ورخاء وشدة.. هو في النهاية محدود، ومؤقت، وإننا إذا نظرنا إلى أي مصيبة - مهما كانت فادحة - بأن تأثيرها في مشاعرنا بعد خمسة أيام سيكون أقل بكثير من تأثيرها الآن، فإننا سنشعر بالسلوان وأن الكرب الذي يغشانا كرب آني، وسيزول عما قريب، وإن افتقاد كثير من الناس لهذه النظرة قد جعلهم ينهارون، وبعضهم قد يقدم على الانتحار، أو يقع في دوامة اليأس والإحباط.

٣ - ليس هناك شر أو خير محض:

حوادث الحياة لا تتصف بالنقاء، ومِن ثَمَّ فإن ما نواجهه من رخاء وخير يحتاج منا إلى تكيف جديد يقوم على الحمد والشكر، واستثمار المعطيات الجديدة على أفضل وجه ممكن، وما نواجهه من شدة وصعوبة يحتاج إلى أن نشعر بالامتنان وحمد الله على أنه لم يكن أكبر من ذلك، كما أن علينا تذكر ما ادخره الله - تعالى - لعباده الصابرين من الأجر والمثوبة.

٤ - الهجرة:

إن الهجرة من البيئة الصعبة هي أحد أساليب التكيف الناجح الذي لجأ إليه

الإنسان من قديم الزمان، وإذا أعدَّ الإنسان نفسه إعدادًا علميًّا ومهنيًّا على نحو جيد، فإنه سيجد الكثير من الفرص الجيدة خارج بلده، وبذلك يكون قد تحرر من مشقة الإقامة في مكان غير مريح وغير مناسب.

٥ - التعلم واكتساب المهارات:

هذا الأسلوب في التكيف مع الظروف الصعبة من أفضل الأساليب، إذ إن من الواضح أن المنافسة على كسب الرزق وفرص العمل تشتد أكثر فأكثر بين أصحاب التأهيل المنخفض، وبالتالي فإن نيل الإنسان لشهادة عليا، واكتسابه مهارة أو مهنة عزيزة سوف يُقلِّل من عدد منافسيه، ويجعله يحصل على ما يريد بسهولة وكرامة.

٦ - اصطناع السرور:

يمكن للمرء من خلال الخيال وإيجاد الجو الاحتفالي أن يتكيف مع كثير من الظروف والأوضاع السيئة، وقد حدث في إحدى البلدان أن مجموعة من الشباب حكم عليهم بالسجن مدة سنة، وقد عاشوا في البداية شهورًا مملوءة بالحزن والأسى إلى أن خطرت على بال أحدهم فكرة ذكية، هي الاحتفال في كل مساء بانقضاء يوم من أيام مدة السجن، وقد تحمَّس الشباب للفكرة، وصاروا ينتظرون المساء كي يفرحوا، مع بعضهم، وينشدوا الأناشيد الجميلة، ويتبادلوا الطرف والنكات المسلية.

٧ - التكيف الناجح:

التكيف الناجح هو الذي يمضي بصاحبه إلى ما يستهدفه من ورائه، من طمأنينة وسعادة ونجاح وتفوق.. من غير خسائر وتكاليف غير عادية له أو لمجتمعه، وهكذا فالذي درس في ثانوية ضعيفة، ودخل في جامعة عالية المستوى عليه أن يتكيف مع الوضعية الجديدة، فإذا تفوق في دراسته الجامعية يكون تكيفه ناجحًا، وإذا

رسب أو نجح بصعوبة شديدة يكون تكيفه مخفقًا، والذي يلتحق بوظيفة ممتازة عليه أن يبذل جهدًا كبيرًا كي يُثبت جدارته، فإذا صار يُنْظر إليه على أنه موظف جيد ويُعتمد عليه، فإن تكيفه يكون ناجحًا، وإلا فلا.

حين لا يستطيع المرء مواجهة مشكلاته بوضوح وقوة فإنه يشعر بإخفاق تكيفه معها، وهذا يجعله يحسّ بشيء من التوتر والإحباط، فما يكون منه إلا أن يسعى إلى تكيف جديد يهدف إلى خفض التوتر ونسيان المشكلات التي أخفق في التكيف معها، أو النظر إليها على أنها غير خطيرة أو غير موجودة، وهذا من (الحيل الدفاعية). وتلك الحيل كثيرة، وتشترك جميعًا في خاصتين:

١ - أنها تعمل بطريقة لا شعورية.

٢ - أنها تنكر الواقع وتشوّهه وتزيّفه.

ومن تلك الحيل: التبرير، الإسقاط، التعويض، التسامي، التعميم...

وهذه الحيل تُلحق الضرر بالإنسان عند استخدامها على نحو مسرف؛ لأنها تحرمه من الخبرة والمناعة التي يكتسبها من يصارع التحديات، ويوفر الشروط اللازمة للتغلب عليها.

لكن لنا أن نستثني منها حيلة مهمة، وهي حيلة التسامي والإعلاء، وهذه الحيلة يمكن أن نعرّفها بأنها ارتفاع الإنسان بالسلوك الإنساني غير المقبول إلى سلوك آخر مقبول شخصيًا واجتماعيًا، وذلك مثل الرجل الذي يخفق في حياته الأسرية، فيتجه إلى نظم الشعر أو الانخراط في جمعية خيرية أو عمل دعوي...

إنه يريد أن يقول: إنه لا وقت لديه للعلاقات الأسرية، كما يريد أن ينسى إخفاقه، ويصرف أنظار الناس عنه... وهذا ليس شيئًا سيئًا.

الإنسان كائن متكيف

حبذا لو أننا تجاوزنا إحساسنا بالذنب و الإخفاق عن طريق التوبة والاستقامة على أمر الله وعن طريق تحقيق إنجازات ذات نفع كبير وعام.

●●●●

17

كل نظام...
هو جزء من كلٍّ أكبر

17 كل نظام... هو جزء من كلٍّ أكبر

لو تأملنا في كل مفردات الوجود لَلَمسْنَا بوضوح أن الكون يخضع لغابة من النظم والسنن؛ حيث شاءت إرادة الحكيم الخبير أن يكون كل شيء بمقدار وماضيًا في خطوط منتظمة، ويظهر الكون أحيانًا وكأنه عبارة عن مجموعة هائلة من دوائر ينفتح بعضها على بعض لنرى صلات وثيقة تربط الذرة بالمجرة، والمادي بالمعنوي، والحي بالجماد في تناسق مدهش ومثير. أنا هنا لن أتحدث عن النظم التي تتحكم بمجالات مثل: الفلك والطب والكيمياء والفيزياء، وإنما سأتحدث عن النظم المتعلقة بحياتنا الثقافية والاجتماعية؛ لأن الالتباس يقع فيها أكثر من غيرها.

● مفاهيم في إطار هذه السُنَّة:

١ - يمكن أن نقول في تعريف النظام: « إنه ذلك المجموع الذي يعمل في الوجود بوصفه شيئًا كليًا مكونًا من أجزاء تتبادل فيما بينها الاعتماد والتفاعل » خُذْ مثلًا: النظام الذي يحكم العلاقة بين (الجيران) إنه نظام قِيمي في المقام الأول، فهو يعتمد التعاطف والتعاون والمواساة والصبر والتحمُّل وغضّ الطرف عن الهِنَّات والنصح والمراعاة والإقراض... إن هذه المعاني تشكل هيكل العلاقة بين الجوار في قرية من القرى الإسلامية، وهذه المفردات عبارة عن أعراف ومبادئ عامَّة ومحترمة، لكن تجسيد كل منها في الحياة مرتبط بالبيئة ومرتبط بالوضعية المادية والأخلاقية لأولئك الجيران، ومن المعروف - مثلًا - أنه حين تسكن أسرة فقيرة جدًّا إلى جوار أسرة ثرية جدًّا، فإن الفارق المادي بينهما يقيم حواجز عالية تمنع من التناصح والاقتراض والمراعاة، فالأثرياء يرفعون في العادة أسوار بيوتهم عاليًا، ويصنعون لأنفسهم عالمهم الداخلي الخاصّ، كما يصنعون مسراتهم الخاصَّة، وبذلك تتضاءل علاقاتهم بجيرانهم الفقراء، وتنحدر إلى الحد الأدنى. ويختلف تجسيد المعاني التي أشرت إليها في المدينة كثيرًا عن تجسيدها في القرية؛ فالجيران في المدينة وإن كانوا جميعًا من المسلمين الصالحين والملتزمين يوسّعون دوائر خصوصياتهم مما يحجزهم عن بعضهم، كما أنهم لا يجدون من الأسباب الدافعة إلى التواصل والتعاون ما يجده الجيران في القرى، ومن هنا يتضح لنا أن المفردات التي تشكل نظام العلاقة بين الجوار لا تعمل بشكل مطلق وإنما على نحو متفاعل وتحت تأثير الحيثيات والظروف السائدة.

٢ – تنقسم النظم في العادة إلى قسمين: نظم مغلقة ونظم مفتوحة، النظم المغلقة هي تلك النظم التي لا تتأثر بالبيئة التي تعمل فيها لا على مستوى الأخذ ولا على مستوى العطاء، وتقدِّم (الساعة) نموذجًا واضحًا على النظام المغلق، فهي تتحرك بوتيرة واحدة، وتعطي مدلولات واحدة سواء أكانت في يد زيد أو في يد عمرو، ولا يختلف عملها في الليل عن عملها في النهار، كما لا يختلف في المدينة عن البادية، إنها لا تتأثر بما حولها، وقل مثل هذا في زجاجة وضعنا فيها خمسين عنصرًا كيميائيًّا بمقادير محددة ثم أغلقناها لتتفاعل مع بعضها، وتنتج لنا رائحة عطرية. إن تلك العناصر تتفاعل على نحو ثابت، وتنتج لنا رائحة ثابتة، وهذا ملموس ومعروف. النظام المغلق وبسببٍ من انعزاله عن البيئة يكتسب بثبات صفةَ التدهور والتلاشي بسبب عوامل الطبيعة، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل هناك فعلًا نظام مغلق بشكل مطلق، أو أن انغلاقه نسبي؟ الذي يظهر أن النظم المغلقة على نحو كامل نادرة جدًّا أو غير موجودة؛ فالساعة – في المثال الذي ذكرناه – سوف تتوقف عن العمل حين تفرغ (البطارية) التي تمدُّها بالطاقة وهي تتحمل ضغطًا محددًا من الماء، فإذا نزلنا في البحر إلى عمق خمسة آلاف متر، فإن كثيرًا من الساعات سوف يتوقف عن العمل، وكلٌّ من الساعة والزجاجة المحتوية على المواد الكيميائية سوف تتحول طبيعته، ويكفُّ عن أداء وظيفته إذا تعرض لحرارة عالية (ثلاثين ألف درجة مثلًا). أما النظام المفتوح فهو الذي يسمح بإقامة علاقات مع بيئته، بل إن بقاءه مرتهن بتلك العلاقات، ويمكن أن نقول: إن كل الأنشطة الإنسانية – من غير أي استثناء – تتم في ظل نظم مفتوحة، وتجد هذا واضحًا عند ممارسة التجارة والزراعة والصناعة والتعليم والتربية والسياسة والإدارة، والدعوة واللعب والترفيه

والرياضة... ويقدم (الحاسب الآلي) نموذجًا واضحًا للجهاز الذي يعمل وفق نظام مفتوح؛ حيث إن نصف كفاءته مرتهن لنوعية البرامج التي نمده بها، وهو يقوم بمدنا بالكثير من المعالجات والنتائج العظيمة، إنه يعتمد على البيئة في عمله، ويُغنيها بالعطاء.

٣ - لدينا حقيقة مهمة جدًّا، هي أن النظم لا تعمل في فراغ، أي إن البيئة التي يعمل فيها النظام تحسِّن من كفاءته وجدواه، أو تعمل على ما يخفِّضها، وهذا بسبب انفتاح النظم على بيئاتها وتفاعلها معها، ومن هنا فإنك قد ترى نظامًا في العمل فعَّالًا في بلد ومعوَّقًا في بلد آخر، خذ مثلًا (التسويق على الإنترنت) فهو ناجح جدًّا في الدول الصناعية والمتقدمة؛ لأن هناك الكثير من القوانين والإجراءات التي جعلت الناس يوقنون بأنهم حين يشترون ما يحتاجون إليه عن طريق (النت) فإنهم لن يتعرضوا للخديعة، وسوف يوفرون الوقت والجهد وربما المال. أما في الدول الأقل نموًّا فإن الناس لا يملكون تلك الثقة بسبب تخلف النظم التي تحافظ على حقوقهم، وبسبب ما يؤمنون به من ضرورة (المساومة) عند الشراء أو بسبب اتخاذ التسوق وسيلة للترفيه عن النفس... وقد استعرنا الكثير من النظم في الكثير من المجالات، ولم تؤتِ الثمار التي كنَّا نتوقعها منها بسبب اختلاف بيئاتنا عن البيئات التي نشأت فيها تلك النظم.

٤ - ينبع الكثير من قصور النظم وإخفاقاتها من شيء جوهري، هو عدم استطاعة أي نظام السيطرة على عناصر البيئة التي يعمل فيها، وعلى سبيل المثال فإنه قد يكون لدينا رجل أعمال ناجح جدًّا، عزم على فتح مصنع للسجاد، وهذا الرجل يملك رأس المال المطلوب لذلك، وقد حصل على دراسة جدوى من أفضل

المؤسسات المتخصِّصَة بهذا الشأن، كما أنه جاء بمدير إداري ممتاز جدًّا، واختار عمالة جيدة، ودربَّها على نحو جيد، إنه قد كوَّن منظومة رائعة للنجاح، إن كل هذا لا يجعل بلوغ الأهداف المرجوة أمرًا مضمونًا، لماذا؟ لأن في بيئة عمل المصنع وبيئة تسويق منتجاته عناصر ومعطيات لا يمكن لصاحب المصنع والعاملين معه السيطرة عليها والتحكم بها، مثلًا قد يلمس أحد رجال الأعمال في فكرة مصنع السجاد ما يُغري بتقليدها، فينشئ مصنعًا منافسًا؛ ليقتسم معه السوق، وقد ترتفع أجور العمالة المحلية، فترتفع كلفة الإنتاج، ويصبح السجاد المحلي غير قادر على منافسة السجاد المستورد، وقد يحدث عزوف لدى المستهلكين عن استخدام السجاد في بيوتهم إلى شيء آخر كالرخام أو غيره... هذه الأمور التي أشرت إليها تؤكد أن كل نظام هو جزء من مجموعة نظم أكبر والوعي بهذا يساعدنا على فهم الواقع، كما يساعدنا على تكوين رؤية كلية شاملة.

● نموذجان تطبيقيان:

١ - نظام الزكاة:

لدى المسلمين نظام مفصَّل في توضيح حقوق الفقراء في أموال الأغنياء، نظام يشمل الممتلكات على صعيد النقد وعروض التجارة والعقار والزروع والأنعام، إنه نظام مدهش في تجسيد التضحية من أجل العناصر الضعيفة، وفي تجسيد التراحم بين المسلمين، هذا النظام ليس الهدف منه هو القضاء على الفقر في المجتمع، وليس هناك أي نصوص تشير إلى ذلك، وإنما الهدف من فريضة الزكاة هو تطهير نفوس وأموال المزكين وتقوية الروح التعاونية لدى المسلمين إلى جانب

التخفيف من بؤس الفقراء والمساكين وإعانتهم على بعض لَأْوَاء الحياة، لكن هذا النظام جزء من نظام أوسع هو النظام الاقتصادي في الإسلام، والذي منه الصدقة والقرض الحسن والكفارات والنذور.. وتظهر كفاءة نظام الزكاة بوضوح حين تعمل باقي مكونات النظام بكفاءة وفاعلية، كما أن النظام الاقتصادي لا يعمل بكفاءة إلا في ظلّ عمل جيد لباقي النظم التي تحكم الحياة العامة مثل: النظام السياسي والاجتماعي والتعليمي بالإضافة إلى ما يمكن أن يكون في البلد من ثروات وإمكانات وموقع استراتيجي...

تصوَّر معي أن جميع الأثرياء في بلد مثل الصومال أو بنغلادش يؤدون زكاة أموالهم على نحو ممتاز، هل يظهر أثر ذلك في إنعاش الفقراء على نحو واضح؟

الجواب: (لا) وذلك لأن الصومال تعيش حربًا أهلية منذ ما يقارب عقدين من الزمان، وفيه أعداد كبيرة جدًّا من اللاجئين، وأعداد كبيرة من الأسر التي فقدت معيلها.. أما بنغلادش فإنها بلد محدودة الموارد، وفيها نمو سكاني كبير مع القليل من المال الذي لا يمكن أن يُستثمَر في مشروعات جديدة.

إن علاقة النظم ببعضها تشبه ما بين أجزاء السيارة من علاقة: لكل جزء أهميته الخاصَّة، لكنه لا يكفي بمفرده لعمل السيارة وأدائها لوظيفتها.

٢ - النظام التعليمي:

في كل بلد نظام يتم اتباعه في تعليم الأجيال الجديدة، والحقيقة أن في داخل كل نظام تعليمي مجموعة من النظم: نظام القبول، نظام التدريس، نظام الاختبارات، نظام التعاون مع الأسر في المنازل.. وإن كفاءة كل نظام من هذه النظم تتأثر إيجابًا وسلبًا بكفاءة الباقي، فإذا كان نظام القبول ممتازًا، فإن جودة تأثيره في المخرَجات

التعليمية لن تظهرعلى النحو المطلوب إذا كان نظام الاختبارات سيئًا، أو كانت المناهج ضعيفة.. النظام التعليمي الشامل جزء من مجموعة النظم السائدة في البلد، وعلى سبيل المثال فإن لانطباعات الناس عن أهمية التعليم ونيل الأبناء للشهادات العليا تأثيرًا كبيرًا في التفاعل مع النظام التعليمي، وقد رأيت في بعض البلدان من يُخرج ابنه من المدرسة بعد إنهاء المرحلة الابتدائية؛ وذلك بسبب ما ترسَّخ في وعيه من أن البطالة متفشية في صفوف خريجي الجامعات أكثر من غيرهم، ولما لمسوه من وضعية جيدة لأولئك الذين يعملون في صيانة السيارات أو في التجارة... بعض البلدان تتمتع بنظام تعليمي متوسط الجودة والكفاءة لكن لدى الأسر اهتمامًا شديدًا بتعليم أبنائها ومتابعة مستمرة لهم، وهذا أدَّى إلى رفع سوية كثير من الفتيان والشباب ودفعهم إلى إنهاء دراستهم الجامعية على الرغم من قلة المدارس المتميزة في تلك البلدان، وهكذا فما نظن أنه نظام منفرد ومستقل بذاته، لا يكون كذلك وإنما هو جزء من منظومة أوسع، يؤثر فيها ويتأثر بها، ووعي هذا في غاية الأهمية لأي جهد إصلاحي.

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - ما دام كل نظام هو جزءًا من منظومة أكبر، فإن علينا أن نقوم بالنظر إلى المنظومة التي ينتمي إليها ما نقوم باستخدامه من نظم، وهذا النظر يجب أن يفضي إلى عدم توقع أي نتائج كبيرة من أي نظام ما لم نطمئن إلى كون المنظومة التي ينتمي إليها تعمل بشكل جيد.

٢ - إذا اضطررنا إلى استخدام نظام بعينه، فلنعمل جاهدين على توفير البيئة التي

تساعده على العمل، وذلك بسبب إيماننا بأن النظم مثل المبادئ لا تعمل في فراغ.

٣ - حين نفكر في استيراد نظام صناعي أو اجتماعي أو تربوي... ناجح لدى أهله، فإن علينا أن نتأكد أننا نملك نفس الظروف التي تحيط به لديهم، وإلا فإن علينا أن نتوقف عن ذلك.

٤ - كلما كان النظام أشد انغلاقًا كان اتجاهه نحو الفناء أَوْكد.

●●●●

18

القِيَمُ تُجَمِّع...
والمصالح تُفرِّق

18 القِيَمُ تُجَمِّع... والمصالح تُفرِّق

سلوكنا اليومي صدى لمجموعة من القرارات المتتابعة، وإذا تأملنا في دوافع ذلك السلوك، فإننا نجدها محصورة في دافعين: دافع المبادئ والقيم ودافع المصالح والحاجات. وقد ترسَّخ في وعي كثير من الناس أن بين القيم العزيزة التي نؤمن بها وبين المصالح التي نسعى إلى تحقيقها نوعًا من التعارض والتضاد؛ ولهذا فإن الجمع بينها يحتاج إلى وعي وجهد وصبر.. وهذا في اعتقادي صحيح إلى حدٍّ ما، وإذا أردنا الدقة، فربما يكون علينا أن نقول: إن المرء إذا أراد أن يحقق الحد الأقصى من مصالحه الخاصَّة مع التمسك بالقيم والمبادئ التي يؤمن بها، فإنه في الحقيقة يحاول الجمع بين نقيضين، وسيجد في لحظةٍ ما أن عليه أن يتخلَّى عن شيء، من هذه أو تلك، وهذا

يعود إلى أن ما نظنُّه مصلحة قد لا يكون محدودًا بأي حدود، ولهذا فإننا قد نتجاوز حدود المباح والمشروع إلى المختلف فيه والمشبوه ثم المُحرَّم.

● **مفاهيم في إطار هذه السُنَّة:**

١ - المقصود بالقيم كل تلك المعاني والأشياء والسلوكيات التي نقدِّرها، وننظر إليها باحترام وإجلال، والقيم منها ما هو معنوي، ومنها ما هو مادي، وأبرز مثال للقيم المادية (المال)؛ حيث قرَّر القرآن الكريم محوريته في حياة الناس، وصرَّح بمدى حُبِّهم له حيث قال -سبحانه-: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [١٧]، وقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [١٨]. أما القيم المعنوية فهي كثيرة، ومنها العفو والرحمة والإحسان والعدل والأمانة ومناصرة الضعيف... أما المصالح فهي كلّ ما يظن الإنسان أنه يحقّق له نفعًا، أو يدفع عنه ضُرًّا، سواء أكان النفع ماديًّا أو معنويًّا عاجلًا أو آجلًا، ومثل ذلك الضرر. ونحن حين نتحدث عن جمع القيم للناس، فإنما نقصد بالطبع القيم المتفق عليها، أما القيم التي يختلف فيها الناس، فهي غير مقصودة؛ لأنها لم تجمعهم حتى تفرقهم المصالح، وأضرب لذلك مثلًا بقيمة (الطهارة) فهذا المعنى إسلامي، ولا تُوَافِقُنَا فيه أمم أخرى؛ حيث إن الشيء قد يكون نظيفًا وخاليًا من الجراثيم والمكروبات لكنه في نظر الشريعة ليس بطاهر.

٢ - يلاحَظ اليوم أن الحديث عن المصالح يتّشح بِوِشَاح السلبية، وفي هذا ضرب من المثالية كما أن فيه شيئًا من النظر غير المتوازن، فالحقيقة أن الله - تعالى - فطر

---

١٧ - سورة الفجر : ٢٠.

١٨ - سورة العاديات: ٨، والمقصود بالخير هنا المال.

بني البشر على حُبِّ البقاء، كما فطرهم على حُبِّ الراحة والسعادة إلى جانب حب الجاه والمال وبسط النفوذ، وهذه الأمور ضرورية؛ لعمارة الكون واستمرار الحياة، والمذموم منها هو ما تمَّ الوصول إليه بطرق غير مشروعة، أو كان بعيدًا عن القصد والاعتدال، ولك أن تدرك هذا المعنى إذا تصوَّرت أحوال الأمة إذا كان معظم أبنائها من الفقراء المعدمين المحرومين من الطموح الميَّالين إلى الكسل والفوضى... إن الوضع سيكون مأساويًّا، وسنرى آنذاك من رعونة البشر وشرور الإنسان ما لا يخطر على بال، ولهذا فإن الحديث عن السعي إلى المصالح يجب أن يكون أكثر لطفًا ورفقًا وأشدَّ حذرًا.

٣ - إذا تأملنا فيما نسميه (قيمًا) فإنه سيلفت نظرنا أن السواد الأعظم منها يتجلى في السلوك الاجتماعي، ويجسِّد علاقةً مَا بين الناس، وذلك - كما أشرنا - مثل العدل والأمانة والرحمة واللطف والتعاون والشعور بالمسؤولية وبرّ الوالدين وصلة الرحم وإكرام الضيف والجار واحترام الآخرين والعفو والإعذار والتسامح... هذه القيم لا تتحقق إلا من خلال تواصل الناس واجتماعهم، ويمكنك أن تقول: إنها تحقق مصلحة اجتماعية، ولهذا فإن من الطبيعي أن يُجمع عليها الناس، ويلتفوا حولها، وحين يلتفت الإنسان إلى تحقيق مصالحه الشخصية، فإن من الطبيعي أن نشعر وكأنه أخذ يحقق مصلحة خاصَّة على حساب مصلحة عامَّة، ويظهر هذا الشعور بقوة حين تكون هناك مبالغة في رعاية المنافع الشخصية، في ظلِّ تقصير ملموس تجاه ما هو عام واجتماعي.

٤ - يقولون: إن الشياطين تكمن في التفاصيل، وذلك صحيح إلى حدٍّ بعيد؛ لأن الخلاف بين أبناء الأمة الواحدة لا يقع في الغالب في الكليات والأصول والقواعد

العامَّة، وإنما يقع في الجزئيات والفرعيات والتفاصيل الدقيقة، ومن هنا فقد نجد وليًّا عَلَى يتيم وقد أسرف في توبيخه وتعنيفه، وحين تقول له: إن رحمة اليتيم والرفق به أدبٌ عظيم ينبغي الالتزام به، فإنه قد يقول لك: أنا أرحم به منك، وقد جرَّبت معه كل أساليب اللُّطف والرقة، لكن دون فائدة، وقد تبين لي أن الشدة هي وحدها التي تردعه عن ارتكاب الأخطاء الفاحشة...، لكنك لا ترى ذلك بل ترى أن ما يفعله ولي اليتيم هو سوء خلق أو هو انتقام منه بسبب سوء علاقته مع أبيه أو هو... وهكذا فقد يتم انتهاك القيم في الواقع العملي مع زعم احترامها، وذلك بسبب شوائب الممارسة.

٥ - تجمعنا القيم للعديد من الأسباب منها:

أ - لأننا نشعر عند الالتزام بها بالألفة والوحدة، ونشعر أننا نقف على أرضية واحدة، كما نشعر عند العمل بمقتضاها بوحدة الاتجاه وتجانس الطموحات، وهذا يُلبِّي الكثير من الحاجات النفسية والاجتماعية.

ب - لا ريب في أن القيم الكبرى عالمية الطابع والامتداد؛ حيث إن كل الثقافات تبجل قيمًا مثل الصدق والوفاء والتضحية والإتقان والصبر وسعة الصدر والعفو والرحمة والرفق بالعناصر الضعيفة في المجتمع، وتجد هذا واضحًا جدًّا في الميثاق الإسلامي وفي الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، ولهذا فإن الالتزام بهذه القيم يجعلنا نشعر بأننا جزء من العالم، وأننا مواكبون لعصرنا على صعيد الاهتمامات والمعايير والآداب.

ج - هناك خبرة بشرية موروثة ومتراكمة تجاه بعض القيم؛ حيث يدرك الناس في البوادي أهمية الكرم والترحيب بالغريب، ويدرك الناس في المدن أهمية تعليم

أبنائهم تعليمًا ممتازًا، ويدرك الجميع قيمة التعاون ومساندة الإنسان للإنسان، ولهذا فإنك ترى أن الجهود الإغاثية على مستوى العالم تتسم بالعموم، ويتم توجيهها لكلِّ المحتاجين بقطع النظر عن أديانهم وأعراقهم...

د - الإنسان مفتقر دائمًا إلى العيش في مجتمع، ومن غيره لا يستكمل العديد من مكوِّنات إنسانيته، ولكن الناس لا يستطيعون العيش مع بعضهم من غير قيم توجِّه سلوكهم ومن غير شرائع ونظم تعاقب من يخرج عن الطريق الصحيح، وهذا يدفع باستمرار إلى التماس ما هو مشترك من القيم وإلى العمل على تعزيزه.

٦ - العلاقة بين الخاصِّ والعامِّ والمبدأ والمصلحة هي دائمًا موضع حيرة وارتباك، ولهذا فإن سوء التفسير وسوء الفهم في هذه المسائل من الأمور الشائعة، وكم سمعنا من يقول: إنه يسعى لتحقيق مصلحة عامَّة، ويقول عنه الناس إنه يسعى إلى تحقيق مصلحة شخصية، وكم سمعنا من يقول: إنه وقف الموقف الفلاني بدافع من إيمانه وأخلاقه، ويقول عنه آخرون: إن موقفه ذاك بعيد جدًّا عن المبادئ والقيم، وإنما يستهدف تحقيق مكاسب خاصَّة وهكذا...

● نموذج عملي: زوجان متحابَّان:

لدينا زوجان متحابان متفاهمان، يشعر كل واحد منهما أنه محظوظ بزواجه من الآخَر، وقد مضى على زواجهما عشر سنوات، وأنجبا عددًا من الأولاد، ولم يفكر أيٌّ منهما في أيِّ يوم من الأيام أنه سيكون له مستقبل بدون صاحبه.... الزوج يعمل في شركة عالمية كبرى، وله فيها منصب مرموق، وفي صبيحة يوم استدعى المدير العام الرجلَ، وقال له: نرغب أن تكون المدير الإقليمي لشركتنا في اليابان،

بمرتب يزيد ثلاث مرات عن مرتبك الحالي مع باقة من الامتيازات والمكافآت، والمدة لن تكون أكثر من خمس سنوات، وإذا نجحت - كما هو متوقع منك - فإنك على الغالب سترقّى إلى منصب نائب المدير العام، وهذا شيء عظيم جدًّا.
عاد الرجل إلى بيته، وحدَّث زوجته عن العرض المغري الذي تلقاه، وأنه على وشك الموافقة عليه؛ لأن هذه فرصة العمر بالنسبة إليه... هنا صرخت المرأة بأعلى صوتها، لا لليابان، ولا للوظائف، ولا للمال، ابني فلان مريض - كما تعلم - و يتلقى العلاج في مكان جيد ومن طبيب ممتاز، ولذلك فلن أذهب معك إلى اليابان على حساب صحة ابني ومستقبله... قال الزوج: أنا أعطيت كلمة، وإذا لم توافقي على السفر معي، فسأتزوج بامرأة توافق عليه. قالت المرأة: هذا مستحيل وإذا أردت الزواج فطلقني قبل أن تسافر. وبعد شهر حدث الطلاق فعلًا وتشتتت الأسرة، وتزوج صاحبنا وسافر...
هذه القصة (المتخيَّلة) نموذج لمئات القصص والحكايات التي تقع داخل الأسر حول العالم، إنها المصلحة الخاصَّة القادرة دائمًا على ولادة اللحظة المفصلية التي تضع حدًّا لتاريخ وتفتح الباب أمام تاريخ جديد!
اكتفيت هنا بنموذج واحد؛ لأن السُّنة واضحة غاية الوضوح، ويمكنك أن تقول عَيْنَ ما قلناه هنا في الكثير من الحالات التي كانت القيم هي عامل اجتماع الناس فيها، وكانت المصالح الخاصَّة هي عامل الافتراق: صديقان حميمان، شريكان متفاهمان وزميلان متعاونان...

● **كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟**

١ - من المهم ابتداء أن نعترف بمشروعية تعارض المصالح والمبادئ، فهذا من جملة ابتلاء الله - تعالى - لنا في هذه الحياة، كما أنه من طبائع الأشياء وشرائع الوجود. بعض الناس ذو نزعة مثالية، فهو يريد من الآخرين أن يتخلوا عن كل شيء من أجل غيرهم، ولكنه حين يوضع على المحكّ، ويُطْلب منه أن يفعل ما يدعو إليه فإنك ستجد أنه لن يختلف عن غيره في شيء سوى الكلام والادعاء!

٢ -شيء آخر علينا أن نعترف به هو أن من حق كل إنسان أن يحدد بنفسه مصالحه، فهو أدرى بها ما لم يكن فيما يراه مخالفةٌ صريحة لحكم شرعي أو نظام سارٍ أو عرف صالح، وكم رأينا من يعترض على أب زوَّج ابنته برضاها من شاب من غير قبيلته، أو من غير أهل بلده، أو ممن يرى جماعته أن الفتاة تستحق أفضل منه... ويكون قرار الأب وابنته هو الأصوب؛ لأنهما أدرى بأوضاع البنت والأسرة والخاطب.

٣ -أشد ما يؤذي في حالة الافتراق بسبب المصالح هو التطرف وتحويل الافتراق الجميل إلى مناكفة وعداوة ومنافسة، والله - جل وعلا - أوصانا بوصية عظيمة حين قال: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [19]، فإذا افترقنا لأي سبب - حتى لو كان مؤلمًا جدًّا - فعلينا ألا ننسى العهود والذكريات والأيام والمناسبات الجميلة التي كانت تجمع بيننا، فالافتراق يمكن أن يكون ناعمًا ولطيفًا، وهذا هو الذي يفعله الكرام والنبلاء في كلِّ زمان ومكان..

٤ -ذكرت أن معظم القيم لها تجلّيات اجتماعية إلى درجة يمكن معها القول: إن

---

١٩ - سورة البقرة: ٢٣٧.

القيم هي المصالح الجماعية في مقابل المصالح الفردية، ومن هنا فإن من المهم أن نتذكر أن عظمة أي مجتمع تتجلّى في حجم الشريحة الفاضلة القادرة على التضحية ببعض مصالحها من أجل المصلحة العامّة، وقد تبين من خلال كثير من الخبرات والتجارب أن أي مجتمع يصير إلى التفكك والتدابر حين تقل نسبة القادرين على التضحية من أجله عن النسبة الحرجة المطلوبة لتماسكه واستمراره.

●●●●

19

الإنسان كائن مقارن

هي... هكذا



الإنسان كائن مقارن

فطر الله تعالى الإنسان على التساؤل، والتطلع إلى الاكتشاف، إنه يريد أن يعرف كل شيء يحيط به؛ لأن الجهل يخيفه، ويربكه، وفطره كذلك على التشوق إلى معرفة نفسه واكتشاف مركزه في الكون، وقد وجد أن ذلك غير ممكن من غير مزاولة (التقييم) المستمر لِكلّ ذلك، كما وجد أن التقييم لا يكون من غير اللجوء إلى المقارنة. قد اكتشف الإنسان حقًّا أنه يشبه الرقم (٩) فهو معدوم المعنى والدلالة لو لم يكن جزءًا من سلسلة رقمية طويلة، مَنْ مِنَّا لم يرَ طفلة بنت خمس سنوات، وهي تقول لأمها: أمي ألستُ أجمل من فلانة؟ ومن منّا لم يسمع طفلًا في السادسة يقول لأبيه: أبي

أنا أقوى من فلان؟ والغريب أن الصغار لا يقارنون فحسب، وإنما يملكون أصول المقارنة؛ فالصغيرة تقارن جمالها بجمال من هي في سِنِّها، وكذلك يفعل الصغير حين يتحدث عن قوته... وهكذا تبرز قيمة كل شيء من خلال النظر إليه على أنه جزء من منظومة متجانسة المفردات والأنساق. ونظرًا للأهمية البالغة لـ (المقارنة) في تحسين درجة الإدراك وإنضاج الوعي، فقد احتفل بها أصحاب التخصصات المعرفية - ولا سيما الإنسانية منها - احتفالاً عظيمًا، وصار لدينا مجموعة كبيرة من العلوم التي تعتمد المقارنة أساسًا لها، وذلك مثل (علم التاريخ المقارن) و(علم الأديان المقارن) و(علم النفس المقارن) و(علم اللغة المقارن) و(الفقه المقارن) و(الأدب المقارن) و(علم الثقافات المقارن) و(علم الاجتماع المقارن) و(التربية المقارنة)... إن المقارنة هي بنت الاختلاف، وبما أن الاختلاف يشكل طابعًا عامًّا للبشرية فمن الطبيعي أن نجدها في كلِّ مكان.

● مفاهيم في إطار هذه السنة:

١ - المقارنة أمُّها الاختلاف، وأبوها الغموض، ولولا هذا وذاك، فربما لم نسمع بها، والحقيقة أن الغموض الذي نشعر به حيال كثير من الأشياء، له سبب رئيس يتمثل في شيء مركَّب من قصور اللغة وقصور الدماغ؛ إذ من الواضح أن اللغة تبدي قصورًا ملحوظًا عند حديثنا عن الصفات والمعنويات، ونجد هذا جليًّا حين نتحدث عن الحُبِّ والكره، والشجاعة والجبن، والكرم والبخل، والسماحة والتعصب، والجمال والقبح، والكثرة والقلة، والسعة والضيق... قصور اللغة في توضيح مدلولات هذه الكلمات جرَّنا إلى مشكلة أخرى، هي قصور المصطلحات

والتعريفات، فحين نقول: فلان « أقام وليمة كبيرة في منزله » فإن كلمة (كبيرة) غامضة، ويخضع تفسير معناها لعدد من الظروف والمعطيات، فابن المدينة يفهم منها أن المدعوين ربما كانوا في حدود الثلاثين أو الأربعين؛ لأن البيوت في المدن لا تكون مُهيَّأة – في الغالب ـ لاستقبال أكثر من هذا العدد، أما ابن البادية فقد يفهم من كلمة (كبيرة) أن المدعوين ربما كانوا في حدود الخمس مائة أو الألف؛ لأن الأماكن المفتوحة وعادات أهل البادية تسمح بذلك، بل هو شيء مألوف جدًا. وحين يقول أحدهم: فلان كريم جدًا، وقد بلغ من كرمه أنه يستدين، حتى يقيم الولائم، فإن هناك من يمكن أن يعترض عليه بالقول: ما يفعله فلان ليس كرمًا، وإنما هو سفه؛ حيث إني رأيته يختبئ، ويهرب من مقابلة الدائنين.. وهكذا فإن دلالة اللغة على ما هو من قبيل المعنى ومن قبيل (الكيف) قاصرة، ومِن ثَمَّ يكون اللجوء إلى المقارنة، لنقول فلان أقوى من فلان، وفلان أشجع من فلان.. العقل نفسه يرتبك في التعامل مع الكلمات الدالة على ما أشرنا إليه، ولهذا فإننا نطلب ممن يحدثنا عن (جبن الأعداء) الكثير من التوضيحات حتى نتأكد فعلًا أنهم جبناء، وحتى نعرف إلى أي حدٍّ هم جبناء، على حين أن العقل يبدي كفاءة عالية في فهم ما هو من قبيل (المحسوس) وما هو من قبيل (الكم)؛ ولهذا فإنك لا تسمع من يطلب أي توضيح لمن يقول: عندي ألف دينار، ومن يقول لديَّ ألف متر من الأرض أو عشرة أرطال من السكر..

٢ – بما أن المقارنة قد تكون هي السبيل الوحيد للفهم الجيد، فإننا نجد أن القرآن الكريم يشجعنا على أن نُجري بعض المقارنات على نحو ما نجده في خروج بني

النضير من المدينة المنورة؛ حيث ذيَّل الله -تعالى- ما قصَّه علينا من شأنهم بقوله: ﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾[٢٠]، أي انظروا أيها الناس في أحوالكم وأحوال بني النضير، وقيسوها عليها، وحاذروا أن تفعلوا مثل فعلهم، فينالكم من الإذلال والتهجير نحوٌ مما نالهم .وها هو ﷺ يوجهنا إلى أن نقول بالمقارنة الصحيحة، ونبتعد عن المقارنة الخاطئة، ما دمنا سنقارن أنفسنا بغيرنا في كل حال، يقول ﷺ: « **انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدرأن لا تزدروا نعمة الله عليكم** »[٢١]، والمقصود في أمور الدنيا مثل: العافية والمال والأمن. أما على مستوى الصلاح وفعل الخير، فإن على المسلم أن ينظر إلى من هم فوقه حتى يستشعر التقصير، ويقتدي بهم.

٣ - مع أن الإنسان مفطور على المقارنة إلا أن بعض الناس يرفض إجراء أي مقارنة بينه وبين غيره بدعوى الخصوصية أو بدعوى أن له ظروفه الخاصَّة، أو أنه أفضل بكثير ممن تريد مقارنته به، ولهذا فالمقارنة مرفوضة. ولا بد في البداية من القول: إن علينا دائمًا التأكد بأن مقارنتنا صحيحة ووجيهة، ولكن علينا أن نقول أيضًا: إنه لا خصوصية من غير الاعتراف بشيء عامّ يبُرزها، ويجعل لها معنى، وهذا مهم في أيامنا هذه؛ حيث إن كثيرًا من الشباب المسلم يتحدثون اليوم عن الهُويَّة وعن خصوصيات الأمة، والحقيقة أننا لا نتحدث في العادة عن هذه الأمور إلا حين تكون مُهدّدة، وأعتقد أن الموقف الصحيح في هذا لا يتمثل في تضخيم الخصوصيات، وإنما يتمثل في إجراء مقارنة موضوعية ودقيقة بين ما نعتقد أنه خصوصية، وبين

---

٢٠ - سورة الحشر: ٢.

٢١ - متفق عليه.

ما هو وضعية عامَّة، وحين نفعل ذلك نكون قد ساعدنا على الاهتمام بما نراه خصوصية لنا والحفاظ عليه.

٤ - للمقارنة هدفان جوهريان، الأول: فهم ما نشعر بغموضه من أوضاع وأحوال ومعطيات، والثاني: التفوق على الخصوم والمنافسين؛ حيث نلمس في مجال المال والأعمال منافسات ضارية، وإن الذي لا يعبأ بها قد يجد نفسه بعد مدة خارج السوق، وهذا النوع من المقارنة يحتاج حتى يؤتي ثماره إلى الآتي:

أ - على المرء أن يعرف نقاط قوته وتفوقه على نحو جيد، كما أن عليه أن يعرف الفرص المتاحة له، والآفاق التي تنتظره.

ب - التفحص والتحليل الدقيق لما تقوم به الشركات الرائدة في المنطقة التي يعمل فيها، وهذا ما نسميه أحيانًا الدخول على عالم الناجحين من أجل فهم أسرار نجاحهم وتفوقهم.

ج - على المرء أن يستخدم دائمًا أفضل المعالجات الممكنة، وأن لا يكفَّ عن التحسين، فالمنافسون يصقلون إمكاناتهم باستمرار، ولا بد لمن يريد مغالبتهم من فعل ذلك.

د - تنشيط النقد الذاتي والتعلم من أخطاء الآخرين.

هـ - الدخول في مقارنة يعني الدخول في عمل معقد، وكلما كثرت الحيثيات التي علينا أن نأخذها بعين الاعتبار صارت المقارنة أكثر تعقيدًا، وصارت نتائجها غير دقيقة، وهكذا فإن المقارنة بين طفل وأخيه أسهل بكثير من المقارنة بين دولة ودولة أو مرحلة زمنية ومرحلة أخرى، ومهما يكن الأمر فإن علينا عند إجراء أي مقارنة سواء أكانت بسيطة أم معقَّدة أن نتبع الإرشادات التالية:

أ - الإيمان الجازم بأن نتائج أي مقارنة نقوم بها ظنية وغير نهائية، وذلك بسبب صعوبة الإحاطة بكل خصائص الأشياء التي نقارن بينها وعدم معرفتنا الدقيقة بالظروف والأوضاع المحيطة بكل منها، وهذه نقطة مهمة؛ فالاجتهادي يجب أن يظلّ اجتهاديًا.

ب -نحن نعرف أن الموضوعية المطلقة شبه مستحيلة، ونعرف أيضًا أن من المهم أن نلتزم بأكبر قدر ممكن من الموضوعية أثناء إجراء أي مقارنة؛ وذلك لأن المقارنة تنطوي بطريقة من الطرق على إصدار حكم، ولهذا فالمقارن أشبه بالقاضي. إن الموضوعية تقوم على ركنين أساسيين، هما: البعد عن الظن، والبعد عن الهوى، فإذا أردنا أن نقارن بين عالم وعالم مثلًا فعلينا أن نجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات المتعلقة بكلٍّ منهما، كما أن علينا أن نتحرَّر من الميل والتعصب لأيٍّ منهما، بالإضافة إلى إبعاد ما يمكن أن يكون لدينا من أحكام مسبقة تتعلق بهما معًا أو بأحدهما.

ج -امتلاك الشجاعة الأدبية والروح الرياضية من أجل تقبل نتائج المقارنة؛ لأنها قد تكون في غير صالحنا أو صالح جماعتنا أو صالح شيء يتصل بنا.

د - الرغبة الصادقة في الاستفادة من المقارنة؛ حيث إن المقارنة من غير حرص على الاستفادة من نتائجها تكون نوعًا من العبث.

هـ -لكلّ نوع من المقارنة أدواته المعرفية، وهي تختلف من مجال إلى آخر، فأنت حين تريد المقارنة بين طفل وطفل ربما كنت بحاجة إلى شيء من المعارف عن الإمكانات الذهنية لكلٍّ منهما بالإضافة إلى معرفة سلوكياتهما، والظروف المحيطة بكل منهما... لكن حين تريد المقارنة بين وضع شركتين عملاقتين في مجال

تصنيع الغذاء - مثلًا - فإنك في حاجة إلى كمٍّ كبير من المعلومات مثل: معرفة مقدار ما تملكه كل منهما من أصول، وقيمة العلامة التجارية وحجم مبيعاتها، ونوعية المنافسة التي تواجهها إلى جانب معرفة ما لديها من مميزات تنافسية وخطط استراتيجية وأمور كثيرة من هذا القبيل، ومعرفة هذا تتطلب الكثير من الأعمال المحاسبية والكثير من البحوث المسحية والإجراءات الإحصائية، إلى جانب تحليلات استراتيجية يقوم بها خبراء محنَّكون... هذا كله يعني أن ما نقوم به من مقارنات يحتاج إلى معرفة وخبرة ومهارة وبحث، ولكلٍّ نوعية من المقارنات ما يناسبها من كل ذلك.

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - أنا أرى أن المقارنة كثيرًا ما تجلب الإحباط، والتوسع فيها - على كلِّ حال - ينبع من الحيرة والارتباك والغموض، وإني أعتقد أن ما يأتي منها في سياق إيجابي يكون مفيدًا جدًّا، أما إذا جاء في سياق سلبي - كما لو كُنَّا في حالة تأنيب للذات أو للآخرين - فإن نتائجها تكون سلبية، ولهذا فإن علينا الإقلال منها قدر الإمكان.

٢ - لنحذر من المقارنة السلبية بين الأبناء وزملاء العمل والأقرباء والأصدقاء، فهذه تبذر العداوة بينهم، وقلَّمَا تأتي بخير، ولهذا فإن علينا الإعراض عنها بالكلية.

٣ - عند المقارنة بين شخصين أو شيئين، فإن علينا أخذ الفوارق بعين الاعتبار فابن السادسة حين يحفظ جزأين في السَّنَة يُعدُّ متفوقًا على ابن العاشرة إذا حفظ خمسة أجزاء، وذلك بسبب فارق السِّن.

٤ - من السهل علينا دائمًا أن نعتمد في مقارناتنا المعطياتِ والعناصر المادية،

ونهمل المشاعر والأمور المعنوية مع أنها قد تكون أهم، فنحن حين نقارن أنفسنا بجيراننا فقد ننظر إلى مساحة البيت الذي يسكنونه والطعام الذي يأكلونه والسيارة التي يركبونها، وبذلك نشعر بتفوقهم علينا، وقد ندخل في باب الحسد، وكثيرًا ما يحدث ذلك؛ لأننا نهمل بعض العناصر المعنوية مثل: تفوق أبنائنا في الدراسة وتآلف أسرتنا، واجتماع شملنا وحيازتنا لثناء الناس وحسن ظنّهم... وهذه الأمور تؤثر في سعادة الناس أكثر بكثير من الأمور المادية، ولهذا فينبغي أخذها بعين الاعتبار حتى لا نضع أنفسنا في موقف حرج.

●●●●

20

التطرف...
يقود إلى التطرف

20 التطرف... يقود إلى التطرف

بثّ الخالق - سبحانه - في هذا الكون الكثير من السنن والنواميس التي تساعدالإنسان على الاستمرار، ومن جملة ما يساعده عليه الاعتدال والتوازن؛ حيث نلمس بوضوح أن التطرف في أي شيء لا يكون في مصلحة الاستمرار، ومن هنا فإن علينا أن نقول: إنه ليس التطرف وحده هو الذي يقود إلى التطرف، العنف يقود إلى العنف، والرفق يقود إلى الرفق، واللّين يقود إلى اللين؛ حيث نجد أن لدى الناس من المروءة والنبل ما يجعلهم يقابلون المعروف بمثله...دعونا نتصوَّر مجموعة تمارس الإبادة ضد مجموعة أخرى في غابة، والمجموعة الثانية مستسلمة تمامًا لذلك كيف ستكون النتيجة؟ النتيجة واضحة، وهي توقف عملية الإبادة بعد أن يباد كلُّ من تمكن إبادته، على حين

أن الإبادة يمكن أنها تستمر مئة سنة إذا قُوبلتْ بـ إبادة مماثلة؛ حيث يكون الفعلان قد دخلا في نطاق سُنَّة (التدافع) . أنا لا أريد من هذا الكلام سوى القول : إن مقابلة التطرف بمثله والاعتدال بمثله تصبُّ في صالح الاستمرار، لكن علينا أن نفرق على المستوى الأخلاقي والمصلحي والمعيشي بين توازنات تقوم على الظلم والعنف والغلو والاقتتال.... وبين توازنات تقوم على الاحترام والتفاهم والرحمة والمعاونة... إن التوازنات الأولى تحوّل الحياة إلى جحيم لا يُطاق، وتدفعها في طريق التخلف، أما التوازنات الثانية، فإنها تجعل الحياة هانئة وجميلة ومنتجة وآمنة.

● مفاهيم في إطار هذه السُنة:

١ - ليس بعيدًا عن الواقع قولُ من يقول : إن (التطرف) جزء من التراث الجيني للإنسان؛ فالوقائع على الأرض تشير إلى هذا، إذ إن من الواضح أن إمساكنا بنصاب التوسط والاعتدال دائمًا ضعيف، ونحن نلاحظ أننا نندفع إلى الموقف والسلوك المتطرف من غير إحساس بِكُنْهِ ما نفعل على حين أن الاعتدال يحتاج إلى تعلم وتدريب ومجاهدة للنفس، ويظهر تطرف الناس جليًا في الظروف المواتية للتطرف أو المحرِّضة عليه، ومن تلك الظروف الرخاء الواسع والإمكانات الاستثنائية؛ حيث نلمس بوضوح حينئذ صورًا مفجعة من التبذير والطيش والاستعلاء والبغي، وقد أشار إلى هذا ربنا - سبحانه - حين قال : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[٢٢]، وحين قال : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[٢٣]، كما أن تطرف

---

٢٢ - سورة الشورى: ٢٧.

٢٣ - سورة العلق : ٦، ٧.

الإنسان يظهر في حالات الشدائد والمُلِمَّات؛ حيث نرى صورًا مغالية من التذلل والنفاق والخداع واللصوصية....

٢ – من المعروف على نطاق واسع المقولة الفيزيائية: لكلِّ فعل ردّ فعل مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه، وقولهم: « لا يفلُّ الحديد إلا الحديدُ »، وقولهم: حين تحشر القط في زاوية، فإنه قد يصول عليك كما يصول النمر أو الأسد... هذه المقولات تترجم خبرة البشرية في مواجهة العدوان بعدوان من حجمه، وفي الدفاع عن النفس في حال الخطر بكل وسيلة ممكنة.

ويبدو لي أن الناس تتطرف في مواجهة التطرف للأسباب التالية:

أ – يقابل الناس التطرف بتطرف مثله أو أزيد منه؛ لأن نصاب الاعتدال يكون بعيدًا عن الإدراك أو غائبًا عن الوعي، والمشكل في هذا هو غموض معنى الاعتدال؛ حيث يحدد طرفا الشيء وسطَه، وهكذا فإن الناس يدركون السلوك المعتدل من خلال ما يحيط به من سلوكات، فنحن نعرف أن قتل إنسان بريء يُعدّ جريمة من أعظم الجرائم، لكن هذه الجريمة تصغر في أعيننا كثيرًا إذا سادت في منطقةٍ مَا أعمال شنيعة مثل: قتل الناس والتمثيل بأجسادهم، أو اغتصاب النساء ثم قتلهن، أو سلب البيوت وقتل أصحابها.. ونحن قد نقابل التطرف بتطرف مثله أو أقل منه؛ لأننا لا نعرف بالضبط الردّ المعتدل على التطرف، والحقيقة أن هذا يحدث أحيانًا على نطاق واسع، وتدوم آثاره قرونًا، فنحن نعرف – مثلًا – أن الترف والتوسع في المرفِّهات في أيام العباسيين قد دفع بعض المسلمين إلى إنشاء تيار إسلامي يُمجِّد الزهد والإعراض عن الدنيا ولبس المرقَّعات والعزلة والتشاغل عن الشأن العام.. ولا شك في أن هذا تطرف في التعامل مع الشأن الدنيوي وخارج عن هديه ﷺ،

وهو تمامًا مثل التمادي في الترفُّه والاستمتاع بالكماليات.

ب - يقابل الناس التطرف بتطرف مثله في بعض الأحيان بسبب أن المُتطرِّف الأول دمَّر الأرضية المشتركة التي كانت تجمع بينه وبين من دفعه في سبيل التطرف، هذه الأرضية كثيرًا ما تتمثل في أعراف ومواثيق وعهود، وقوانين مكتوبة وغير مكتوبة، ونحن نعرف أن الناس في كل مجتمع ينظرون إلى بعض التصرفات على أنها غير معقولة، ولا يمكن أن يقدم عليها أي إنسان سوي، وذلك مثل قتل طفل ابن خمس سنوات بسبب كسره لشيء أو شتمه لغيره، ومثل إهانة رجل كبير في السِّنّ؛ لأنه فهم شيئًا فهمًا خاطئًا، ومثل إدمان إيذاء جار بشيء صارخ من غير أي سبب.. إن الإقدام على هذه الأفعال وأمثالها حين يتكرر من شخص أو أي جهة يعطي المبرر للآخرين بالقيام بمثلها وأكثر؛ بسبب زوال الحدود الفاصلة بين المعقول واللا معقول واللائق وغير اللائق. حين تنتشر الفظائع لا يبقى شيء مُقدَّس أو مُحرَّم، وهذا في الحقيقة هو أسوأ ما يُحدثه التطرف من تخريب في البيئة الأخلاقية للمجتمع، بل إن التطرف، وما يستدعيه من تطرف يمكنه تشويه إدراك جيل جديد، إذا ما طال أمده، واستقرت ركائزه!

ج - أحيانًا يقابل الفعل المتطرف بمثله لأمور تتعلق بالكرامة أو المصلحة، وأحيانًا يكون الدافع أخلاقيًا، وعلى سبيل المثال: فإن بعض الناس يعتقدون أن المرء حين يتلقى تهديدًا من شخص آخر، فإن الجواب المعتدل عليه سيرسل له رسائل خاطئة، منها أن المهدَّد ضعيف وغير قادر على الردّ، مما يغريه بتنفيذ تهديده، وهذا هو الذي يحكم العلاقة بين الدول التي تملك أسلحة نووية، فهي جميعًا تعرف أن امتلاك السلاح النووي يحتوي على كثير من المخاطر، لكنه الوسيلة الوحيدة

التي يمكن أن تمنع العدو من استخدام سلاحه، وهكذا يكون في التطرف أحيانًا ما يحول دون انتشار التطرف، ولكن على قاعدة من الرعب المتبادل وعند مستوى من المعاملات الرديئة جدًّا.

٣ -في إمكاننا القول: إن أقسام التطرف ثلاثة: تطرف فكري وتطرف شعوري وتطرف سلوكي، وأظن أن التطرف الفكري هو أساس كل تطرف؛ لأن الفكر هو دليل السلوك، ومصدر تسويغه والبرهنة على مشروعيته، وبما أن المشاعر عمياء، فإن الأفكار هي التي تقودها في سُبُل الاعتدال والتطرف، والفكر أيضًا هو ما نستخدمه في تسويغ العدوان على الآخرين وفي مقابلة تطرفهم بتطرف أشد منه.

ركائز التطرف الفكري عديدة، ولعلَّ من أهمها الآتي:

أ -ضآلة الحصيلة العلمية؛ حيث إن الإملاق المعرفي يجعل صاحبه ينظر إلى وجهات النظر على أنها حقائق مسلَّمة، ومن هنا فإنه حين يدخل في خصومة مع أحد، فإنه لا ينظر إلى رأيه على أنه رؤية شخصية تحتمل الصواب والخطأ، وإنما ينظر إليه على أنه حقٌّ قطعي ونهائي، وهذا من التطرف المَمْقوت.

ب -التعلق بفكرة من الأفكار وعدم السماح بمناقشتها، هذه الفكرة قد تكون مما تلقَّفه المرء عن شيخه أو جماعته، أو تكون مما اطَّلع عليه في كتاب أو سمعه من صديق.... وهذا من التقليد المذموم، ومع أن المقلد يبدو مستكينًا ومسالمًا، إلا أنه في الحقيقة يعد متطرفًا، وذلك حين يمنح العصمة لمن يقلِّدهم، ويلغي أفكار الآخرين.

ج -التصلب الذهني والإصابة بعمى الألوان ركيزة من ركائز التطرف؛ وذلك لأن كثيرًا من التطرف ينشأ حين ينعدم التفاكر والتفاوض والتنازل عن بعض

الأفكار وحين نرفع النسبي إلى مرتبة المطلق، وحين نرفع الفروع إلى مرتبة الأصول، والجزئيات إلى مرتبة الكليات، وهذا موجود بقوة لدى أهل الأهواء ولدى المتعصبين من الأتباع.

د - الاعتداد المبالغ فيه ببعض المقولات الصادرة عن بعض الناس والنظر إليها على أنها المفتاح الذي يفتح كل الأقفال، وهذا موجود بكثرة عند ذوي الكسل الذهني الذين لا يكلفون أنفسهم مشقة التأمل فيما يسمعونه، وأذكر من تلك المقولات ما يؤثَر من قول الإمام مالك بن أنس - رحمه الله -: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أوّلها ». نعم إن تمسك الأمة بالمنهج الرباني الأقوم واستقامتها على أمر ربِّها يُعد شيئًا جوهريًا في كل عصر من العصور، لكن علينا أن نقول أيضًا: إن لكلّ عصر تحدياته وفرصه ومتطلباته، ونحن لا نستطيع استثمار فرص عصرنا ومواجهة تحدياته بنفس الأفكار والرؤى والمهارات التي واجه بها أسلافنا تحديات زمانهم، بل لا بد من الإبداع والاستفادة من معطيات العصر. ومن تلك المقولات ما يروى من قول أحد زعماء اليهود في فلسطين المحتلة: إن العرب سوف يهزموننا حين يكون عدد المصلين في صلاة الفجر مثل عددهم في صلاة الظهر أو المغرب. نحن لا نماري في أهمية صلاة الفجر في وقتها وفي المسجد، لكن لا يصح القول: إن أوكد المطلوب للمعاصرة ومغالبة الأعداء هو مماثلة عدد المصلين في صلاة الفجر لعددهم في صلاة الظهر، بل لا بد من وجود حكم رشيد يقود الناس في طريق النصر، ولا بد من وجود تعليم وتسليح جيدين، ولا بد من صناعة وتنمية متقدمة، فكثرة المصلين وحدها، لا تكفي للانتصارعلى دولة كدولة اليهود.

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - علينا أولًا أن نعترف أن حدود الردّ المعتدل على فعل متطرف لا تكون دائمًا واضحة؛ ولهذا فقد نقابل تطرفًا بمثله من غير دراية منّا، ومن هنا فلا بد من التأمل والتفكر والاستشارة في رُدود أفعالنا على الأفعال المتطرفة قبل الإقدام على أي شيء.

٢ - حين يكون لدينا حكم شرعي في تصرف أو فعل فإن العمل به هو الاعتدال، وذلك مثل الذي يطلب القصاص من قاتل ابنه، ومثل الذي يطلب من القاضي أن ينصفه من شخص اعتدى عليه، أو يطلب من خصمه تشكيل لجنة للحكم فيما يختلفان عليه، هذا كله من الاعتدال مهما يكن الحكم قاسيًا.

٣ - تجاوز الحكم الشرعي، والذي يمثل العدل إلى العفو والتسامح وإسقاط الحق، وهذا هو الفضل، وهو الموقف الذي حكاه ربنا ﷻ عن ابن آدم الأول حين قال لأخيه: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢٤]، أي: لا أقابل صنيعك المخطئ بمثله، فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة، وما ورد في فضل كظم الغيظ والعفو عن الناس كثير معروف.

٤ - بما أن التطرف يدمِّر الأرضيات المشتركة، فإن مواجهته تكون بتعزيز تلك الأرضيات وجعلها نابضة بالحياة والحيوية، فإذا وقعت خصومة بيننا أو وقع عدوان صارخ من جهة على جهة، فإن مما يخفف من عنف الرد عليه أن نتذكر ما بيننا من وشائج وأُطُر تجمعنا، وتربطنا ببعضنا، وذلك مثل رابطة الأخوة الإسلامية ورابطة

---

٢٤ - سورة المائدة: ٢٨.

المواطنة والجوار والذكريات الجميلة ولحظات الوفاق والسرور، ولك أن تتصوَّر حال زوجين افترقا بعدأن عاشا عشرين سنة من الوئام والوداد، وأنجبا خلالها عددًا من الأولاد الرائعين، وأخذ أحدهما يؤذي الآخر بما لا يُحتمل ولا يليق، إن مِنْ كسْر حِدَّة التطرف في هذه الحالة تذكُّر أيام الصفاء وما كان يجمع بينهما من هموم وآمال إلى جانب ما أوجده الأطفال من رابطة نسب لا تنفصم.. إن تذكر هذه المعاني سيجعل كل واحد منهما يخفف من غلوائه ضد صاحبه مهما كان النزاع جذريًّا وعاصفًا، وما أجمل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ (٢٥).

٥ -حين يشتد الخلاف بين جهتين أو شخصين، وتهبُّ بينهم رياح حرب باردة، فإن من المهم أن يجري التفكير في شيئين مُهمَّين:

الأول: هو خفض التوتر، وذلك من خلال إيقاف الحملات الإعلامية وما فيها من اتهامات وحط من شأن الخصم.

الثاني: اللجوء إلى الحوار - وإن طال أمده - حيث إن الحوار يدفع في اتجاه إزالة سوء الفهم، كما أنه يؤكِّد بعض التفاهمات التي من شأنها تضييق الهوة بين الطرفين المتنازعين.

٦ -أعتقد أن على المثقفين عامَّة والدعاة منهم خاصَّة نشر روح الاعتدال والوسطية في المجتمع والحثّ على التسامح والغض عن الهفوات، ولا بد من التنويه هنا بأن الناس يحتاجون كي يبتعدوا عن مقابلة التطرف بمثله إلى نماذج راقية وهادية يتعلمون منها الاعتدال على نحو عملي، وهذا يلقي على أهل الوعي والعلم مسؤولية خاصَّة في هذا الشأن.

---

٢٥ - سورة البقرة: ٢٣٧.

21

التخلف يحطِّم الوحدة

هي... هكذا



التخلف يحطِّم الوحدة

بثَّ الله - سبحانه - في الإنسان الشوق إلى الوحدة على المستوى المعنوي والمادي، وذلك لما توفره من الشعور بالأمان والطمأنينة والقوة والثقة بالنفس، ونلاحظ أن لدى الإنسان إلى جانب التطلع إلى التوحّد شيئًا آخر هو التوجُّس والحذر من الوحدة؛ حيث إن للوحدة - على كل المستويات - ثمنًا يجب أن يُدفع، ومن جملة ذلك الثمن الشعور بتقييد الحرية وتضييق مساحة الحركة والتنازل عن بعض الخصوصيات من أجل رعاية مصالح المنخرطين في الوحدة، ولهذا فإن هناك نوعًا من الصراع الخفي بين مشاعر الرغبة في الوحدة ومشاعر الخوف منها، وهذا الصراع يقوم أساسًا على

الموازنة بين فوائد الوحدة وبين الثمن الذي يجب دفعه من أجلها، ومن هنا فإننا نرى مثلًا من يُعرض عن الزواج - وهم القلة - بسبب تكاليف الارتباط بالشريك، ومنهم من يُقدم عليه بسبب ما يراه من غلبة فوائده ومصالحه. السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الأصل في حياة الأمم: أهو التشظي والتفتت والانكفاء على المصلحة الشخصية أم هو التوحُّد والترابط والانخراط في الكينونات الكبيرة والجامعة؟

لا ريب عندي في أن الأصل هو الانكفاء على الذات والعيش في مجموعات صغيرة يجمع بينها قدر يسير من القواسم المشتركة، ومع التقدُّم الحضاري وتوسع الطموحات وارتقاء التطلعات صار للناس أشواق قوية إلى تعميق معاني الوحدة وتقوية أُطُرها إلى جانب توسيع مساحاتها؛ حتى تصل إلى بناء الإمبراطوريات والدول العابرة للقارات.

ما الذي يعنيه هذا؟

إنه يعني شيئًا مهمًّا، هو أنه إذا ثبت أن التشرذم والتفرق هو الأصل، وأنه قَدْ صَاحَبَ النشأة الأولى للبشر، فإن على بني الإنسان أن يبذلوا جهودًا خاصَّة في إطار أفكار ورؤى مُتقدِّمة؛ كَي يوحِّدوا صفوفهم، ويوفِّروا البيئات التي تغري الناس بالوحدة، وإلا فإن التشظي والانقسام سيكون هو سيد الموقف.

● لماذا يحطم الانحطاط الوحدة؟

١ - دعونا نقول في البداية: إن الانحطاط هو تخلف روحي وأخلاقي ومادي شديد عن النماذج الحضارية والمدنية السائدة في عصر من العصور. هذا التعريف التقريبي يعني أن توطن الانحطاط لدى شعب من الشعوب يجعل حياته قريبة

من حياة الناس في البادية، وفي الأماكن التي لم تنعم إلا بالقليل من التقدُّم العمراني؛ حيث يقتصر التعاون على تحصيل الضروريات ودفع الغزاة وتأمين الديار من عدوانهم، أما التوحيد من أجل تحقيق تقدم ثقافي أو تحقيق إنجازات حقوقية أو إقامة مشروعات عملاقة، فهذا غير وارد بل غير مدرَك. الشركات الكبرى العملاقة والعابرة للقارات موجود أكثر من (٩٠٪) منها في الدول الصناعية، وهذا ليس لأنها الأغنى فحسب، ولكن لأنها الأفضل إدراكًا لمنافع التكتلات الاقتصادية الكبرى في عالم مزدحم بالمتنافسين، وبسبب امتلاكها للنظم والكفاءة الإدارية التي يتطلبها وجود الأعمال العملاقة. إن بعض الشركات المساهمة في أوربا وأمريكا مضى على إنشائها ما يزيد على قرن ونصف، وما زالت تعمل بكفاءة عالية على الرغم من كل التقلبات والأحداث العاصفة التي مرَّ بها العالم خلال هذه المدة الطويلة.

٢ - في حالة الازدهار والتقدُّم الحضاري يتوفر المال، ويتجاوز الناس تحديات تأمين الضروريات إلى التفكير في الرمزيات ورعاية الأمور الاعتبارية والروحية؛ وذلك لأن الرخاء المادي ينقل الناس من مرحلة التشوف إلى المزيد من الأخذ إلى مرحلة التفكيرفي العطاء، على ما هو مُشاهَد، وهكذا فإن (ألمانيا الغربية) قد أنفقت ما يقرب من مئتي مليار مارك من أجل تأهيل (ألمانيا الشرقية) للاندماج معها في دولة واحدة، وهذا المبلغ الضخم جدًّا تم إنفاقه عن طيب نفس من أجل الاستجابة لفكرة تقول: إن الشعب الألماني كان واحدًا، وينبغي أن يصبح واحدًا كما كان. وليس لدينا أي شعب أو دولة غير متقدمة على استعداد لفعل عُشْرِ ذلك بسبب ما أشرنا إليه.

٣ - بين التخلف والانحطاط وبين التفكك تداخل في البيئة والتكوين، ومثله ذلك التداخل بين الوحدة والازدهار الحضاري؛ فالأمة حين تدخل في نفق الانحطاط تدخله أولًا على مستوى الرؤى والمفاهيم والمعايير وعلى مستوى النظر للواقع والمستقبل؛ حيث إنك تجد علماء البلد ومفكريه ومثقفيه وحكماءه قد انقسموا على أنفسهم، وفقدوا الرؤية المشتركة لتشخيص الواقع وتشخيص عِلَله؛ بالإضافة إلى الانقسام حول ما ينبغي فعله من أجل النهوض والتخلُّص من المشكلات الخانقة، وإن من اطَّلع على كتاب الكواكبي (أم القرى) يرى بوضوح كيف أن الوفود التي تمثل العالم الإسلامي إلى ذلك المؤتمر (المتخيَّل) كانت تختلف على نحو واضح حول هاتين المسألتين: توصيف الواقع وتحديد أسبابه وتحديد ما يجب القيام به للخلاص منه مع تحديد أدواته. إذن الانحطاط لا يؤدِّي إلى تحطيم الوحدة فحسب، وإنما هو في الأساس جزء من الغربة ومكرِّس لها.

في المقابل يمكن أن نقول أيضًا: إن توحد الشعوب تسبقه في العادة بلورة للقواسم المشتركة وإبراز للرؤى الدافعة إلى الوحدة، وإذا نظرنا إلى مشروع الوحدة الأوربية - بوصفه من المشروعات التاريخية الناجحة- فإننا نجَد أنها تبلورت أولًا في أذهان أعداد كبيرة من المفكرين والفلاسفة والفقهاء الدستوريِّين ورجال القانون والمصلحين الاجتماعين...الأوربيين، وبعد ذلك جاء الدعم من المؤسسات السياسية والاقتصادية إلى أن تحقَّق الحلم، وصار مظلَّة وارفة. إذن التشتت هو تجسيد للتخلف وأحد ضرائبه التي يجب أنِ تُدفع شِئنا أم أَبَينا.

٤ - وحدة المجتمع ليست شيئًا يتمُّ إيجاده، ويخلد بعده الناس إلى الراحة، إنها مشروع تحت الإنجاز؛ إذ من السهل دائمًا أن ينقلب التوحُّد إلى شيء شكلي فارغ

من المضمون كما هو الشأن في بعض الأسر الأوربية؛ حيث يكون هناك طلاق غير مُعلن بسبب مسائل تقاسم الثروة...، ومن هنا فإن شعور الناس بأنهم متكاتفون ومتراحمون يحتاج إلى جهد مستمر على صعيد العمل الخيري والتطوعي، والذي يشكل في جوهره نوعًا من الاستدراك على قصور النظم السياسية والاقتصادية والأخلاقية.. وإذا تأملنا في حال الدول المُتقدِّمة والدول المبتلاة بالتخلف لوجدنا أن التخلف ينمّي لدى الناس الشعور بالأنانية والرعاية المبالَغ فيها للمصلحة الشخصية، مع الإهمال للشأن العامّ والإعراض عن مساعدة العناصر الضعيفة في المجتمع، على حين أن الدول المُتقدِّمة تقدم نماذج عظيمة في التطوع وفي بناء المؤسسات والجمعيات الخيرية واللاربحية، والأرقام المنشورة تؤكِّد هذا المعنى؛ حيث يذكر بعض الإحصاءات أن لدى الولايات المتحدة نحوًا من (٩٣) مليون متطوع، يقدمون سنويًا نحوًا من عشرين مليار ساعة عمل، ولديها أيضًا ما يزيد على مليون ونصف مؤسسة خيرية ولا ربحية، وفي فرنسا نحو ستمائة ألف مؤسسة خيرية.. ولدى الكيان الصهيوني نحو من أربعين ألف مؤسسة خيرية... ويعمل فيها نحو من (١١٪) من القوة العاملة في ذلك الكيان! وحين تأتي إلى العالم العربي فإنك تجد أن لدى البلد الذي يتجاوز سكانه العشرين مليونًا أقل من خمسة آلاف مؤسسة خيرية ولا ربحية وهذا مع كثرة النصوص الشرعية التي تحثُّ الناس على فعل الخير، وكثرة النصوص التي تعِد الخيِّرين بوافر الجزاء في الدنيا والآخرة.

إذن الانحطاط لا يحفز على تماسك المجتمع وتعاضده، من خلال أعمال البر والخدمة الاجتماعية، وإنما يدفع في اتجاه تجويف المجتمع من خلال انشغال الناس بشؤونهم الخاصَّة، ومن خلال زيادة الفجوة بين الأغنياء والفقراء.

٥ - إن التصدع في الأمم والجماعات والتيارات يشبه وحشًا كامنًا ينتظر الفرصة حتى ينقضَّ على فريسته، والذي يحول بينه وبين ذلك هو كثرة القواسم المشتركة واتساع الأرضية التي يقف عليها الناس. وعلى سبيل المثال فإن أركان الإيمان الستة بالإضافة إلى أركان الإسلام الخمسة، إلى جانب الكفِّ عن الكبائر، إن هذه جميعًا تشكل رؤية ممتازة وموحدة لكلٍّ من يعتقد بها ويعمل بمقتضاها، ويقف عند حدودها، فإذا فقد أي مجتمع مسلم هذه الرؤية فإن التناحر والتشتُّت هو الشيء الذي ينتظره، وهكذا فإن التخلف عن الإيمان بالمنهج الرباني الأقوم والالتزام به عمليًا سيعني التخلف الحضاري، ويعني خسارة الوحدة الاجتماعية. على الصعيد الوطني تحتاج الوحدة الوطنية إلى امتلاك (الوطن) جاذبية كبيرة؛ لصهر جميع أبنائه في بوتقة الانتماء إليه، وحين يفقد أي وطن القدر المطلوب من الجاذبية، فإن الانتماءات الصغرى: القبلية والعرقية والمذهبية... جاهزة؛ لتكون أساسًا ومنطلقًا لتفتيت المجتمع وتقسيمه. الوطن حتى يظلَّ جذابًا، ويظلّ بالتالي القاسم المشترك الأعظم لأبنائه يحتاج إلى أن تسوده حالة عالية من الأمن والعدل وتكافؤ الفرص والتنمية والتقارب الطبقي مع درجة جيدة من الانفتاح الذهني والتسامح لدى مواطنيه.

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - الإيمان بأن الأمور إذا تُركت على عَواهِنها، فإن المنتظر هو الانقسام والتشرذم، وليس الوحدة والتمازج.

٢ - العمل على تعزيز كل ما يشكل عقيدة مشتركة وأعراف صالحة مع محاصرة الأفكار الهدَّامة.

٣ - مقاومة الأفكار والتوجهات العنصرية والطائفية وكل ما يهدد التوافق الاجتماعي والسلم الأهلي.

٤ - بذل جهود تثقيفية كثيفة من أجل بلورة رؤية اجتماعية جيدة للواقع بفرصه وتحدياته وللمستقبل بمتطلباته ووعوده.

٥ - إشاعة ثقافة العمل الخيري والتطوعي وكل المفاهيم المتصلة بالتضحية والعطاء المجاني.

٦ - محاربة الظلم والفساد والرشوة، وتشجيع العمل والاستثمار، وكل ما يساعد على توفير قدر جيد من الرخاء المادي.

٧ - العمل المتدرج الصبور؛ لتحقيق أي نوع من الوحدة والاندماج على أي صعيد من الأصعدة.

٨ - التسامح مع التلوينات الاجتماعية واحترام الخصوصيات الثقافية، والاعتراف بالاختلاف على أنه سُنَّة من سُنَن الله - تعالى - في الخلق.

●●●●

22

تسمية الأشياء...
بغير أسمائها آخر الحيل

هي...
هكذا

22 تسمية الأشياء...
بغير أسمائها آخر الحيل

علاقة

الإنسانِ بلغته علاقة مُعقَّدة، وعلاقة تحدٍّ ومعاناة، فهو يتعب عند تعلمها وعند استخدامها وعند تفسير عباراتها وشرح مدلولاتها، وبما أن اللغة تشبه في دورة حياتها دورة حياة الكائن الحي، فإن سيطرة الإنسان عليها كانت دائمًا منقوصة حتى إن واحدًا مثل ابن عباس - رضي الله عنهما - كان يذكر أنه ظلَّ مُدَّة لا يعرف معاني بعض الكلمات الواردة في كتاب الله حتى سمع بعض الأعراب ينطق بما يشرحها، مع أن الرجل يُلقَّب بـ (ترجمان القرآن). وحين جُمعت اللغة لم يفطن القائمون على تأسيس علوم العربية وقتها إلى التفريق بين ما هو من قبيل (الأدبية المشتركة) التي نزل بها القرآن الكريم، وما هو من قبيل اللهجات المحلية، وأنا أعذرهم في ذلك؛

لأن الوعي اللغوي السائد في ذلك الحين لم يكن كافيًا لإنجاز مثل هذاالعمل المُعقَّد، ومهما يكن الأمر فإن ذلك أدَّى إلى تضخم العربية إلى حدٍّ كبير، وقد لفت الإمام الشافعي بذكائه المتوقد إلى هذه الحقيقة حين قال في كتابه (الرسالة): « لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها حتى لا يكون موجودًا فيها من يعرفه ». حيث أشار إلى أن الإحاطة باللغة تحتاج إلى معونة إلهيَّة خاصَّة، أي إنها فوق طاقة البشر العاديين.

في كل اللغات قصور في نظم التعبير ونظم التفسير والتأويل، وعلى الرغم من كلِّ مساعي البشرية للوضوح والتوضيح فإن سوء فهمنا لما نسمعه وسوء فهم الآخرين لما نقوله واسع الانتشار إلى درجة أنه ما منا أحد إلا وقع في هذا وذاك مرات عديدة. ولو تأملنا فيما بذله علماء اللغة والفلاسفة وعلماء النفس.... من جهود في تفكيك كنه اللغة، ومحاولة وضع اليد على مفاصلها الكبرى، فإننا سنجد أن الشكوى من غموض العلاقة بين الألفاظ والمعاني ما زالت قائمة.

العربية تجمع بين الدقة المتناهية في التعبير وبين المرونة في الدلالة؛ حيث إن كثيرًا من الكلمات يدلُّ على أكثر من معنى، كما أن فيها الترادف والتضاد إلى جانب الاستعارة والتشبيه والمجاز والكناية..ولك أن ترى مدى ما في العربية من دِقَّة من خلال الفرق الشاسع الذي يُحدثه حلول (حركة) مكان حركة أخرى أثناء الكلام على ما نجده واضحًا في قول الله -تعالى-: ﴿ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ﴾[٢٦]؛ فالآية تدل على عدم جواز تزويج المسلمة من المشرك حتى

٢٦ - سورة البقرة: ٢٢١.

يؤمن، وسيكون المعنى شنيعًا جدًّا ومخالفًا لكل أحكام الشريعة وآدابها لو أننا وضعنا (فتحة) على تاء (تنكحوا) عوضًا عن (الضمة) وقد دار جدل حقوقي وبرلماني حاد حول وضع بضعة حروف في دساتير بعض الدول الإسلامية؛ إذ يرى الإسلاميون ضرورة أن يقال في مقدمة الدستور: « الشريعة الإسلامية هي المصدر الرئيس للتشريع ». على حين أن آخرين يرون أن يقال: « الشريعة هي مصدر رئيسي للتشريع » الفارق طبعًا كبير؛ حيث إن العبارة الثانية تفيد أنه يمكن أن يكون مع الشريعة مصدر رئيس آخر.

إن أغلب الباحثين المعنيين بمسألة (المعنى) اليوم لا يشكّون في أن اللغة كما تكون وسيلة للفهم والإفهام هي في الوقت نفسه وسيلة ممتازة لسوء الفهم وقطع التفاهم وحجب المعنى، والأمثلة على هذا تفوق الحصر.

قد أطلتُ في شرح هذه المسألة؛ لأن علاقتنا باللغة جوهرية ومصيرية، وكثير من مشكلات فهم الواقع والنظر إلى المستقبل على ارتباطٍ ما باللغة، والثقافةُ العامة بهذه القضية ضئيلة للغاية.

● مفاهيم في إطار هذه السنة:

١ - لا يقوى الإنسان في كثير من الأحيان على مواجهة الحقيقة بسبب شدة صدمتها وعنفوان وقعها عليه، كما أن كثيرًا من الناس يشعرون أنهم يعيشون في مجتمع لا يتلاءمون مع كثير من قيمه وأعرافه، لكن لا بد من شيء من الخضوع له، وبعض الناس يتورطون في الوقوع في بعض الجرائم والأخطاء لكنهم لا يريدون تحمل مسؤولية أخطائهم.... هؤلاء جميعًا يبحثون بدأب لأنفسهم عن مخرج، وإن

المسالك التي يسلكونها لذلك كثيرة، وسأحاول شرح بعض تلك المسالك من خلال استعراض حديث صريح جدًّا فيما نحن فيه، ألا وهو قوله ﷺ: **« لا تذهب الليالي والأيام حتى تشرب فيها طائفة من أمتي الخمر يسمُّونها بغير اسمها »**.

ولعلِّي أشير في سياق هذا الحديث إلى التالي:

أ - هذا الحديث من معجزاته ﷺ فالناس في مرحلة من تاريخنا. أطلقوا على الخمر اسم النبيذ واليوم يطلقون عليها (اسم الأشربة الروحية).

ب - من الواضح أن التغيير في الاسم يستهدف التخلص من الدلالات والمعاني المرتبطة بالخمر، والتخلص إن أمكن من حكمها، وهو التحريم.

ج - الناس يسمُّون الأشياء بغير اسمها حين تضيق عليهم سبل الحيل، ويستنفدون العلل والأعذار، ونحن نتصوَّر أن من يشرب الخمر من المسلمين يلتمس لنفسه العديد من المخارج قبل تغيير اسم الخمر، ومن تلك المخارج:

- الشيطان أغواني، وإن شاء الله لن نعود إلى ذلك.
- فلان هو الذي جرَّني إلى شرب الخمر، وهو الذي يتحمل وزري.
- أنا لا أشرب إلا القليل، ولن أقع في الإدمان.
- أنا لا أشرب أمام أسرتي حتى لا يتجرؤوا على الشرب.
- إذا وقع في الإدمان، فسيتغير كل هذا، وسنجده يقول: القرآن الكريم لم يحرم الخمر، وإنما قال (فاجتنبوها) وهذا لا يدل على التحريم.
- الذي أشربه هو شراب روحي، ويُصنع من مواد غير المواد التي كان يصنع منها الخمر.

هذا التدرج المتخيَّل يقع فيه كثير من الناس، ومن النادر أن يقول المُبتلَى بشرب

الخمرلأول وهلة: إن ما أشربه ليس بخمر.

٢ - من السوابق التاريخية في تسمية الأشياء بغير أسمائها ما جرى من تأويل لقول النبي ﷺ: « **بؤسَ ابن سمية تقتلك فئة باغية** »[٢٧]؛ حيث ذُكر أن معاوية رضي الله عنه قال: نحن لم نقتله، وإنما قتله من أخرجه لقتالنا، ويقصد بذلك عليًّا رضي الله عنه، ومن الواضح أن معاوية إنما قال ذلك حتى لا توصف الفئة التي تقاتل معه بـ (البغي) لكن أهل العلم لم يقبلوا هذا التفسير، وقالوا: إذا جارينا معاوية في قوله، فإن ذلك يقتضي أن يكون النبي ﷺ هو الذي قتل عمَّه حمزة وجميعَ من قُتلوا معه في غزواته، وهذا لا يقول به أحد.

٣ - تسمية الأشياء بغير أسمائها من الأمور الشائعة جدًّا في زماننا بسبب وجود محترفين في التلاعب باللغة، وبسبب الرغبة الشديدة في التنصُّل من المسؤوليات القانونية والاجتماعية، إلى جانب الرغبة في إيجاد انطباعات إيجابية لدى الجماهير عن بعض الأعمال الشائنة والمحرمة، وهكذا فإننا نجد اليوم من يسمي (الرشوة) (هدية) أو (إكرامية) أو (ثمن فنجان قهوة) ومن يسمي التفلت من القيود الشرعية والأخلاقية (تفتحًا) ومن يسمِّي الملتزم بـ (المُتشدِّد) و(المُتزمِّت) و(المُتطرِّف) وهناك من يقول: قد هُزمنا فعلًا، ولكنها هزيمة بطعم الفوز، مع أن الهزيمة هزيمة ولكنه التلطيف لوقعها على النفوس. وحين اعتدت إسرائيل على أراضي دولة عربية، ودمرت محطةً للرَّادار علَّق على ذلك (كوفي عنان) الأمين العام للأمم المتحدة في ذلك الحين بقوله: « هذا تصعيد للموقف الأمني » ولم يقل هذا عدوان سافر.

---

٢٧ - رواه مسلم.

والحقيقة أن الأشياء التي تمَّت تسميتها بغير أسمائها تفوق الحصر؛ فالإنسان الحديث يملك من مهارة التلاعب بالألفاظ أكثر بكثير مما يملكه من يقظة الضمير وقوة الأخلاق.

٤ - لا تكون تسمية الأشياء بغير أسمائها ممكنة في بعض الأحيان كما لو كانت الحقيقة متألقة جدًّا، فيلجأ من يستخدمون اللغة إلى التضليل عوضًا عن التوضيح، وذلك من خلال استخدام بعض الأساليب التي تنتج ما يقارب تسمية الأشياء بغير أسمائها، وهذا يلاحظ بقوة في أوقات الحروب والشدائد الخانقة؛ حيث تصبح المعادلات صعبة، ويكون المخرج بقول أنصاف الحقائق أو أرباعها.. وعلى سبيل المثال فقد يكون هناك اقتصاد على حافَّة الانهيار بحسب المعايير الدولية، وحين تذكر ذلك، فإن المسؤولين عن ذلك الانهيار يقولون لك: الأمر ليس بهذا السوء، هناك مبالغة، في هذا تسييس للموضوع، هذا القول يهدف إلى ترويع الناس حتى... وحين تقول إن نسبة البطالة في البلد قد بلغت (٢٠٪) يسارع من يريد تسمية الأشياء بغير أسمائها إلى القول: هذا الرقم مبالغ فيه، هذه الإحصائية قديمة، ليس المهم ما هو سائد الآن، وإنما المهم هو تحسن الوضع والتغير نحو الأفضل، نسبة البطالة هذه طبيعية، وهي موجودة لدى دولة متقدمة مثل...، المسؤول عن هذه النسبة المرتفعة هو بعض العادات الاجتماعية السلبية، أو هو كسل الناس، وهكذا فهناك سعي دائم لجعل وقع الحقيقة المرة في نفوس الناس ضئيلًا إلى أقصى حدٍّ ممكن.

٥ - العلاقة بين الأسماء والمسمَّيات تكون نقية في البدايات، أي يكون الاسم معبرًا فعلًا عن سمات وخصائص المسمَّى بوضوح وإلى حدٍّ بعيد، لكن ذلك

النقاء يتناقص مع مرور الأيام بسبب الظروف التي تحيط بالاستعمال، وبسبب القيود التي تضعها الثقافة أو المصلحة، وهكذا نجد أن العرب استخدمت عددًا كبيرًا من الألفاظ للتعبير عن الأعضاء التناسلية، وعددًا من الجمل للتعبير عن عمليات الاتصال الجنسي، وهم في ذلك كمن يريد أن يتكلم ولا يقول شيئًا، أو من يريد تفادي كل ما يشير إلى توضيح أو تحديد ما هو بشع أو سري أو معيب... وأحيانًا لا يجدون التعبيرات المناسبة عن الحقائق المؤلمة جدًّا، فتتجلّى تسميتهم للأشياء بغير أسمائها في استقباح طرح الموضوع والنفور من أي حديث عنه، كما هو الشأن في (زنا المحارم)...

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - يجب أن نسلِّم أولًا بأن إساءة استخدام اللغة مما عمَّت به البلوى، وأنه من النادر أن نرى شخصًا يسمِّي الأشياء بأسمائها في كلِّ الأحوال.

٢ - أحيانًا لا يكون من الحكمة أو من اللائق تسمية الأشياء بأسمائها.

٣ - حين تكون الثقافة السائدة منفتحة ومتسامحة، وحين تسود البلادَ حالةٌ جيدة من العدل والحرية فإن تسمية الأشياء بأسمائها تصبح هي الأصل، وهذا يعني أن التقدم على صعيد هذه القضية مرتَهن للتقدم على صُعد أخرى.

٤ - العجز عن تسمية الأشياء بأسمائها يفتح الطريق أمام الذين يحبون تسميتها بغير أسمائها، وهذا يعني أن على المثقفين والدعاة أن يقوموا بواجبهم التثقيفي والدعوي، وأن يضعوا النقاط على الحروف، ويحاربوا تمويه الحقائق وإبراز أنصافها وإسدال الستار على باقيها، مما يعني تشويهًا متعمَّدًا لها.

٥ - إذا لم نستطع تسمية الأشياء بأسمائها لضغط أو إكراه يمارَس علينا، فإن من واجبنا الامتناع عن تسميتها بعكس أسمائها أو غير أسمائها حتى لا نسهم في تشويه إدراك الناس ورؤاهم للأشياء.

٦ - بعض الناس يجد نفسه عاجزًا عن تسمية الأشياء بأسمائها بسبب حِدَّة نبرته وتشوش فكرته، ولهذا فإن المطلوب دائمًا هو اعتدال في النبرة من أجل التفاهم ووضوح في الفكرة من أجل الفوز بفضيلة التوعية والإفهام.

٧ - لا بد أن نعتني عناية خاصَّة بما نستخدمه من تعريفات ومصطلحات، وعلينا أن نستخدم في بعض الأحيان نظام الاحتراز: أنا لم أقصد لا هذا ولا ذاك، وإنما قصدت كذا وكذا..

● ● ● ●

23

التصدُّع...
موصولٌ بالتصلُّب

23 التصدُّع... موصولٌ بالتصلُّب

أستطيع أن أقول: إن التصدع كما أنه موصول بالتصلُّب، فإنه موصول أيضًا بالبداوة والحياة البدائية، وهذا يعني أن الليونة موصولة بالحضارة والثقافة والتقدم العمراني كاتصالها بالتلاحم والتوافق والانسجام.

ويعني هذا أيضًا أن جَعْل أفكارنا ومواقفنا وجعل بعض الأشياء تتسم بالمرونة يحتاج إلى جهد ومعالجة وتثقيف وخبرة صناعية وكيميائية، وهذا يعني مرة ثالثة أن ترك الأفكار والمفاهيم والعلاقات على حالها دون رعاية ومعالجة وتطوير.. ينحو بها في اتجاه التصلُّب والتخشُّب ثم التشقق والانهيار.

لو تأمَّلنا في التاريخ والواقع لوجدنا أن الأحزاب والجماعات والتجمعات الأكثر تطرُّفًا وتشدُّدًا هي الأكثر تصدُّعًا؛ وذلك لأنها

لا تستطيع إيقاف تصلُّبها ضد الآخرين الذين يختلفون معها عند حدود معينة، وحين يحدث خلاف داخلي بين أبنائها فإنَّ حلَّ ذلك الخلاف سيكون صعبًا بسبب العقلية والنفسية المُتصلِّبة التي يرضخ لها كل واحد منهم، مما يفضي إلى تصدعهم، ومن هنا كانت المقولة الذائعة: « الثورة تأكل أبناءها ».

التصلُّب في كلِّ شيءٍ ليس موضع مدح أو ذمّ، كما أن الليونة في كل شيء كذلك ليست موضع ذمّ أو مدح، والممدوح منهما ما يكون ملائمًا للحاجات والمواقف وما يكون مساعدًا على نشر الخير والحق ومساعدًا على التقدم والإصلاح. في موقف من المواقف يكون المطلوب هو الليونة، ونحن نعرف أن القرآن الكريم حضَّنا على العفو والتسامح والتنازل عن بعض الحقوق، وإن العفو هو في الحقيقة ليونة واستجابة لنوازع الأخوة والرحمة، وفي موقف آخر يكون التصلُّب هو المطلوب، وفي سيرة نبينا ﷺ ما يشير إلى هذه المعاني، فإنه كان لا يغضب - والغضب مظهر من مظاهر التصلُّب - لنفسه، وإنما كان يغضب لربِّه حين تنتهك حرمة من حرماته. الليونة ليست هي الذوبان والميوعة، والاستسلام، وإنما هي مرونة في صلابة، أو هي حالة تمتزج فيها مقادير مناسبة من الليونة والصلابة من أجل الحفاظ على الأصول والخصائص الأساسية، ومن أجل الحصول على التكيف والتواؤم الإيجابي وقد كان القدماء على وعي بهذا حين قالوا: « لا تكن يابسًا فتُكسر، ولا تكن لينًا فتُعصَر » ومهما يكن الأمر، فإن المسلم الحق يظلُّ أميل إلى الليونة؛ لأنه من خلالها يتكيف وينمو، ويحافظ على استمراريته، وقد ورد في الحديث الشريف ما يشير إلى نحوٍ من هذا؛ حيث صحَّ عنه ﷺ أنه قال: « **مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفنيها الريح، تصرعها مرة، وتعدلها أخرى حتى تهيج، ومثل**

الكافر كمثل الأرزة المجذية على أصلها لا يفنيها شيء حتى يكون انجعافها مرة واحدة»[٢٨]، المسلم يتكيف مع نوائب الدهر، ويصبر ويتعلم، ومع كل ذلك ينمو ويكبر، أما الكافر فهو في يبوسة وصلابة شجرة الأرز، لا يتكيف مع الحوادث، ولا تغير من أوضاعه الريح، فتقضي عليه مرة واحدة. إن في إمكاننا أن نقول: إن المرونة هي أساس التكيف، فلا تكيف من غير مرونة، كما أنه لا حياة ولا استمرار من غير تكيف، وإن التاريخ شاهد على انقراض عشرات ألوف الأنواع من الكائنات الحية والأشجاروالنباتات بسبب واحد هو: العجزعن التكيف مع التطورات البيئية؛ بل إن الموت في جوهره هو عجز الجسد عن التكيف مع مستجدات الحياة وعجزه عن دفع تكاليف البقاء.

● أمثلة تطبيقية:

١ - التصلب الفكري:

حين تتحسن معرفة المرء بسُنَن الله - تعالى - في الخلق، وحين يفهم مبادئ الحياة وفلسفة العلوم، ويمتلك قدرًا حسنًا من المفاهيم الكبرى، فإن المتوقع منه آنذاك هو التفكير بطريقة مرنة، مع إنصاف الخصوم واكتشاف الأرضية المشتركة، التي يمكن أن يقف عليها مع القريبين منه والبعيدين عنه. أما الإنسان الذي يفتقر إلى ما أشرنا إليه، فإن تفكيره يميل إلى التصلُّب والتشدُّد، مما يجعل العمل والمضي معه في مسيرة الحياة أمرًا مرهقًا، وهذا يؤدّي بالطبع إلى انفضاض الناس عنه، أي تصدع العلاقة التي كانت تربطهم به. **للتصلب الذهني أسباب ومظاهر عديدة، منها:**

٢٨ - رواه مسلم.

١ - يميل المصاب بالتصلُّب الذهني إلى الحدِّية في التفكير. (إما هذا وإما هذا) فهو يرى من الألوان الأبيض والأسود، ويرى من المواقف ما هو معه وما هو ضدّه فقط، وحين يحاول رؤية الواقع، فإنه لا يرى إلا النصر أو الهزيمة، ولا يرى سوى العزّ أو الذلّ، كما أنه لا يرى سوى الشرف والالتزام أو الخيانة والمروق... إنه محروم من رؤية أنصاف الأشياء ومحروم من رؤية تداخلاتها وامتزاجاتها، وقد رأينا جميعًا نماذج لأشخاص يدخاون في مشكلات كبيرة، ويطلبون من جماعتهم الوقوف إلى جانبهم ولو كانوا على خطأ؛ لأنهم يعتقدون أنه ليس هناك حياد أو خيار ثالث، فمن لا يقف معهم هو قطعًا واقف إلى جانب أعدائهم، والنتيجة معروفة، هي تصدُّع علاقته بجماعته وقبيلته وكل أولئك الذين كانوا يومًا عزيزين عليه.

٢ - المتصلب فكريًّا يفكر عبر أُطُر قديمة، وهو يُضمر نوعًا من الخشية من المعلومات الجديدة خوفًا على مسلَّماته من التحوير والتغيير، وهكذا تكون معاييره وأطره والمعلومات التي لديه متقادمة مما يجعله معزولًا عن مستجدات عصره الفكرية والعلمية، هذه امرأة شهدت معاناة أُمّها مع أبيها، فتولدت لديها قناعة بأن كل الرجال سيئون، وهذا رجل أعمال تاجَرَ في مجال معيَّن؛ حيث عقد فيه عددًا كبيرًا من الصفقات الخاسرة، فصار يعتقد أن ذلك المجال غير مناسب لأحد، مع أن هناك الكثير من الأزواج الجيدين الناجحين، كما أن في ذلك المجال الكثير من التجار الرابحين. هذا الرجل وتلك المرأة يفتقران إلى المرونة الذهنية في موقفيهما، ومن ثَمَّ فإنهما يصدِّقان كل الأخبار السيئة التي تدعم موقفيهما ولو لم تكن صحيحة.

٣ - التعصب، بمعنى الميل الأعمى لمبادئ أو أفكار أو حزب أو قبيلة... هو أحد مظاهر التصلُّب الذهني، إنك حين تختلف مع شخص خلافًا موضوعيًّا فإنه يمكن

لك أن تعمل معه بسبب وجود طريقة لإزالة أسباب الخلاف، لكن كيف تعمل معه إذا كان يعتقد - مثلًا - أن مؤسسته هي أفضل مؤسسة في البلد، وأنه لا وجود للخطأ فيها؟ وكيف تتحاور مع طالب علم يدافع عن كل صغيرة وكبيرة في المذهب الذي ارتضى تقليد إمامه مع أن أهل العلم مجمعون على أنه ليس هناك مذهب، كل اجتهادات أئمته صحيحة أو قوية؟ وقارن هذا التصدُّع الذي يُحدثه التعصُّب في مقام التقليد بما نجده من تسامح وألفة في قول الإمام الشافعي: - رحمه الله - « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب ». إنها الرؤية الموضوعية البعيدة عن التحيُّز وتقديس الانتماء الشخصي، والتي تتمحور في كثير من الأحيان حول (الإنصاف) والذي من جهته يشكل مدخلًا أساسيًّا للتفاهم والتقارب.

٤ - من أصحاب التصلُّب الذهني أقوام يؤمنون بالخرافات والأساطير، ويستسلمون للشاذِّ من الأخبار والتحليلات الشخصية، وإن من طبيعة الخرافة أنها ذات بنية متماسكة جدًّا، فهي لا تقبل أي تحوير أو تعديل، على حين أن العلم يقوم على أساس المرونة؛ لأن نظرياته وقواعده وقوانينه ونتائج دراساته قابلة للتغير والتطور؛ ولهذا فإن الخرافة تُنسَف نسفًا حين تسطع أنوار العلم، ويتغير التركيب العقلي للناس، إنه التصدع الذي يلازم التخشُّب والتماسك غير المنطقي وغير الموضوعي.

٢ - الطلاق:

لا تخلو أي علاقة بين زوجين من شيء من التشويش والمناكفة، وهذا بسبب تباين الآراء والأهواء والرؤى والمصالح، ويجب أن ننظر إلى ذلك على أنه شيء طبيعي. يمكن للحياة أن تستمر على نحو مقبول ما دام كل واحد من الزوجين يشعر بأنه

قادر على التعبير عن آرائه ومشاعره وأوجاعه، ويأمل مع ذلك الشعور في تراجع صاحبه عن بعض مواقفه أو عاداته أو نظرته إليه..الحوار بين الزوجين يعبِّر على نحو دقيق عن الأمل في التغيير؛ وذلك لأن الحوار في جوهره هو: أن تُري محاورك نقطة لا يراها، وأن يُريك محاورك نقطة لا تراها، وهذا يؤدِّي إلى إضاءة كل جوانب القضية. وقد دلَّتْ إحدى الدراسات على أن انسحاب أحد الزوجين أو كليهما من الحوار يُعدّ واحدًا من أهم الأسباب المؤدِّية إلى الطلاق؛ وذلك لأن انسحاب أيٍّ من الشريكين من محاورة صاحبه يدل على أن رصيده من المرونة قد انتهى، أو يدل على أن قدرة محاوره على التنازل أو التغيير قد تبددت،وهكذا فإن الحياة الزوجية تتصدع حين يحدث شعور بانسداد الأفق واستحالة الصيرورة إلى ما هو أفضل.

٣ - الصلح:

فُطر الناس على التمسك بكلِّ ما يعدونه حقًّا مشروعًا لهم؛ بل إنهم فُطروا على الرغبة في الاستحواذ على كلِّ ما تصلُ إليه أيديهم، وقد احتل بيان الحقوق والواجبات مساحة واسعة من الفقه الإسلامي، لكن قد يكون ما يطالب به أحدنا من حقٍّ مرهقًا أو فوق طاقة المطالَب، وقد يكون الحق غامضًا، مما يجعل القاضي عاجزًا عن إصدار حكم صحيح ومنصف، وفي هذه الحالة فإن (الصلح) يكون هو الحلّ. والصلح هو عقد يرفع النزاع، ويقطع الخصومة بين المتصالحين بسبب قيامه على التراضي والتغافر.

الله - سبحانه - حثَّ المسلمين على أن يسعوا في الصلح بين الناس وعلى أن يتمتعوا بالروح التصالحية، وقد مدح الله - سبحانه - الصلح حين

قال: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾[٢٩]. إن تمسك كل صاحب بحقِّه مهما كانت الظروف يفضي إلى العداوة والبغضاء، بسبب ما فيه من تصلُّب الخصوم وشُحّ الأنفس، ومع التصلُّب والشّح يأتي التفرّق وتصدّع الجماعة، على حين أن الصلح يعني إزالة أسباب الفرقة مما يفضي إلى التحابب ووحدة الكلمة. وفي كثير من الأحيان يشعر كلا المتصالحين بالغَبْن؛ حيث إنه يشعرأنه تنازل عن حق ثابت له، لكن الواقع يقول: إن الصلح هو مكسب وخير للجميع لما فيه من إبعاد شبح النزاع والافتراق.

٤ - صلابة الحديد:

إن الحديد في وضعه النقي أشد ليونة من الألمنيوم لكن تتم زيادة صلابته بإضافة بعض العناصر إليه مثل عنصر الكربون فتصبح سبيكة الصلب أقوى ألف مرة من الحديد النقي! والحديد أنواع، والذي يقدم لنا شاهدًا واضحًا على السُّنَّة التي نتحدث عنها هو (حديد الزهر) فهو شديد الصلابة بسبب ارتفاع نسبة الكربون فيه، إذ إنها تتراوح بين(٢٪) و(٤,٥٪) وهي نسبة عالية إذا ما قارنّاها بنسبة الكربون الموجود في باقي أنواع الحديد. إن حديد الزهر شديد الصلابة؛ ولهذا فإنه لا يمكن تشكيله تشكيلًا لدنًا، ويصعب لحامه، أو سحبه، وهو يتحمل الضغط الشديد، وله خاصية امتصاص الصدمات، لكنه مع هذا يعدُّ هشًّا وأكثر قابلية للكسر من أنواع الحديد الأخرى!

---

٢٩ - سورة النساء: ١٢٨.

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - لا يكون الإنسان ذكيًّا من خلال حفظ الكثير من المعلومات أو من خلال طرح الكثير من الأفكار، وإنما الذكي هو الذي يستطيع تقييم ما يقرأ وما يسمع، واتخاذ موقف راشد منه، وهكذا فإن المرونة الفكرية هي بنت الانفتاح الذهني، والنظر إلى الأمور من كلِّ الزوايا ومحاولة رؤية الأشياء بطريقة موضوعية، وهذا ما علينا أن نسعى إليه على نحوٍّ مستمر.

٢ - الحوار وسيلة من الوسائل المهمة في تخفيف التصلُّب والتصدُّع، فنحن من خلال الحوار المخلص نُنضج ما لدينا من أفكار، ونضع أيدينا على ما لدينا من مشكلات، كما أننا من خلال الحوار نكتشف ما بيننا من قواسم مشتركة، فنسعى إلى تعظيمها وتنميتها، كما أننا نكتشف ما بيننا من تباينات، فنسعى إلى تحجيمها، وهذا كله يقلِّل من إمكانات تصدع منظوماتنا وهياكلنا وعلاقاتنا.

٣ - التصلُّب عبارة عن نقص في المرونة، والتصدع هو نتيجة ضعف التكيف والتلاؤم؛ ومِن ثَمّ فإن علينا من أجل الحد من التصلُّب والتصدُّع معًا أن ندرِّب الصغار، وندرِّب أنفسنا على التكيف مع الطوارئ والمستجدات، وذلك من خلال الثقافة ومجاهدة النفس. إن الحياة ليست سهلة، وليست دارًا للمسرّات فحسب، كما أن كل واحد منا يدَّخِر في دمِه وأعصابه وبنيته النفسية طاقة هائلة على التأقلم، ولديه إمكانية كبيرة للعيش بهناء وسرور في أوضاع قد لا تكون جيدة أو مريحة؛ وإن علينا اكتشاف ذلك.



24

نقص العلم بالشيء...
مفضٍ لسوء التعامل معه

24 نقص العلم بالشيء... مفضٍ لسوء التعامل معه

الله - جل جلاله - جعل العالم المادي مترابطًا على نحو مدهش، فهو عالم علاقات بامتياز؛ بل إننا نستطيع أن نقول: إن الشيء هو هبة علاقاته، فوجود كل شيء وصفاته وتطوره مرتَهن لعلاقته بالأشياء الأخرى، وحين تتطور ظاهرة من الظواهر فإن تطورها هو نتيجة وجود علاقات جديدة واختفاء علاقات قديمة، وأحيانًا يكون تغير العلاقات هو الشكل الذي يتجسَّد فيه التطور. إن مفتتح علاقة الطفل بالموجودات يكون بأمِّه وحليبها وبالثياب التي تُلبسه إيَّاها، وتلك العلاقة تكون سببًا في بقائه وشرطًا لنموه بطريقة صحيحة. كل علاقة نقيمها مع شيء هي موقف تجاه ذلك الشيء، وهي

لون من التعامل معه. والتحدُّث عن التعامل يعني التحدُّث عن المعرفة والفكر والمشاعر والذوق والخبرة والكيفية، وهذه بمجملها ونوعيتها وخصوصيتها تشكّل (الأسلوب) الذي نتعامل به مع الأشياء من حولنا. أسلوب الرجل في التعامل هو الرجل نفسه، مما يعني أن طريقة نظرتنا للأشياء وتعاملنا معها هي الموجز المكثف لذواتنا.

العلم بالشيء هو الطريق القويم للتعامل الراشد معه، والجهل به لا يمكن إلا أن يقود إلى سوء التعامل معه؛ وذلك لأن لكل شيء طبيعته وظروفه الخاصَّة به، ومعرفة ذلك هي التي تدلنا على ما علينا فعله تجاهه.

ليس وجود الأشياء هو الذي يملي علينا تكوين المعرفة حولها، وإنما العلاقة بها، فالأشياء المختلفة تظلُّ معدومة أو محدودة المخاطر ما لم نُقم علاقة معها، ومن هنا فإن الواحد منَّا كلما اقترب من شيء من الأشياء أكثر كان عليه أن يعرف عنه أكثر، وكانت خطورة الجهل به أشد.

● **العلم والجهل:**

١ -قد يتمثَّل الجهل في عدم حضور صورة الشيء في الذهن، فإذا ذُكر أمامي (ابن آوى) مثلًا وأنا لم أرَه، ولم أسمع أي شيء عنه، فأنا جاهل به؛ لأن ذكره أمامي لم يجعلني أستحضر صورته أو أي معلومات عنه في ذهني. وقد يتمثل الجهل في نظرة المرء إلى الشيء على غير ما هو عليه، وذلك مثل الذي يعتقد أنه تمّ فصله من عمله بسبب مؤامرة عليه أو بسبب شكله مثلًا، ويكون فصله في الحقيقة بسبب نقص كفاءته أو الاستغناء عن تخصصه أو مهارته.

٢ - قد يُطلَق الجهل، ولا يراد به النقص في المعرفة، وإنما النقص في الحكمة، وذلك حين يتصرف الإنسان خلافًا لما يقتضيه العلم والعقل، وقد قال أحد السلف: علامة الجاهل ثلاثة: « العجب بالنفس، وكثرة النطق فيما لا يعنيه، وأن ينهى عن شيء ويأتيه » وقد كان من دعاء النبي ﷺ: « **اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه** » فطلب رؤية الحق والعمل بمقتضى تلك المعرفة.

٣ - الجهل ينقسم إلى: جهل بسيط، وجهل مركب، والجهل البسيط مثل أن يقول شخص من الناس: إنه لا يعرف كيف يصل إلى بيت فلان، والجهل المركب أن لا يعرف أنه لا يعرف، ولهذا كانت (لا أعلم) نصف العلم؛ لأن المرء حين يقول: لا أعلم يكون قد تخلص من الجهل المركَّب.

٤ - المعرفة الناقصة والمعرفة المشوَّهة كثيرًا ما تحول بين الإنسان وبين طلب الحقيقة واستكمال النقص، ولهذا قال أحدهم: إن كل شيء، وجودُه الناقص أفضل من عدمه المحض إلا العلم بالشيء، فوجوده الناقص ليس أفضل من عدمه.

٥ - من أجل التخلص من الجهل المركَّب سعى سقراط قبل نحوٍ من خمسة وعشرين قرنًا إلى تأسيس (علم الجهل) حيث يرى أن ذلك هو المقدمة لطرد الخرافة وإضاءة قناديل المعرفة، وقد لاحظ الرجل أن الناس لا يعرفون بدقة معاني الكلمات التي يستخدمونها على نحو واسع مثل العدل والظلم، والشرف والعار، والخير والشر، فكان يظهر بمظهر غير العارف، ويسألهم عن معاني ما يدور على ألسنتهم من كلام فيكتشفون أنهم لا يعرفون إلا القليل، وأنهم بعيدون جدًا عن الدقة والتحديد.

٦ -وَهْمُ المعرفة هو الذي يجعل الناس غارقين في الجهل؛ ولهذا فإن القرآن الكريم أرسى قاعدة مهمة في هذا الشأن حين أعلن أن الأصل في الناس أن يكونوا جهالًا إلا إذا تعلموا؛ حيث قال – سبحانه –: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [٣٠]، ومن أجل هذا كانت أول كلمة تنزل على النبي ﷺ هي كلمة (اقرأ).

● أمثلة تطبيقية:

ما دام الجهل منتشرًا في الأُمَّة إلى حدٍّ بعيد، وما دام ما لدينا من معارف حول مختلف الأشياء يتسم غالبًا بالنقص وعدم الاكتمال... فإن الأمثلة التي تشير إلى سوء التعامل مع الأشياء بسبب سوء معرفتها، تفوق الحصر، ولهذا فإني سأسوق بعض الأمثلة من باب توضيح هذه السُّنَّة، وليس من باب تقريرها:

١ – الجهل بالله تعالى:

أخطر أنواع الجهل نوعان: جهل الإنسان بنفسه، وجهله بخالقه.

المقصود من الجهل بالله – تعالى – هنا هو الجهل بالعلاقة التي تربطنا به، وعندنا حديث طويل عريض في هذا الشأن، لكن أودّ أن أقارن بين البنية العميقة للثقافة الأوربية والبنية العميقة للثقافة الإسلامية. تتمحور البنية العميقة للثقافة الإسلامية حول قطبين أساسيَّين: (الله – الإنسان) أما الحياة الدنيا، فهي دار للابتلاء ودار للتقرب إلى الله – تعالى – مع وجود فرصة للناس كي يرفِّهوا أنفسهم، ويستمتعوا في إطارالمباح، والعلاقة التي تربط المسلم بربِّه – سبحانه – هي علاقة العبودية والتذلّل والحبّ والرجاء والخوف.

---

٣٠ – سورة النحل: ٨٧.

أما القطبان اللذان تتمحور حولهما البنية العميقة للثقافة الأوربية، فهما: (الإنسان - الطبيعة) والغربيُّون عامّة يذكرون الله - تعالى - حين يحتاجون إليه، ولا يحكم إيمانهم بوجود الله معظمَ مفردات سلوكهم، أي أن وجود الله - تعالى - في اهتمامات الإنسان الغربي هامشي، مثل وجود الدنيا لدى المسلم الملتزم.

القرآن الكريم في الكثير من الآيات فنَّد تصورات المشركين وكثير من أهل الكتاب للعلاقة التي تربط الإنسان بخالقه سبحانه، وإن التعامل الخاطئ لدى غير المسلمين معه - سبحانه - هو ثمرة مباشرة للانحراف العقدي لديهم، وهذا واضح.

٢ - الجهل بخصائص الأشياء:

هذه معضلة من أكبر المعضلات، فالله - تعالى - منح لكلِّ مخلوق طبيعته وخصائصه الثابتة، وبداية الاستفادة من كلِّ شيء تكمن في فهم خصائصه، وقد أنجزت البشرية الكثير الكثير على هذا الصعيد، وما زال أمامها الكثير، لكن المشكل الأساسي يكمن في وعي الأفراد بتلك الخصائص. القصص والحكايات التي تتحدث عن جهلنا بخصائص الأشياء تفوق الحصر، والمآسي في هذا تتجدد في كل لحظة وفي كل مكان، ولا أدري ما الذي آخذه منها وما الذي أدعه؟

لننظر إلى أنفسنا أولًا، فقد كان الناس إلى عهد قريب - وبعضهم ما زال كذلك - يربطون بين البدانة والعافية، فإذا توفي شخص فجأة مع تمتعه بأربعين كيلو جرامًا زائدًا على وزنه المثالي قالوا: غريب فلان مات وهو مثل الجمل! وما ذلك إلا لأنهم لا يعرفون خطورة البدانة والوزن الزائد على أبدانهم.

أحدهم بنى بيتًا، وقد استشار كثيرًا من أهل الخبرة في كثير من مراحل البناء، واستفاد الكثير، لكنه اجتهد في بعض الأمور، وشاور من لا يملك الخبرة الكافية،

في أمور أخرى، وكانت العاقبة المزيد من المعاناة والمزيد من الخسائر، وكان مما استشار فيه أهل الخبرة الناقصة ما قام به من بناء بركة صغيرة للسباحة؛ حيث إنه بعد ملء البركة بأيام أخذ الماء في التغير، إلى أن صار لونه أخضر، وصارت له رائحة كريهة، وسارع إلى تعليل ذلك بوجود تسرب للماء من محيط البركة، وسأل أهل الاختصاص، فوافقوه على ذلك، وقاموا بتكسير (السيراميك) وإعادة العزل ووضع سيراميك جديد، وبعد مدة عادت المشكلة السابقة، ثم اكتشف الرجل أن المشكلة تكمن في عدم وضع (الكيماويات) القاتلة للطفيليات في الماء، وليس أي شيء آخر، وأهل الاختصاص لم يحدثوه عن ذلك، ولم يسألوه لأنهم يعرفون أن ذلك من البدهيات التي لا تغيب عن أحد! ولو أن الرجل فتح على موقع الكتروني في برك السباحة لحصل على كثير من المعلومات المجانية، ولوفّر على نفسه الكثير، لكن مشكلة الناس غالبًا ما تكون في ظنِّهم أنهم يعرفون كل شيء، ولهذا فإنهم لا يتعلمون، ولا يسألون!

٣ - العلاقة بالآخر:

تظل علاقة أُمَّة الإسلام بأمم الأرض الأخرى مثارًا للجدل والتحليل المتباين، وهذا أمر يبدو طبيعيًّا أو غير مؤرِّق لولا أنه انعكس سلبًا على رؤيتنا للواقع العربي والإسلامي؛ حيث إن لدينا نسبة كبيرة جدًّا من المسلمين تعتقد أن تدخل الغرب في شؤوننا هو الذي أدَّى إلى إضعافنا وتخلُّفنا، ولو تركَنا الآخرون وشأننا لكنا في حال غير هذه الحال. هذه الرؤية جعلت كثيرًا من المسلمين يشعرون بالعجز؛ لأن المؤامرة أكبر منهم، ويشعرون كذلك بأنهم غير مسؤولين عن إصلاح الواقع؛ لأنهم ببساطة لم يشاركوا في انحطاطه. وهذا في نظري نابع من ضحالة

المعرفة بفيزياء التقدم ومن ضحالة المعرفة بتأثير العوامل الداخلية والخارجية في حدوث الظواهر. إنني أرى أن ضعفنا الموروث من قرون هو الذي يُغري الآخرين بنا، ويتيح لهم الفرص كي يعيقوا نهضتنا، وإن الأعداء مهما بلغت درجة عداواتهم لا يستطيعون أن يفعلوا بنا أسوأ مما نفعله بأنفسنا، وذلك بسبب قصور أدواتهم. إن مساهمة الآخرين في تخلفنا لا تزيد في حال من الأحوال على (٢٠٪) ونحن مصدر الـ (٨٠٪)الباقية من خلال تراكم الأخطاء والخطايا.

٤ - تربية الأبناء:

التربية جهود متتالية يبذلها المربُّون في تنشئة الصغار على نحو يراد منه المحافظة على خصائصهم الذاتية ودمجهم في المجتمع، ولا شك أن لدينا الكثير من الأسر التي قامت بعمل عظيم على صعيد تربية أبنائها، وحقَّقت نجاحات كبيرة، وإلى جانب هذه الأسر هناك أسر كثيرة - ربما كانت نسبتها أكبر - أخفقت في تربية أبنائها - بدرجات متفاوتة - وقد كان السبب الأساسي لذلك هو الجهل، الجهل بالقواعد التربوية، والجهل بطبيعة الطفل وحاجاته، والنتيجة هي تعامل خاطئ مع الأبناء، ونتائج تربوية سيئة.

أنا لا أستطيع هنا أن أتوسع في أسباب إخفاقاتنا ولا في شرح كيفياتها، ولكنني أودُّ أن أشير إلى أمر واحد هو النظرة إلى طبيعة الطفل؛ حيث إن بعض المُربِّين يظنون أن الطفل هو عبارة عن عجينة يشكلونها كيف شاؤوا، ولهذا فإنهم يضغطون على الصغار، ويطلبون منهم القيام بالكثير من الأمور التي لا يرغبون فيها مما يؤدِّي إلى وضع حواجز كبيرة بين المُربِّين والمُتربِّين، وكثيرًا ما يؤدِّي ذلك إلى انحراف الأولاد وفشلهم في الحياة.

هناك شريحة أخرى من الآباء الذين يعتقدون أن الطبع قرين الروح فهو ملازم لصاحبه ما دام حيًّا، كما يعتقدون أن لكلٍّ طفل طبيعته الأبدية التي لا تنفع في تهذيبها تربية ولا موعظة، ولهذا فإنهم قد أهملوا أبناءهم إهمالًا تامًّا، وأعطوهم كل ما يريدونه، ونتائج هذا التعامل كثيرًا ما تكون كارثية، وما ذلك إلا لأن التربية الحقيقية تقوم على رعاية الخصائص والصفات الجيدة لدى الصغار والعمل على تزكيتها إلى جانب تلقينهم المبادئ والقيم والمفاهيم والأعراف الصحيحة. ومعقد نجاح التربية يكمن في الفهم الدقيق لما نريده من الطفل، وما يريده منَّا، والعمل وفق ذلك الفهم.

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - نحن نعيش في عالم يزداد خطورة، وكل شيء فيه إلى تسارع، وإلى تعقيد، وهذا يجعل التعامل مع الأشياء عسيرًا؛ بل إن التقدم الحضاري - عامّة - يحملنا على أن نتعامل مع أشياء لسنا بحاجة إليها، ونحتاج إلى وقت حتى نتعلم كيفية الاستفادة منها، كما هو حال معظم الناس مع أجهزة الحاسب، والأمر لا يقتصر على الأشياء المادية، فعالم العلاقات في كل المجالات يميل إلى التعقيد بسبب تقدم الوعي وكثرة النظم وكثرة الأمور التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند إقامة أية علاقة، وهذا كلّه يوجب علينا توخّي الحذر والدقة في كل شؤوننا.

٢ - من المهم عند استخدام أي شيء أو إقامة أية علاقة مع أي شيء أن نعتقد أنا نحتاج إلى معرفة جيدة به، وأن نتشكك فيما لدينا من معرفة حوله، ولو أن كل إنسان اتبع هذا المبدأ لَوَقَتْ البشرية نفسها من كثير من الأحزان والخسائر والنكبات.

٣ - مهما كانت معرفتنا بما حولنا وبالأشياء التي نريد إقامة علاقة معها جيدة، فإنها تظلُّ ناقصة، وتحتاج إلى تكميل، وهذا يعود إلى أمرين :الأول : هو أن معارف البشرية في كلِّ شؤون الحياة في حالة من التجدُّد المستمر، وبعض التجديدات له طابع الجذرية، مما يجعل معارفنا تتقادم بسرعة، أو تصبح مؤذية. الثاني : كل علاقة نريد لها أن تكون متقنة أو ناجحة ومثمرة جدًّا تتطلب منَّا مستوى أعلى من المعرفة؛ حيث إن الإتقان اليوم يعتمد على المعارف المتقدمة أكثر من أي وقت مضى.

٤ - كلما كانت العلاقة التي نريد إقامتها مع أي شيء أشد وثاقة وأكثر حميمية وجب أن نجمع معلومات أكثر حول من سيكون شريكًا فيها، ووجب أيضًا أن نتريث في عقدها؛ لأن التراجع عنها قد يكون مؤلمًا ومُكلِّفًا، وذلك مثل : الزواج والدخول في شراكة استراتيجية، وبناء منزل في حي، وشراء شيء له قيمة عالية..

●●●●

25

انتعاش التعددية
لا يكون إلا على حساب الهُويَّة

هي...
هكذا

25 ربما

انتعاش التعددية
لا يكون إلا على حساب الهُويَّة

كانت كلمتا (الهُويَّة والتعددية) من أكثر الكلمات استخدامًا في هذه الأيام، وهذا بسبب التغييرات الثقافية والاجتماعية المتسارعة والناشئة عن التجديدات والابتكارات التقنية. حين تحظى عبارة بتردد كثيف على الألسنة، فهذا يعني أنها تُشير، أو تعبِّر عن شيء مُهم أو مقلق أو غريب... والعلاقة بين (التعددية) و(الهُويَّة) هي علاقة نفي؛ حيث تنكمش مدلولات (الهُويَّة) وتجسيداتها حين يتسامح الناس تجاه (التعددية) بأشكالها المختلفة: السياسية والاجتماعية والإثنية والعرقية، وحين يتوسع مجتمع ما في فهمه لما يعدُّه (هُويَّة) له، فإنه بذلك يخنق (التعددية) ويضيِّق عليها، فهل هذا يعني أن بين الهُويَّة والتعددية نوعًا من الصراع الخفي أو المكشوف؟

نعم أنا أعتقد هذا؛ ومن ثم فإن معظم الأمم تعاني من الارتباك في إدارة العلاقة بينهما، وقلَّمَا تجد أُمَّة راضية عن نتائج تلك الإدارة حتى في الدول التي تُقدِّس التعددية؛ حيث رأينا في بعض الدول الأوربية من يسعى إلى إلغاء الهُويَّات الفرعية أو الضغط عليها من خلال حظر ما يرمز إليها على نحو ما رأيناه في بعض الدول الأوربية من منع للحجاب وحظر على بناء المآذن، وما ذلك إلا لأن كثيرًا من الأوربيين صاروا يشعرون بأن هُويَّتهم باتت مُهدَّدة بسبب انتعاش التعددية وتجاوزها لما يعتقدون أنه خطوط حمراء.

● **أُطُر للفهم:**

١ - (الهُويَّة) نسبة إلى الضمير (هو) والمقصود بها: مجموع القيم والمبادئ والعادات والتقاليد والرمزيات وأساليب التكيف وطرق تنظيم ردود الأفعال والرؤية العامَّة للحياة والأحياء... التي يحملها شعب من الشعوب أو أُمَّة من الأمم؛ والهُويَّة الثقافية لأي شعب من الشعوب هي ذلك القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامَّة التي تميِّز حضارته عن غيرها من الحضارات.

إن وعي الفرد بذاته نابع من وعيه بهُويَّته وانتمائه وإن إحساس الفرد بهُويَّته قد يضعف وقد يضمحل - كما هو شأن كثير من العرب الذين هاجروا إلى أمريكا الجنوبية في القرن الماضي - وهذا يسبب له أزمة في الوعي وعتمة في الرؤية لنفسه وللعالم من حوله. إن من المهم أن نعرف أنه ليس هناك شعب من غير هُويَّة؛ وذلك لأن الخالق - سبحانه - فطر العباد على إنتاج هُويَّاتهم واكتسابها والمحافظة عليها؛

ولذا فإن أي واحد من الناس يكون مشغولًا باكتساب هُويَّة جديدة في الوقت الذي يتخلَّى فيه عن هُويَّته السابقة، ومثل هذه العملية تستغرق وقتًا طويلًا، وكثيرًا ما تستغرق جيلين أو ثلاثة.

٢ - يقولون: تعدَّد الشيء: صار ذا عدد. والتعددية: مصدر صناعي مأخوذ من المصدر الأصلي (تعدُّد) وحين نقول: هذا مجتمع يتَّسم بالتعددية، فإننا نعني أنه مركَّب من تنوعات ثقافية أو عرقية أو دينية أو طبقية، والحقيقة أننا حين نعمِّق النظر نجد أن التعددية - على نحو نسبي - موجودة في كلِّ الكليات الكبيرة، لكن تلك التعددية قد تكون ظاهرة على نحو فاقع مما يجعلها مصدرًا للنزاع وإرباك الأجهزة الإدارية... وقد تكون محدودة أو خافتة، فيتأقلم معها الناس ولا تكون لإدارتها تكلفة تُذكر. ولا يخلو مفهوم (التعددية) من شيء من التعقيد بسبب ارتباطه بمفاهيم أخرى مثل: الطائفية والعرقية والقومية والديموقراطية والطبقية.

٣ - الغموض هو سيد الموقف عند الحديث عن الهُويَّة والتعددية، وذلك بسبب غموض ونسبية مدلولات كل منهما، فنحن لا نعرف على وجه التحديد متى تكون (الهُويَّة) متضخمة مما يجعلها تهمش دور الفرد، وتحدُّ من إبداعاته، ويجعلها تحدّ من مساحات التعددية، فتحرم إثنيات وفئات اجتماعية من حقوقها الطبيعية، كما أننا لا نعرف على وجه التحديد متى تؤدِّي التعددية إلى فقد الشعب؛ لذلك القدر من التماسك والتوحُّد الذي يمكِّنه من الشعور بوحدة الانتماء والمصير، أو يمكِّنه من التعايش والتفاعل الإيجابي، ومن هنا فإن لنا أن لا نستغرب من شكوى العديد من المكوِّنات الاجتماعية من جور الأكثرية أو من عدم مراعاة الدستور لحقوقها...

كما أن لنا أن لا نستغرب مما يبديه كثير من أهل الغيرة من خوف على انطماس ملامح هُويَّة الأُمّة، وما يبثونه من شكوى من العدوان عليها.

٤ - إذا رأيت الناس يبحثون عن ملامح هُويَّتهم ومحدداتها، فاعلم أنهم صاروا يشعرون بأنها مُهدَّدة، فالهُويَّة مثل الصحة لا نشعر بها إلا إذا كانت على غير ما يرام. ومن الواضح أن الشكوى من اعتلال الهُويَّات باتت عامّة، وذلك بسبب ضغوط العصر والتحديث وما يطرأ على الأخلاق والعادات والأعراف من تغيرات جذرية ومتلاحقة. وبما أن الهُويَّات تبرز نتيجة تحيزات اجتماعية مبهمة وخارج نطاق الوعي فإن الناس يرتبكون ارتباكًا عظيمًا في الدفاع عما يعتقدون أنه هُويّة جامعة لهم، مما يدفعهم إلى الاحتماء بالقبيلة أو الإثنية أو الطبقة بوصفها الحصن الذي يحميهم من مخاطر اندراس الذات الاعتبارية، وبوصفها مصدرًا لمنح الهُويَّة الفرعية. وهكذا فإنه كلما تعرَّض ما يقف عليه الناس من أرضيات مشتركة للانكماش بحث الناس عن خصوصياتهم، وانحسر اهتمامهم بكلِّ ما هو عامّ من شؤون البلاد والعباد.

٥ - محددات الهُويَّة من الأمور الرجراجة والغامضة؛ ولهذا فإن الإعراض عن الحديث عنها هو الأصل لدى معظم الشاكّين من المخاطر التي تُهدِّد الهُويَّة، والمشكل أننا لا نستطيع معرفة مسألة انكماش الهُويَّة عند توسع التعددية إلا من خلال فهم مقومات الهُويَّة عامَّة والهُويَّة الإسلامية خاصَّة، ولهذا فإني أودُّ أن أقول: إن من الواضح أن في كل هُويَّة عناصر ثابتة وعناصر قابلة للتحول، وهذا هو بالضبط ما يساعدها على التكيف والاستمرار، إنها مثل الإنسان يمرُّ بمراحل الطفولة والشباب والشيخوخة، ويكتسب في كل مرحلة ملامح جديدة، لكن الفرد

يبقى هو هو بما في شخصيته من معتقدات وثوابت وألوان وهيئات... **أعتقد أن من ثوابت الهوية الإسلامية على الصعيدين الاعتقادي والعملي الآتي:**

أ - أركان الإيمان وأركان الإسلام ومعرفة ما هو معلوم من الدين بالضرورة والتسليم به.

ب - الدنيا دار ابتلاء واختبار وعبور والآخرة هي دار القرار.

ج - المسلمون أينما كانوا إخوة ويتمنَّون لبعضهم الخير، ويؤازرون بعضهم بما هو ملائم، وتطلعاتهم الكبرى في نشر الإسلام وتعميم الخير وعمارة الأرض واحدة.

د - يشعر المسلم بالانتماء للتاريخ الإسلامي: يفخر بإنجازاته، ويتألم لهزائمه، وهو حين يمارس النقد للتاريخ، والواقع الإسلامي يمارسه بدافع الشفقة، ويقف مع إخوانه المسلمين في ذلك على أرضية واحدة.

هـ - المسلم الملتزم يحب العربية، ويحاول تعلم شيء منها.

ز - يتآلف المسلم مع مجتمعه، ويخضع لأعرافه الصالحة.

ح - نظرة المسلم للقيم مرتَّبةٌ وفق روح الشريعة ومقاصدها العامة، فالستر - مثلًا - في نظر المسلمة مقدَّم على الجمال؛ ولهذا فإنها تتزين في إطار الستر وأحكام الشريعة. وقيمة الدين والنفس أعلى من قيمة المال، ولهذا فإنه تتمُّ التضحية بهما من أجله، وهكذا...

إن تحديد ثوابت الهُويَّة وتغيراتها يظلُّ أمرًا خاضعًا للاجتهاد والتقدير الشخصي، والمقاربة تكفي في هذا. تشتمل الهُويَّة إلى جانب الثوابت على بعض المكونات الرخوة التي يتنازل الناس عنها بسهولة وتكون عرضة للتغير بسبب تغير الذائقة الثقافية للناس وبسبب حدوث معطيات ومتطلبات جديدة، ولك أن تنظر إلى التطور

الذي طرأ على أشكال الملابس، وكيف استساغ كثير من الناس اليوم كشف أجزاء من البدن كان مجرد التفكير في كشفها من جملة المحرّمات؛ ومعظمها يتصل بالعادات والتقاليد والفنون مما يتعلق بالحركة اليومية ومتطلبات المعاش، ومما يتعلق بأشكال التعبير خلال التواصل الاجتماعي، وهي في الحقيقة تفوق العدّ والحصر.

هذا يعني أن ما يعدّه الناس جزءًا من هُوِيَّتهم أو ذواتهم الثقافية في مرحلة من المراحل، قد يتخلصون منه في مرحلة لاحقة، وما كانوا ينظرون إليه على أنه ثانوي قد يصبح أساسيًا وهكذا....

٦ - في أوقات الأمن والاستقرار يتأنق الناس في تجسيد هوياتهم في كل مفردات حياتهم، ويشعرون بنوع من النشوة، وهم يفعلون ما يعتقدون أنه شيء جميل أو شيء يجب أن يُفعل، لكن الأمر لا يكون كذلك في أوقات الشدة؛ حيث يكونون على استعداد لفعل ما يُجمعون على حُرمته أو قبحه، وذلك من أجل دفع ظلم أو الحصول على حقٍّ، أو استرداد كرامة مسلوبة، أي إن الناس ينظرون إلى هُويَّاتهم على أنها مركبة من مقومات متفاوتة في القيمة والأهمية، ولهذا فإنهم ينتهكون حرمة بعضها، أو يخالفونه على نحو صريح، وهكذا اقتتلت - وما زالت تقتل - فئات من المسلمين بسبب ظن فئةٍ أن فئةً أخرى استأثرت بالسلطة أو الأرض أو الماء...، كما اقتتل مسيحيون ووثنيون للأسباب ذاتها مع وجود إجماع على حرمة الدماء وفظاعة إزهاق الأرواح، وهكذا فقد اقتتل المسلمون في صدر الإسلام، ويقتتلون اليوم في عدد من البلدان الإسلامية، وقد اقتتل الهوتو والتوتسي في رواندا مع أنهم جميعًا كاثوليك ويتكلمون لغة واحدة... إن من عادة الناس أن يختصروا الهُويَّة بكل مقوماتها في

مقوِّم واحد، وهو المقوِّم المهدَّد بالفناء، تمامًا كما يفعلون حين يعرضون بعض أجزاء أجسادهم للخطر من أجل الدفاع عن أجزاء أخرى.

٧ - أستطيع القول: إن التقدم الحضاري والعمراني لا يعمل لصالح تعزيز الهُويَّات، وإنما يعمل لصالح (التعددية) أي في اتجاه اختزال الهُويَّة والنزوع بها نحو الكونية والتشابه، **وأودّ أن أشرح هذا المعنى عبر المفردات الآتية:**

أ - في البيئات الأقل نموًّا تسود النمطية والانغلاق، ويكون التواصل مع العالم الخارجي محدودًا أو قائمًا على الكثير من الأوهام، وفي أحوال كهذه يتم تضخيم (الهُويَّة) وتحويل كثير من مكوناتها المتحركة إلى مكونات ثابتة، وهكذا فغطاء الرأس للرجال يصبح جزءًا من الهُويَّة، ومثله سكن الرجل في دار أبويه بعد زواجه بالإضافة إلى أشكال علاقة الصغار بالكبار... ومع التقدم الحضاري يحدث انفتاح أكبر، وتتسع مساحة الحرية الشخصية، ويتضاءل تدخل الناس بعضهم في شؤون بعض، ويحدث نوع من الانكفاء على الذات، وفي أحوال كهذه يضعف سلطان العادات والتقاليد على توجيه السلوك الشخصي، وهذا يُخرج كثيرًا منها من مقومات الهُويَّة.

ب - مع التقدم الحضاري تصبح معرفة الناس بمصالحهم أعظم وأقوى، ويصبحون أكثر واقعية، وهذا كثيرًا ما يكون على حساب شعورهم بهُوياتهم؛ وذلك لأن الهويات تنزع إلى الثبات والجمود في معظم الأحيان؛ حيث إن هوية الفرد - وكذلك الأُمَّة - هي أشبه بالبصمة الشخصية وحين ينفتح الإنسان على الواقع ويلتفت إلى تحقيق مصالحه، فإنه يصبح أشد مرونة وقابلية للتغير، ونجد هذا واضحًا فيما لا يحصى من العادات والتقاليد، فابن المدينة - مثلًا - يكون أعظم جرأة على التنويع في أزياء الثياب التي يرتديها من ابن القرية وابن البادية، ويُظهر قدرة أكبرعلى التخلِّي عن

كثير من العادات المُكلِّفة، وعلى سبيل المثال فإن حفلات الأعراس قد تمتد إلى ثلاثة أيام أو أسبوع في بعض القرى، على حين أن أبناء المدن قد يختصرونها إلى لقاء يجمع الحلقة الضيقة من الأقرباء، ويمتد إلى ساعتين أو ثلاث ساعات!

ج - من الواضح جدًّا أن كلَّ البلدان التي نالت حظًّا من التحضُّر صارت أشد مراعاة للمعايير العالمية في مسألة حقوق الإنسان وإعطاء الإثنيات والطوائف والأقليات المزيد من المساحة للتعبير عن معتقداتها ورمزياتها وخصائصها، وهكذا نجد أن (اللغة) في بعض الدول لم تعد أحد مقومات الهوية؛ لأن المعتمد رسميًّا فيها هو لغتان أو ثلاث لغات، ونجد أن الدين في بلدان أخرى لم يعد أحد مقومات هوياتها؛ لأن الدولة تعترف رسميًّا بأكثر من دين، أو لأن دستور الدولة لا يتعرض أساسًا لمسألة الدين، وفي هذه الحالة قد نجد في البلد الواحد عشرات الطوائف التي تعبر بطريقةٍ مَا عن معتقداتها وتقاليدها.

د - كلما مضى الناس في طريق التحضُّر صاروا أشد تسامحًا حيال الانقسام والانصهار الاجتماعي؛ وذلك بسبب ضعف إحساسهم بهُويَّاتهم وخصوصياتهم العرقية والدينية، ويصبح لدى المتدينين والملتزمين قناعات عميقة بضرورة الاقتصار على جوهر الهُويَّة، والرضا بأقل قدر ممكن من تجسيد ذلك الجوهر، وهذا يوسِّع مساحات التشابه بين مكونات المجتمع المختلفة، وهكذا نجد أن من المألوف في بلد كالولايات المتحدة الأمريكية أن نجد من المسلمين من يَستأجرون إحدى الكنائس ليؤدوا فيها صلاة الجمعة. أنا هنا لا أصدر الأحكام على ما أُورِده، وإنما أحاول شرحه وتوضيحه ليس أكثر.

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - إن ما نشاهده ونسمعه من التحذير من طمس الهوية الإسلامية بل من البكاء على أطلالها في بعض الأحيان لا يُجدي نفعًا، وليس له أي ثمرة عملية، ولعلَّ الأنجع من ذلك هو القيام بتحديد الأجزاء الصلبة من هُويَّتنا، أي تحديد ما لا يصح بحال من الأحوال تجاهله أو إهماله، ثم بذل الجهد في توفير البيئات، والمعطيات التي تساعد على حضوره والالتزام به.

٢ - الإسلام أقام توازنًا دقيقًا بين الفرد والجماعة، وهذا اقتضى توسيع مساحات الابتكار والتجديد الاجتماعي، وهو بدوره يقتضي عدم توسيع دوائر الهُويَّة، وهذا واضح جدًّا في أحوال البلدان التي افتتحها العرب؛ حيث إنهم لم يحملوا الشعوب التي دخلت في الإسلام على التخلِّي عن لغاتهم وعلى تكلم العربية، كما أن الإسلام لم يحدد أشكالًا معينة للملابس التي على المسلمين أن يلبسوها، ولم تنص الأحكام الفقهية على ضرورة الالتزام بأشكال معينة للتعبير عن الأفراح والأحزان إلا في أضيق الحدود، وهذا هو المسلك الراشد والمتقدم في التعامل مع الهُويَّة على خلاف ما نشاهده اليوم من بعض الشباب الغيور والمتحمس؛ حيث ثبت أن مسائل الهُويَّة تظلُّ مرتعًا خصبًا للأوهام والجدل.

٣ - المطلوب دائمًا أن نتعلم كيف نحافظ على هُويَّاتنا مع احترامنا للتعددية؛ لأن رعاية التوازن بين الهُويَّة والتعددية هو الذي يساعد على استقرار المجتمع وعلى تمسكه بهُويَّته على المدى البعيد، وأعتقد أن من خير ما يساعد على ذلك بث ثقافة التسامح والاحترام المتبادل والنهوض بالأوطان؛ لتصبح جذابة للعيش فيها مع إشاعة العدل وتكافؤ الفرص.

٤ - حين تشعر الأقليات بالخوف من العدوان على هُويَّاتها، فإنها تزداد تمسكًا بتلك الهُويَّات؛ بل إنها تنفخ فيها لتجعل منها أدوات لتقسيم المجتمع وإيجاد الفتن والاضطرابات، ومن هنا فإن على الأكثرية أن ترسل إلى الأقليات برسائل الطمأنة، وأن تساعدها على نيل حقوقها، وممارسة خصوصياتها.. إن من المهم أن ندرك دائمًا أن مسائل الهوية والتعددية من المسائل الحساسة، ويجب التعامل معها بحذر ورفق وبقدر من المصارحة والمكاشفة.

●●●●

26

الحرمان من الضروريات
يدمِّر الاهتمامات الثقافية العليا

هي... هكذا

26 الحرمان من الضروريات يدمِّر الاهتمامات الثقافية العليا

هندسة الإنسانِ تدل على عظمة خالقه، والتأمل في تلك الهندسة يكشف عن الكثير من الأسرار والأمور المبهرة؛ حيث إن الله - تعالى - منحنا الوجود وأتاح لنا من الموارد والنظم ما هو ضروري لاستمرارنا في الحياة، وابتلانا بما وراء ذلك مما يدخل في حيز الارتقاء في معارج الكمال. إن حركة الرئة والقلب والمعمل العظيم (الكبد) وأنشطة جهاز الهضم... كل ذلك يعمل خارج نطاق الوعي والإرادة، ونحن في هذا لا نختلف عن الحيوان اختلافًا يُذكر.

الخالق - جلَّ وعلا - فَطر الإنسانَ على الحاجة والاشتياق إلى الطعام؛ كي يبقى حيًّا على الصعيد الفردي، وفطره على الحاجة

والاشتياق إلى الاتصال الجنسي؛ كي يبقى بنو آدم مستمرين في الحياة على صعيد النوع، وجعل الحصول على ذلك مشوبًا بالمتعة حتى يُقدم الناس على هذا وذاك برغبة واندفاع قوي، وحتى يتحملوا تكاليفهما. إن حاجات الإنسان إلى الهواء والماء والطعام ليست هي الحاجات الوحيدة، إنه محتاج أيضًا إلى الثياب والسكن، ولكن هذه أعلى مرتبة من سابقتها؛ لأن معظم الحيوان لا يحتاج إليها. الله - سبحانه - كرَّم الإنسان وسخَّر له ما في السموات والأرض، واستعمره في الأرض وزوَّده بالكثير من أدوات التقدم والارتقاء، ولهذا فإنه حتى يحقِّق وجوده، وينمو النمو الذي يليق به يحتاج إلى أمور غير الطعام والشراب واللباس... إنه في حاجة إلى أن يعيش في جماعة، وفي حاجة إلى من يقدِّره ويحترمه ويشجعه، كما أنه في حاجة إلى الشعور بالتفوق والإنجاز عن طريق الابتكار والإبداع والإنتاجية العالية، وقد تناول (إبراهام ماسلو) هذه الحاجات ورتّبها في هرمه المشهور، وقد نالت نظريته نوعًا من القبول العام، ونالها شيء من النقد.

● جوهر هذه السنة:

١ - الغرائز قوى بيولوجية داخلية تدفع المرء إلى السلوك بطريقة معينة، وهذه الغرائز أكثر وضوحًا لدى الحيوان؛ حيث إنه يتوارثها عبر السلالات عن طريق الحامض النووي الموجود داخل الخلية. الغريزة - والتي هي عبارة عن دوافع وحاجات مُلحَّة وضرورية - تكون ظاهرة لدى الحيوان على نحو سافر؛ لأنه لا يملك ما يساعده على كبتها أو تأجيلها، ولا يعرف ما يحتاجه من المخاطرة من أجل إشباعها، أما الإنسان فإن غرائزه تلحّ عليه كما تفعل غرائز الحيوان، لكنه يتعامل معها بطريقة

مختلفة، إنه يستطيع تأجيلها إلى أمدٍ كما يفعل الصائم في نهار رمضان، كما أنه يستطيع الانشغال عن بعضها بما هو أسمى كما يفعل الشاب الملتزم حين يؤخر زواجه ثلاث سنوات أو أربع من أجل الانتهاء من دراسته، وكما يفعل السجين حين يُضرب عن الطعام أسابيع احتجاجًا على الظلم أو سوء المعاملة من سجَّانيه.. إنِ تمتع الإنسان بالعنصر الروحي والإرادة الحُرَّة، وتمتعه بالقدرة على الموازنة بين العاجل والآجل... يجعله يتحكم بغرائزه على نحو لا يعرفه الحيوان.

٢ - حاجة الإنسان إلى الهواء تأتي في المقام الأول ثم الطعام ثم الماء؛ حيث لا يمكن أن يستمر بدونها على هذه الأرض، ويأتي بعدها في الإلحاح حاجته إلى التواصل الجنسي وحاجته إلى الأمن، وهذه الحاجات حين لا تتم تلبيتها على نحو مقبول، فإن الإنسان يظلُّ مشدودًا إلى التفكير فيها، وهذا منطقي.

إن فقد الطعام والشراب والهواء ليس وحده هو الذي يهدد حياة الإنسان؛ فهناك المخاطر التي تحيط به من كل جانب، ولهذا فإن هاجس (الأمن) يسيطر عليه سيطرة تامَّة في كل مراحل حياته.

٣ - نستطيع القول: إن كثرة حاجات الكائن الحي دليل واضح على اتساع مدارج الكمال التي يدرج فيها، ومن هنا نجد أن حاجات الحيوان تتوقف عندما يؤمِّن البقاء على مستوى الفرد أو النوع، وتلك الحاجات تتسم بالغائية، فهي ليست وسيلة لشيء بعدها؛ لأنه لا شيء بعدها، أما الإنسان فإن ما يؤمِّن له البقاء، يأخذ دائمًا طابع الوسيلة؛ حيث إنه يولد ناقص الإنسانية، إذ إنه عند ولادته لا يملك اللغة ولا العواطف ولا معايير الصواب والخطأ، وهو يحتاج إلى العيش في أسرة ومجتمع كي يكتسب كل ذلك. ويجب أن نقول: إن كلَّ الناسِ يكتسبون ما ذكرناه، لكن

ليس كل الناس ينالون الاحترام والتقدير، فهناك من يعامَل على أنه عبد رقيق أو أشبه بالرقيق، وهناك من تُكسر إرادته، ويُقهر يوميًّا مرات عديدة على ما نراه واضحًا جليًّا في كل مكان..

٤ - الجشع إلى قضاء المزيد من الحاجات والاستمتاع بالمزيد من المرفّهات وتحقيق المزيد من الأهداف والتطلعات... من السمات الملازمة للإنسان مع وجود الكثير من الفوارق على هذا الصعيد، ومن هنا نلاحظ أن الإنسان بعد أن يشعر بالطمأنينة على بقائه، ويشعر بالأمن تجاه ما يعتبره حيويًّا بالنسبة إليه، وبعد أن ينال ما يستحقه من تقدير واحترام ومكانة اجتماعية، بعد كل هذا يتطلع إلى الشيء الأخير، وهو تحقيق الذات والتميز والابتكار والإبداع، ومحاولة تسنم ذرى المجتمع وقيادته إلى جانب السعي إلى حيازة أكبر الثروات وتحقيق أعلى درجات النفوذ والسيطرة، هذا هو المبتغى الأخير للإنسان على نحو عام.

للإنسان المسلم الصالح طموحٌ يتجاوز طموحات الإنسان العادي وطموحات الإنسان المُلحِد، إنه ينظر باختصار إلى كلّ إنجازاته وكل مكتسباته على كلّ الأصعدة على أنها وسيلة لشيء أخير هو الفوز برضوان الله - تعالى - ولِمَ لا والدنيا في نظره ما هي إلا مزرعة للآخرة، وبهذا يكون من يسعى إلى الآخرة قد ارتقى درجة فوق مَن كلُّ طموحاته محصورة في الدنيا. ونحن نلاحظ هنا أن الإنسان والحيوان يلتقيان على صعيد واحد هو صعيد الحاجات الأساسية أو ما سمَّيناه غرائز البقاء؛ حيث يتوقف الحيوان عندها على حين أن الإنسان يمضي في اكتشاف حاجاته وتلبيتها مسافات بعيدة جدًّا، والشيء الذي أودُّ أن أشير إليه هو أن محددات الغريزة وإملاءاتها صارمة وشاملة، أما متطلبات الوعي والثقافة والتربية فهي مرنة وخاصَّة:

إن كل من يعطش يبحث عن الماء، ولكن ليس كل من يجهل أمرًا يبحث عن معرفته، ولهذا فإننا كلما ابتعدنا عن نطاق الغرائز نحو الحاجات الأقل إلحاحًا ونحو الكماليات وجدنا تفاوتًا أكبر بين البشر؛ حيث يزداد تدخل ما نكتسبه في تلوين المشهد الإنساني.

٥ - البشر على اختلاف مستوياتهم وانتماءاتهم مجمعون على أنه من غير المفهوم والمقبول الانشغال بما هو اجتماعي أو ما هو من قبيل تحقيق الذات أو المنافسة على بعض المرفّهات... ما دام وجود الإنسان مُهدَّدًا؛ ولهذا فإنك سوف تضحك أو تُدهش أو تُصدَم حين ترى شخصًا يتأمل في لوحة زيتية بديعة وبيته يحترق أمام عينه، وحين ترى شخصًا يقترض المال الكثير من أجل القيام برحلة للاطلاع على آثار دولة من الدول، وحين ترى شخصًا يريدون بتر رجله، فاشترط أن يكون المنشار ذهبيًّا!!

٦ - حين يشعر المرء بالعجز عن تأمين قوته الضروري، ويشعر بالعجز عن إيجاد مسكن يؤويه، ويشعر بالخوف الشديد من بطش من حوله وتستمر هذه المشاعر مدة طويلة يكون في الحقيقة بمنأى عن الاهتمام بكلٍّ ما يتصل بالثقافة العليا، تلك الثقافة التي تتصل بـإغناء العقل والذوق والرفاهية وكل ما هو كمالي، إن ما هو فيه من بلاء وكرب يوقع وعيه في ارتباك شديد، فتختلط عليه الأمور، ويصاب بدرجة عالية من العزوف عن التطلع إلى المشاركة الاجتماعية أو الارتقاء في سلّم الحضارة، إنه يرى الأشياء على غير ما هي عليه، ولا يتعامل مع كثير مما يراه على نحو صحيح. ويمكن القول إن الحرمان من إشباع الغرائز الأساسية يمنع الإنسان بالإضافة إلى ما ذكرناه من الأمور الآتية:

أ - التقييم الإيجابي للإمكانات الشخصية إلى جانب نظرة سوداوية للحياة والأحياء؛ حيث يكون التشاؤم هو سيد الموقف.

ب - الشعور بالنمو والتقدم وتجاوز الصعاب.

ج - الشعور بأن حياته هادفة، وأن ما يسعى إلى تحقيقه يستحق التعلم وبذل الجهد.

د - الاهتمام بإقامة علاقات جديدة مع الآخرين أو إصلاح العلاقات المُتهدِّمة.

هـ - الشعور بالقدرة على التأثير في حياة الآخرين أو قيادتهم.

و - اكتشاف المواهب الشخصية والعمل على صقلها.

ز - الاهتمام بالتفاصيل والتنظيم والتنسيق المتقدم وكل ما هو من قبيل التأنُّق.

ح - الاهتمام بالعمل التطوعي والخيري ومساعدة من يحتاج إلى مساعدة.

إن الإنسان حين يُحرَم من شيء أساسي لبقائه كالطعام -مثلًا- فإنه لا يُحرم من التطلع إلى ما هو راقٍ وفاخر فحسب، وإنما قد يسوِّغ لنفسه ارتكاب الفظائع، وقد يظهر منه من أشكال التوحش ما لا يظهر من أي حيوان مفترس! ولا بد من القول: إن هذه الأحكام عامَّة، وهناك دائمًا من يتعالى على جراحه، وينسى آلامه؛ ليفعل ما يفعله الذين أشبعوا كل غرائزهم، لكن هذه الفئة تظلّ محدودة لتمثل الشذوذ الذي يؤكِّد القاعدة.

● نموذجان تطبيقيان:

١ - روي في أسباب نزول قول الله - تعالى -: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[٣١]: « أن

٣١ - سورة الجمعة: ١١.

رسول الله ﷺ كان يخطب الجمعة فمرَّتْ عِير تحمل الطعام، فخرج الناس إلا اثني عشر رجلًا، فنزلت آية الجمعة »[٣٢]، قال المفسرون: أصاب أهلَ المدينة جوعٌ وغلاء سعر، فقدم دحية الكلبي في تجارة من الشام، وضُرب لها طبلٌ يؤذِن الناس بقدومه ورسول الله ﷺ يخطب الجمعة، فخرج إليه الناس، فلم يبقَ في المسجد مع رسول الله إلا اثنا عشر رجلًا، منهم أبو بكر وعمر، فقال النبي ﷺ: « **والذي نفسي بيده لو تتابعتم حتى لم يبقَ أحد منكم لسال بكم الوادي نارًا** ».

إن الاختبار كان شديدًا؛ حيث إن المدينة كانت تمرُّ بظروف صعبة: جوع وأسعار مرتفعة، وإن مجيء قافلة إلى مدينة كالمدينة المنورة لن يحل الإشكال؛ حيث إن المواد التموينية الواردة لن تكفي جميع أهل المدينة، وربما يتمُّ بيعها خلال مدة قصيرة، مما جعل معظم مَن في المسجد يتركون رسول الله ﷺ قائمًا يخطب، وينصرفون إلى تلك القافلة، وفي هذا إحراج للرسول، ولهذا كان التهديد شديدًا، وقد تجلَّت السُّنَّة التي نحن بصددها هنا على نحو واضح؛ حيث إن الجوع الذي كان في المدينة جعل من محاولة شراء شيء من الطعام الذي كان في القافلة أمرًا مُلحًّا لمعظم الناس مما حملهم على الخروج من المسجد قبل فراغه من خطبته، وفي هذا مسايرة للضرورة وتساهل تجاه أمر حساس، هكذا هو الإنسان حين يوضع في ظرف صعب.

٢ - اجتاحت مصر في آخر القرن السادس الهجري مجاعة شديدة دامت قُرَابة سبع سنوات، وقد تحدَّث عنها عدد من المؤرخين بالتفصيل، وكان من جملة ما قاله ابن كثير في البداية والنهاية عن أحداث سنة (٥٩٧هـ): « فيها اشتد الغلاء بمصر

---

٣٢ - رواه مسلم.

جدًّا، فهلك خلق كثير جدًّا من الفقراء والأغنياء، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة في (الذيل) أن (العادل) كفَّن من ماله في شهر من هذه السنة نحوًا من (مئتين وعشرين ألفًا، وأُكلت الكلاب والميتات فيها بمصر، وأُكل من الصغار والأطفال خلقٌ كثير، يشوي الصغيرَ والداه، ويأكلانه، وكثر هذا في الناس جدًّا حتى صار لا يُنكَر بينهم، فلما فرغت الأطفال والميتات غلب القويُّ الضعيفَ، فذبحه، وأكله، وكان القوي يحتال على الفقير، فيأتي به ليطعمَه، أو ليعطيه شيئًا، ثم يذبحه ويأكله، وكان أحدهم يذبح امرأته، ويأكلها، وشاع هذا بينهم بلا إنكار ولا شكوى، بل يعذر بعضهم بعضًا... وهلك كثير من الأطباء الذين يُسْتدعون إلى المرضى، فكانوا يُذبَحون ويؤكلون، كان الرجل يستدعي الطبيب، ثم يذبحه ويأكله... »[٣٣]، قد لا يخلو هذا الكلام - وأشباهه مما ساقه بعض المؤرخين - من المبالغة أو عدم الدقة، لكن لو صح (١٠٪) منه لكان مؤشرًا كافيًا إلى ما أزعمه من أن التقدم الحضاري الذي أحرزته البشرية عبر قرون ليس أكثر من قشرة رقيقة، يربض تحتها وحش كاسر، ينتظر الفرصة المواتية للوثوب، إنه الرهان على البقاء وعمل أي شيء ممكن من أجله!

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ - سيطرة الغرائز على البشر هائلة، وفيها حكمة بالغة؛ لأنها شرط لاستمرار البشر، وفيها أيضًا ابتلاء، فنحن نرتقي على مقدار ما ننجزه من توسيع المساحة بيننا وبين الحيوان، وهذا يحتاج إلى الكثير من العمل.

---

٣٣ - البداية والنهاية: ١٣ - ٢٧.

٢ - التعامل مع هيمنة الغرائز على السلوك يسلك مسارين:

أ - مسار إشباع الغرائز في إطار المباح وإطار الاعتدال؛ حيث إن زواج الشاب والشابة يشكل ضمانًا قويًا لسلوكهما سبيل العفة، ونتائجه أفضل بكثير من الاقتصار على حثّهما على الاستقامة الخلقية.

ب - مسار إعلاء اهتمامات الفرد المسلم ليتجه إلى الانشغال بالأمور السامية على مستوى التفكير والعاطفة والسلوك؛ فالشاب الذي يمارس الدعوة، أو ينخرط في عمل تطوعي، أو في برنامج ممتاز للارتقاء بالذات، هذا الشاب يبني حول نفسه خطوطًا دفاعية، ويحفر خنادق عميقة تحول بينه وبين الانحطاط الخلقي، وتساعد على كبح غريزة العدوان لديه.

٣ - هناك ثلاث جهات مسؤولة عن صياغة الشخصية وتوجيه الاهتمامات وبناء الحصانة الأخلاقية، وهذه الجهات هي الأسرة والمدرسة والإعلام، وهي جميعًا مطالبة بتوعية الناشئة حول العديد من الأمور، منها كيفية إشباع الغرائز في نطاق المشروعية والاعتدال، ومنها كيفية التكيف مع الظروف الصعبة على نحو إيجابي إلى جانب التوجيه نحو الارتقاء بالحاسة الثقافية لديهم عن طريق زرع الاهتمام بالعمل الخيري والدعوي والخدمة الاجتماعية والقراءة وعن طريق الارتقاء بحواسهم الفنية من خلال التشجيع على الرسم وزيارة المتاحف وكتابة القصة والرواية وإثراء الساحة الثقافية.....

٤ - كل ما نقوله في كفَّة، وتحسين الظروف العامَّة في كفَّة أخرى؛ فالمرء - كما أشرنا - لن يفكر في المساهمة في مشروع لمساعدة العُزَّاب على الزواج، وهو يتضور جوعًا، ولن يشتري كتابًا قيمًا، أو يحضر دورة تربوية، وهو يمشي حافيًا.. وأود

بهذه المناسبة أن أشير إلى أن كثيرًا من البلدان الإسلامية بات يعاني من تباعد المسافة بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا بسبب تضاؤل (الطبقة الوسطى) حيث إن سوء التخطيط وانتشار الفساد إلى جانب التعليم الضعيف وعوامل أخرى جعلت الطبقة الفقيرة وغير المتعلمة تعليمًا جيدًا تشكل الشريحة الأكبر من المجتمع إلى جانب شريحة ضيقة جدًّا من الأثرياء المترفين، والمطلوب هو أن تكون الطبقة المتوسطة هي عماد المجتمع لتحتل نحوًا من (٧٠٪) منه على الأقل؛ لأن كثيرًا من الدراسات والبحوث يشير إلى أن هذه الطبقة تقدِّر النظام والقانون، وتحرص على حفظ الأمن والاستقرار، كما أن أبناءها يحرصون على الالتحاق بالجامعات، ويطالعون الصحف والمجلات، ويؤمنون بالتعددية في الحياة الثقافية، كما أنهم يملكون الكثير من الطموح نحو الارتقاء والتقدم.... إن الحكومات مطالبة بسَنِّ الكثير من القوانين والقيام بالكثير من الإجراءات وإقرار الكثير من السياسات التي تساعد على توسيع مساحة الطبقة الوسطى في المجتمع، وهذا ما تفعله دول كثيرة مثل الهند واليابان وغيرهما...

٥ - من الثابت والواضح ندرة الذين يتحركون بعد إشباع غرائزهم ليكونوا في الطبقة الخامسة من الهرم: طبقة الإبداع والابتكار والتفوق وتحقيق الذات. إن هؤلاء قد لا يصلون إلى (١٪) من أبناء المجتمع، ولهذا أسبابه العديدة، ويحتاج تكثير هؤلاء إلى أن يحتل التحفيز والتوعية بالشأن الشخصي وبثّ الأمل والتفكير الإيجابي.. مكانًا مرموقًا في مناهجنا التربوية والتعليمية والتدريبية.

27

المبادئ...
لا تعمل في فراغ

هي... هكذا

27 المبادئ... لا تعمل في فراغ

في كلِّ مجتمع مجموعة من القيم والمبادئ التي نالت درجة حسنة من احترام الناس واتفاقهم، وتلك المبادئ توجِّه حياة الناس، وتشكل أرضية عامَّة تجمعهم، وتوحد بينهم، كما أنها تعدّ في نظرهم معايير يُحتكم إليها في الحكم على السلوك العامّ؛ حيث إن المُربّين في المدارس يرشدون الناشئة إلى التمسك بالقيم والأخلاق الإيجابية، ويحذرونهم من الأخلاق والسلوكيات السيئة، ومن المهم هنا أن نوضح أن احترام الناس لبعض المبادئ لا يعني أنهم يخضعون لها في سلوكياتهم ومواقفهم على نحو آلي، وفي كل الظروف، إن هذا بعيد عن الحقيقة؛ حيث إن القيم والمبادئ العظيمة لا تفرض نفسها على الناس، ولا تملك من القوة الذاتية، ما يجعل

تشكيلها للسلوك أمرًا مفروغًا منه، والناس لا يتفاعلون معها على أنها مفاهيم صافية وحاسمة، وإنما يتفاعلون معها في إطار بعض الشروط والظروف الخاصَّة، ونحن نعرف أن الله ﷻ لم يُنزل أي كتاب سماوي على البشر على نحو مباشر، وإنما يوحي بالكتاب إلى رسول، والرسول يقوم بتبليغ ذلك الكتاب للناس، ويجعل من سلوكه ومواقفه النموذج التطبيقي لما قام بتبليغهم إيَّاه، كما أنه إلى جانب ذلك يوضِّح لهم ما يضطرهم إلى عدم الالتزام بها، وما يمكن أن يشتبك معها من عادات ومواضعات اجتماعية.

● ولعلِّي أوضح في هذا الإطار الأمور الآتية:

١ - يعاني العقل البشري معاناة كبيرة في فهم المعنويات وفهم كل ما هو من قبيل الصفات (الكيوف)، ولهذا فإنه يصعب عليه فهم ما هو مراد بدقة من حديثنا عن مبدأ بعينه أو قيمة محددة ما لم تكن مُجسَّدة في واقعة أو سلوك أو موقف.. وبمجرد أن تتحدث عن التجسيد، فهذا يعني أنك تتحدث عن شيء سببي؛ حيث إن الإنسان حين يحاول تنفيذ خطة أو الالتزام بقيمة أو مبدأ يجد أنه مقيَّد في ذلك بقيود الزمان والمكان والظروف والإمكانات مما يجعل سيطرته على ما يريد القيام به منقوصة، هذا شخص يقول: سألتزم التزامًا صارمًا بمبدأ: (عدم تأخير عمل اليوم إلى الغد) وفي ذات يوم أراد أن يسلم إلى مديره دراسة وعده بها، أو كان عليه أن يذهب إلى طبيب الأسنان أو مدرسة ابنه، لكن شيئًا من ذلك لم يحصل بسبب قدوم ضيف عزيز من خارج البلد، أو بسبب مرضٍ ألمَّ به، أو بسبب أنه تذكَّر شيئًا هو أهم لديه من كل ما ذكرناه... هذه الأمور المفاجئة تختلف في كثرتها وقلَّتها وفي

أهميتها من شخص إلى آخر، ومن هنا فإن التزام أي واحد بأي مبدأ يؤمن به هو التزام نسبي ومنقوص، وهذا يعني فعلًا أن للظروف المحيطة قدرًا كبيرًا من التأثير في الالتزام بالمبادئ وفي توجيهها للسلوك. ولك أن تتأمل في قول الله - تعالى -: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾[٣٤]؛ حيث ورد في سبب نزول هذه الآية أن بني المغيرة أخذوا عمار بن ياسر رضي الله عنه فغطوه في بئر، وقالوا: اكفر بمحمد، فتابعهم على ذلك، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال له: « **كيف تجد قلبك؟** » قال: مطمئنًا بالإيمان، فقال له ﷺ: « **فإن عادوا فعد** »[٣٥].

٢ - المبادئ لا تعمل في فراغ مفاهيمي أو سلوكي، ففي كل شبر مسكون من الأرض أعراف وعادات وتقاليد تتحكم بسلوك الناس على نحو صارم؛ حيث إنهم ينظرون إليها على أنها جزء من عقد اجتماعي غير مكتوب بين الفرد ومجتمعه، وهذه الأعراف والتقاليد تلقى من المراعاة لدى كثير من الناس أكثر مما تلقاه الشرائع والقوانين؛ وذلك لأن المجتمع بكلِّ فئاته يقف حاميًا لتلك الأعراف.. ومدافعًا عنها ومراقبًا لسلوك أبنائه تجاهها، ومن هنا فإننا نجد أن الناس في البيئات الضيقة أشد التزامًا بها بسبب معرفة الناس بأحوال بعضهم بعضًا واطلاعهم على جُلِّ شؤونهم، فكيف سيعمل المبدأ حين يكون مصادمًا لعرف من الأعراف أو تقليد من التقاليد؟ في المدن الكبرى تخف الرقابة الاجتماعية مما يجعل التزام الناس بالمبادئ والقيم نابعًا من قناعة واختيار حُرّ، ولهذا فإن الناس يكونون فيها أشد التزامًا بما يؤمنون به، أما في القرى فالخوف على السمعة الشخصية والحرص الشديد على

---

٣٤ - سورة النحل: ١٠٦.

٣٥ - رواه ابن سعد في الطبقات.

التماسك الأهلي والخشية من النبذ الاجتماعي... كل ذلك يجعل خضوع الناس للأعراف والتقاليد أشد وأوسع، ولدينا على هذا ما لا يحصى من الأمثلة والشواهد، وعلى سبيل المثال فإن الشريعة الغراء قرَّرت حُرمَة (الزنا) لكن معظم المجتمعات الإسلامية - وغير الإسلامية - تجرِّم جنوح الفتاة، وتتشدد في الحكم بشناعته أكثر مما تفعله مع الشاب؛ وذلك لأن معظم الأمم تنظر إلى المرأة على أنها مناط شرفها. والإسلام حثَّنا على العمل، وجَعَل الكسب من عمل اليد وعرق الجبين من أفضل الكسب، لكن بعض المجتمعات تفضِّل للمرء أن يجلس باطلًا عن العمل، أو يقترض من غيره أو... على أن يعمل في بعض المهن (كالحلاقة والجزارة والحدادة...) ومعظم المجتمعات الإسلامية لا ترى بأسًا بأن يبحث الرجل عن زوجة إذا ما توفيت زوجته، لكنها تحبِّذ لمن توفي زوجها أن تتفرغ؛ لتربية أولادها ولو كانت في الخامسة والعشرين، مع أن أحكام الشريعة لا تفرِّق بين الحالتين، وهذا واضح.

٣ - تشتبك المبادئ بالمصالح المشروعة اشتباكًا يجعل كثيرًا من الناس حائرين في مسألة الانحياز لأحدهما على حساب الآخر، ولا بد من أن نقول في البداية: إن كل الناس الأسوياء يحاولون تحقيق مصالحهم في إطار مبادئهم أو بالحد الأدنى من الخروج عليها، وهكذا نجد أن اللص الذي دخل أحد البيوت من أجل سرقة الذهب الذي فيه، لا يقوم بقتل أهل البيت إذا حصل على ما يريد من الذهب؛ لأنه يعلم فظاعة جريمة إزهاق الأرواح، لكن كيف ستكون الحال إذا تعرف أهل البيت على اللص، وسجَّلت كاميرات المنزل كلَّ تفاصيل جنايته، وعرف أنه سيترتب على ذلك قطع يده؟ نعم سيختلف حال اللصوص، فمنهم من سيلتزم بمبدأ الكفّ عن

القتل، ويتحمل مسؤولية فعلته ولو كان قطع اليد، ومنهم من سيقتل من أجل إخفاء معالم جريمته، ولهذا شواهد في الواقع لا تحصى، كما لذاك.

٤ - هذه أم تعتقد أن الصدق فضيلة من أعظم الفضائل، وتعتقد أنه منجاة من كثير من المشكلات، وتربي أطفالها على ذلك، ولديها ولد في المتوسط كثير الغياب عن مدرسته، وقد أخبرتها إدارة المدرسة بأنه لم يبقَ لابنها سوى غياب يوم واحد، ويُحرم من دخول الاختبار النهائي، وحدث أن غاب ابنها عن المدرسة من غير أي عذر، ووجدت نفسها بين خيارين أحلاهما مُرّ: خسارة ابنها سنة دراسية كاملة، أو اختلاق عذر غير صحيح لغيابه. معظم الأمهات يحاولن إيجاد عذر؛ لأنه ليس من المعقول في نظرهن حرمان طالب سنة دراسية كاملة من أجل غياب يوم عن المدرسة، وهناك قلة قليلة من الأمهات تلتزم بمبدأ الصدق، وليكن ما يكون. إن الناس يحملون بين جوانحهم إيمانًا عميقًا بكثير من المبادئ والقيم العظيمة، لكنهم في الحياة العملية يشكون منها، ومما يظنونه مصالح لهم عقيدة جديدة، يمكن أن نسميها (العقيدة الاجتماعية) أو (العقيدة العملية) وهكذا نرى أن عمل المبادئ في توجيه السلوك مشتبك بالمصالح المرجوة إلى حدٍّ كبير.

● نماذج عملية:

١ - العدل:

هذا المبدأ من أعظم المبادئ التي أجمعت عليها البشرية؛ حيث إنك لا تجد لدى أي أُمّة ثقافة تحثُّ على الظلم وسلب الحقوق، وحين يجد الناس حاكمًا أو قاضيًا عادلًا بصورة واضحة جدًّا، فإنهم يُقدِّرون ذلك له، ويشيدون به كما فعل المسلمون

مع العمرين: عمر بن الخطاب ﷺ وعمر بن عبد العزيز - رحمه الله - وكما فعلت كل شعوب العالم مع رموز العدل. إن الإشادة بالعدل والعادلين فعلًا ظاهرة عالمية، لكن من المؤسف أن حبَّ العدل والإيمان العميق بأهميته ليسا كافيين لإشاعته، **إن سيادة العدل تحتاج إلى الكثير من الأمور منها:**

أ - قضاء مستقل ونزيه، ومتمكن، وقادر على أن يقول كلمته في أي قضية بقطع النظر عن مكانة المُدَّعي والمُدَّعَى عليه.

ب - قضاء فعال وسريع مع سهولة واضحة في إجراءات التقاضي؛ حتى لا يعرض الناس عن الذهاب إلى المحاكم بسبب تعقيد الإجراءات وطول مدة التقاضي.

ج - إعلام حُرّ قادر على تسليط الضوء على ما يمكن أن يحدث من فساد وظلم من بعض القضاة.

د - ثقافة حقوقية تدفع الناس إلى المطالبة بحقوقهم وتوجد لديهم يقينًا بأن عدم المطالبة بالحق يشجع الظالمين على الظلم.

إن هذه الأمور وأمورًا أخرى متصلة بها تعزِّز مبدأ العدل في المجتمع؛ لأنها توفر الشروط الطبيعية لسيادته في الحياة العامَّة.

٢ - الحرية:

الحرية هي الأخرى قيمة من أعظم قيم الحياة، وهي شرط ضروري لنمو الأشخاص والمجتمعات نموًّا طبيعيًّا، ومن الواضح أنه ليس هناك من يتغنى بالعبودية، ويدعم ثقافتها، لكن الواقع يقول: إن هناك مئات الملايين من الناس الذين يشعرون أنهم مضغوطون، ومسلوبو الكرامة، ويقومون بأعمال كثيرة لا تليق بالآدميين، هذه هي

الحقيقة، فتعشُّق الحرية ليس كافيًا ليعيش الناس أحرارًا، إن الحرية في جوهرها هي القدرة على الاختيار، ومن البدهي أن الاختيار يكون معدومًا إذا لم تكن هناك بدائل وخيارات؛ فالجائع الذي لا يجد أمامه سوى رغيف جافّ مضطر لأكله، ولا يستطيع أن يمارس حريته تجاهه، والأب الفقير والحريص على تعليم ابنه تعليمًا جيدًا، قد لا يجد في بلده سوى مدرسة واحدة غير جيدة، لكنه مضطر إلى وضع ولده فيها بسبب عدم وجود المال الذي يمكّنه من الاختيار بينها وبين غيرها وهكذا...

٣ - حسن الجوار:

الإحسان إلى الجار وإكرامه وكف الأذى عنه والتواصل معه، والدفاع عنه... هذه المعاني العظيمة - في المُجمَل - ذات صبغة عالمية أيضًا، لكن بما أن القيم والمبادئ لا تعمل في فراغ فإننا نجد تباينًا هائلًا في تجسيد هذه القيمة الجليلة، هناك أشخاص وأُسَر يتحدّثون إلى جيرانهم ويدخلون عليهم، ويعرفون كل شيء عنهم، وهناك أُسَر تسكن مع أسر أخرى في عمارة واحدة، وقد تستمر تلك المساكنة بضع سنوات دون أن يعرفوا عن بعضهم بعضًا أي شيء حتى الأسماء! **من العوامل التي تؤثر في هاتين الوضعيتين الآتي:**

١ - سعة البيئة وضيقها؛ حيث إنه قد ثبت أنه كلما كانت البيئة أضيق كان التواصل بين الجوار أفضل، والعكس صحيح، وأنت تجد أن من التقاليد التي كانت سائدة في كثير من القرى ترك أبواب الدور مفتوحة طيلة النهار، مما يسمح للناس بالتواصل في كل لحظة من لحظات النهار دون استئذان، وليس كذلك الوضع في المدن الكبرى؛ حيث تكثر الجرائم، ويخاف الناس من اللصوص..

٢- يتحكم الوضع الحضاري بتواصل الجيران؛ ففي المناطق الأقل نُمُوًّا وفي

تجمعات الفقراء يكون التواصل بين الناس أفضل، وربما كان ذلك بسبب حاجة الجيران لبعضهم؛ حيث تجد المرأة حاجة مستمرة لاقتراض أو استعارة بعض الأشياء من أجل تمشية أمور أسرتها، وليس الأمر كذلك في أحياء الأغنياء.

٣ - الناس الأكثر تعلُّمًا يزدادون انكفاءً على أنفسهم، بسبب اتساع مساحة خصوصياتهم، وهذا يقلل من تواصلهم مع الجيران والأهل كذلك، وتضيق دائرة أصدقائهم إلى حدٍّ بعيد، أما الناس الأقلُّ تعلُّمًا فإن تواصلهم مع جيرانهم يكون أفضل في الغالب.

٤ - كان تواصل الجيران أقوى في الماضي - على نحو عام - بسبب تفشي البطالة، أما اليوم فإن الناس يعملون، ويعودون مرهقين إلى منازلهم، وقد سئموا من الاختلاط بالآخرين..

هذه الحيثيات عبارة عن شروط موضوعية لعمل مبدأ حسن الجوار، وإدراكُها يمكننا من فهم تطور هذا المفهوم وتطور تحقيقه في الواقع.

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - يعلِّمنا التاريخ أن (الفضيلة) يمكن أن تختفي من الواقع، وتغيب عن الوعي إذا لم تجد من يدافع عنها ويحميها، وينشرها، ويقاوم الرذائل التي تزاحمها، ولهذا فإني أرى أن المجتمع الإسلامي في حاجة إلى ألوف المؤسسات والهيئات والمبادرات التي تحمي مبادئه السامية وقيمه العظيمة، وتعمل على ترسيخها في الوعي والسلوك بكل وسيلة ممكنة.

٢ - حين تحدَّث الناس عن الامتثال لمبدأ عظيم أو التحلي بفضيلة من الفضائل

فإن عقولهم تميل إلى تصور استحالة ذلك أو صعوبته، ولا يتغير هذا لديهم - في الغالب - إلا من خلال رؤية نماذج حيَّة يتجسَّد في سلوكها ما تدعوهم إليه، وهذا يحمّل كلّ واحد منا مسؤولية العمل على أن يجعل من نفسه قدوة للآخرين من خلال ظهور فضيلة من الفضائل أو مبدأ من المبادئ في سلوكه على نحو ظاهر.

٣ - حين نريد لمبدأ أن يعمل في توجيه سلوكنا، فإن علينا أن نوفر الظروف التي تساعد على ذلك، وعلى سبيل المثال: فإنه قد ثبت بما لا يدع مجالًا للشكّ أن النزاهة المالية والإدارية مرتبطة باستقرار البلاد وبحرية الإعلام، كما أن الفساد المالي والإداري مرتبط بالحروب والنزاعات المُسلَّحة ومرتبط كذلك بالقيود الصارمة الموضوعة على وسائل الإعلام، وإن تقارير منظمة الشفافية الدولية أوضحتْ شيئًا من هذا على نحوٍ لا لبس فيه...

٤ - العصامية وامتلاك منهجية حسن التدبير من الفضائل الجميلة، ومن الصعب لهاتين الفضيلتين أن تتجسَّدا في سلوك شعب يحصل على المال بسهولة بالغة، فالرخاء الزائد على ما له من ميزات لا بد له من أن يحرمنا من بعض الفضائل، ومن المهم العمل وفق هذا المعطى...

●●●●

28

معالجة الشأن...
الإنساني دائمًا معقدة

28 معالجة الشأن... الإنساني دائمًا معقدة

هذه سُنَّة من سنن الله فينا بني آدم، وفهم هذه السُّنَّة ذو فائدة عظيمة؛ لأن كثيرًا من المسرَّات والنجاحات هو بسبب علاقاتنا مع بعضنا، كما أن كثيرًا من إخفاقاتنا وألوان شَقَائِنا هو بسبب إخفاقنا في فهمنا لبعضنا وفي سوء علاقاتنا، وإذا تأملنا في حياتنا الخاصَّة والعامَّة وجدنا أنه ليس هناك شيء بسيط، والدليل هو تلك التصرفات الطائشة التي تصدر في بعض الأحيان من أشخاص ناضجين، وعلى درجة عالية من الثقافة مع تقدمهم في السِّنِّ، كما أننا نجد أنفسنا في أحيان غير قليلة حائرين في اتخاذ الموقف المناسب تجاه قضية أو حادثةٍ ما مع كثرة ما واجهنا من قضايا وحوادث.

نحن نستطيع أن نلمس تعقيد الشأن الإنساني في ثلاثة أمور جوهرية:

الأول: تعقيد التركيب الإنساني على المستوى الروحي والعقلي والنفسي والجسمي وعلى مستوى العلاقات التي يتم تبادلها بين هذه الجوانب.

الثاني: العلاقات التي يقيمها الناس مع بعضهم في الأسرة والمدرسة والمسجد وأمكنة العمل والشارع، هذه العلاقات في غاية التعقيد وإدارتها وتطويرها، وترميم ما انهدم منها من الأمور المرهقة لبني آدم.

الثالث: الظواهر الإنسانية من نحو الاختلاف وحب المال والنزوع إلى التوسع وطول الأمل.. هذه الظواهر تتميز بالحركة والتغير والتكرار، وقياس حجمها والعوامل المؤثرة في نشوئها من أعقد الأمور.

إن معاناة الناس في التعامل مع الشأن الإنساني تتجلَّى في العديد من الأمور، منها:

أ - صعوبة فهم الشأن والموقف الإنساني وصعوبة تحليله وتفكيكه.

ب - صعوبة فهم الأسباب والجذور للظاهرة الإنسانية.

ج - صعوبة تخمين النتائج والتداعيات المترتبة على قرار أو موقف إنساني.

د- صعوبة التعامل مع الناس وإيجاد توازن جيد في العلاقات معهم.

● لماذا يتسم الشأن الإنساني بالتعقيد؟

١ - نحن ندرك الظواهر المادية والطبيعية عن طريق الحواس وبعض الأدوات وليست كذلك الظواهر الإنسانية؛ حيث إنها تتصل بالأفكار والمشاعر والمقاصد والنيَّات، وهذه أمور يصعب الوقوف عليها وتقديرها، كما أن كلَّ إنسانٍ يُشكِّل

ظاهرة فريدة، أو هو أشبه بمخطوطة يتيمة لكتاب نفيس، فعقولنا ونفوسنا تختلف كما تختلف بصمات أصابعنا وأصواتنا، ولذا فإن القوانين المتعلقة بالعلوم كالفلك والكيمياء والفيزياء تتَّسم بالجدية والصرامة، أما في مجال العلوم الإنسانية، فالقوانين والقواعد التي نتوصل إليها تتَّسم بالتقريبية والاحتمالية، إنها تفتقر إلى الكلية واليقين، وقد أشرت في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب إلى أن لسنن الله - تعالى - في الأنفس والمجتمعات استثناءات وشذوذات عديدة، إذ إن استنباطنا لتلك السُّنن هو اجتهاد، نُصِيب فيه ونخطئ، ويظلُّ كثير مما نتوصل إليه منها قابلًا للنقاش والجدل وإعادة الصياغة، وعلى سبيل المثال فإن من المعروف أن المرء يتلقى التعازي حين يفقد أحد أبنائه، لكن بعض الآباء يرفضون قبول العزاء، ويقولون من أراد تهنئتنا، فأهلًا به، وإلا فلا؛ وذلك لأنهم يعتقدون أن أبناءهم قضوا في مواطن الشرف والدفاع عن الأرض والعرض، ونحن نعرف كذلك أن معظم النساء يحاولن إسعاد أنفسهن وأُسَرهن، ويتحملن في ذلك الكثير، ويتمُّ كل ذلك بعيدًا عن التفكير في مسألة حياتهن الزوجية في الجنَّة، لكننا وجدنا من النساء من طلبت من زوجها أن يطلِّقها؛ لأنها لا ترغب أن تكون زوجته في الجنة! قد يقال: إن هذا شاذٌ جدًّا، وأقول: نعم هو كذلك، وهذا ما نتحدث عنه.

٢ - الشَّكُّ والغموض والحيرة أمور تهيمن على الباحثين في الشأن الإنساني؛ حيث إنهم كلَّما خطوا خطوة إلى الأمام انفجرت في وجوههم التساؤلات والتحليلات ذات الطابع الاحتمالي، إنهم يشعرون أنهم يقفون على أرض هشَّة، وهذا مغاير تمامًا لما هي عليه الحال في العلوم الطبيعية؛ حيث إن التقدم فيها ثابت الخطا وتراكمي، وذو طبيعة انعكاسية؛ إذ نجد أن التقدم في الرياضيات ينعكس على

التقدم في الكيمياء وعلوم الفلك، والتقدم في علوم الفضاء أفاد في تطوير كثير من الأشياء التي يستخدمها الناس على الأرض. إن الفرادة تظلُّ شيئًا حاضرًا في الشأن الإنساني كله، فما يصنعه أبناء الجيل الحاضر من أدوات ترفيه ونقل واتصال... لم يكن في مقدور السابقين مجرد تخيله فضلًا عن تصنيعه، وذلك بسبب تراكم الخبرات والمعارف والمهارات وتطورها المستمر، أما على الصعيد الإنساني، فالأمر مختلف؛ فقد نظم بعض الشعراء من القصائد ورسم بعض الرسامين من اللوحات ما نعجز اليوم عن الارتقاء إلى مستواه، إن هذه الفرادة هي سرّ صعوبة تقنين الشأن الإنساني وسرّ تعقيده أيضًا.

٣ - من أسباب تعقيد الشأن الإنساني أن كلَّ أنشطتنا تتمُّ في ظلِّ نُظُم مفتوحة، أي نُظُم تسمح للبيئة والمعطيات الخارجية بالدخول عليها، مما يجعل كل خططنا وتدبيرنا في المجال السياسي والإداري والدعوي والتربوي... غير مضمونة النتائج، فنحن في كل تحركاتنا على شفا الاحتمال وحافّة المخاطرة، وهكذا نجد أن الكثير من الخطط نجح في بلدان معينة، وحين نقلت إلى بلدان جديدة أخفقت بسبب اختلاف البيئة، كما أننا نجد الكثير من الأشخاص الذين نجحوا في بلد، وحين عملوا في بلد آخر لم يتمكنوا من تحقيق النجاح الذي حقّقوه في البلد الأول، وهذا واضح لدى الخبراء على نحو جيد، فلو أنك أردت فتح مصنع في منطقة، وعهدت بدراسة جدواه إلى أفضل شركة مُتخصّصة في دراسات الجدوى، فإنهم قد يشجعونك على إقامة المصنع، لكنهم غير مستعدين لضمان نجاحه؛ لأنه لا أحد يستطيع منع شركة منافسة من إقامة مصنع منافس لمصنعك، وبذلك قد تختلف كل الحسابات. هذه الوضعية تُدخل الكثير من التعقيد على أعمالنا وعلى

علاقاتنا، وهي معضلة غير قابلة لأي حل كامل. ومن وجه آخر، فإذا وقعت مشكلة في أي مجال من المجالات الإنسانية، فإن ما نباشره من حلول يتمّ في ظلّ نُظُم مفتوحة، مما يعني وجود عنصر المخاطرة على نحو مستمر.

٤ - في العلاقات والأنشطة الإنسانية تحضر الروح والعواطف والإرادات والأفكار والانطباعات والذكريات... وكثير من هذه عسير التعريف، ولا يخضع للمنطق، ومن هنا كان علاج الأمراض البدنية وعلاج المشكلات التقنية والفيزيائية أسهل بكثير من علاج الأمراض والأزمات النفسية وأسهل من تغيير الأفكار والقناعات والعادات وأسهل من إصلاح العلاقات المتداعية، وعلى سبيل المثال، فإن كلّ جهود الأهل والأصدقاء يمكن أن تذهب سدى، حين يقول أحد الزوجين عن صاحبه إنه لا يستطيع أن يراه، ويعيش معه مهما أصلح من شأنه!. ونحن نعرف أن بعض الناس ألفوا السكنى في صحراء قاحلة، ليس فيها أي شيء من مقومات الهناء، ومع هذا فإنهم متمسكون بها؛ بل يشعرون بالامتنان بالسعادة والأمن، ولو أنك جئت بابن مدينة كبرى ليسكن معهم سنة واحدة لأبدى الكثير من الممانعة والرفض؛ لأنك تحمله على شيء غير مقبول ولا معقول. هذا يؤسس للخلاف، وحين لا نتمكن من إدارة الخلاف بيننا على نحوٍ جيد، فإن الحياة تصبح صعبة ومحفوفة بمخاطر الاقتتال.

٥ - الاختلاف في تحديد أسباب الأنشطة والمواقف والظواهر الإنسانية من مصادر تعقيد التعامل مع الشأن الإنساني؛ حيث إننا نعرف أن تحديد الأسباب والدوافع مهم جدًا لإصدار الأحكام ومعالجة المشكلات، ومن المؤسف أن ذلك في المجالات الإنسانية صعب: هذا شخص يسعى إلى تلميع نفسه في المجتمع

وتحقيق قدرٍ عالٍ من الحضور في الإعلام، هذا العمل إذا كان لأهداف دنيوية، وشخصية فإن الحكم عليه يختلف كثيرًا عن الحكم عليه فيما لو كان من أجل نجاح مشروع خيري يقوم عليه أو نشر أفكار عظيمة يتبناها، وحين نعمد إلى معالجة ظاهرة كبرى كالفقر أو البطالة أو انتشار الجريمة أو شيوع الظلم والاستبداد... فإن الباحثين يواجهون الكثير من التحدِّي عند عملهم على تحديد أسباب تلك الظواهر، وعن الثقل النوعي لمساهمة كل سبب في تشكيل الظاهرة الواحدة، وما هذا إلا لأننا هنا نتعامل مع أمور غير مرئية ولا محسوسة مما يجعل لخلفياتنا الثقافية الدور الأساسي في تحديدها.

● ما الذي يعنيه كل هذا؟

الذي يقرأ كلامي هذا يخرج بانطباع مُلخصه: استعصاء الشأن الإنساني على الفهم، والشعور بأن الإنسان بالنسبة إلى هذه القضية في ورطة كبيرة، وهذا كله صحيح، لكن أودُّ أن أشير إلى شيء مُهمّ، هو أن الله – جلَّ وعلا – بحكمته البالغة بثَّ سُننًا كونية في الإنسانيات كما بثَّ سُنَنًا في الماديات والطبيعيات، ومن شأن فقه السُّنن أن يدلنا على الاتجاهات العامَّة والأصول والكليات، أما التفاصيل والجزئيات في كلِّ مجال من حياتنا الإنسانية فإن معظمها مخفي بسبب وجود الخصوصيات، وهذا يعني أن علينا فهم المزيد من السُّنن في الأنفس والمجتمعات، وعلينا التضلع من العلوم الإنسانية في سبيل فهم الجزئيات والتفاصيل، ومع كل هذا فإننا لن نستطيع التخلص من الارتباك في فهم كلِّ ما هو بشري، وهذا من العجز المستولي على جملة البشر!

● كيف نتعامل مع هذه السُّنَّة؟

١ – يجب من البداية أن نرضى بفهم ناقص للظواهر الإنسانية، ونرضى بموضوعية غير كاملة في كلِّ أحكامنا على سلوك البشر، وهذا يجعلنا نتواضع، ونجتهد في اتجاه فهم أدّق وأكثر شفافية.

٢ – حين نحاول فهم السلوك الإنساني، فإن من المهم أن ندرك أن الناس لا يلتزمون بالقوانين، بل إنهم أحيانًا يستمتعون بالخروج عليها، وتارة يؤمنون بها لكنهم يخالفونها نكاية بمن وضعها أو بمن يقوم على تنفيذها، كما أن الواقع الاجتماعي ليس مطابقًا لعقائد الناس والمبادئ التي يؤمنون بها؛ بل إن السلوك الإنساني لا يخضع دائمًا للمنطق والتفكير المنهجي بسبب فوران العاطفة وتسلط الشهوة وغبش الرؤية، وهذا كله يجعلنا نحاول النفاذ إلى الأعماق وإلى ما خلف الديباجات والعناوين العريضة...

٣ – نحن نرتبك في فهم وتحليل الظواهر الإنسانية أشد من ارتباكنا في فهم ظاهرة صغيرة، ومن هنا فإن علينا حين نريد فهم ظاهرة إنسانية معينة أن نقسمها إلى أصغر وحدات ممكنة، فظاهرة كظاهرة (تخلف التعليم) مثلًا تُفكَّك إلى أجزاء صغيرة مثل:

- نُظُم التعليم.
- كفاءة المناهج.
- الإدارات المدرسية.
- دعم الأهالي للعملية التعليمية.

- سوق العمل وتحفيزه على التعليم.
- العادات والتقاليد الاجتماعية.
- الإمكانات والتجهيزات المادية.

ثم نقوم بدراسة كلٍّ وحدة على حِدَة، وبعد ذلك نصير إلى دمج ما نتوصل إليه في رؤية واحدة.

●●●●

29

التقدم الحضاري: وعيٌ أشد بالمصالح

هي... هكذا

29 التقدم الحضاري: وعيٌ أشد بالمصالح

فطر الله - تعالى - عِبَادَه على الحرص على رعاية مصالحهم وصيانتها بكل أسلوب ممكن، وهذا طبيعي، فما دام الإنسان لا يستطيع الاستمرار في هذه الحياة من غير الطعام والشراب والمسكن... فإن عليه أن يسعى إلى توفير هذه الأشياء. في إمكاننا تعريف التقدُّم الحضاري بأنه ذلك الارتقاء في الأفكار والأذواق والعلاقات مصحوبًا بكثير من النظم والمؤسسات والأدوات مع الكثير من أشكال الترفيه والكثير من البدائل والخيارات. أما المصلحة فهي ببساطة شديدة كلُّ ما يشعر الإنسان أنه يجلب له نفعًا، أو يدفع عنه ضُرًّا، وهذا بقطع النظر عن الواقع، فقد يظنُّ المرء أن في الحصول على كذا نفعًا له، ولا يكون الأمر كذلك.

الناس دائمًا يشعرون بأن لهم حاجات ومصالح عليهم أنْ يعملوا من أجلها، لكن وعيهم بمصالحهم مشروط دائمًا بالحالة الحضارية التي تتلبسهم، والحقيقة أن التقدُّم الحضاري يفتح وعي الناس على المزيد من المتع، التي تتطلب الإشباع، ويوجد لديهم الكثير من الحاجات التي تتطلب القضاء، ومن مجموع وعي الناس بالمتع والحاجات الجديدة يتكون وعيهم بمصالحهم، فكيف يتمُّ ذلك؟

● **مفاهيم في إطار هذه السُنَّة:**

١ - الإنسان يكتشف نفسه وإمكاناته ورغباته على سبيل التدرج، وأدواتُه في ذلك هي منتجاته الحضارية التي تشكِّل البيئة التي يعيش فِيها، ولهذا فإن من الممكن القول: إنه كلَّما كانت البيئة أكثر غنى بوسائل الرفاهية وفنون العيش صار لدى الناس وعي أقوى وأوسع بما يجلب لهم النفع، ويدفع عنهم الضرر؛ لأن نطاق اكتشافهم للأشياء، ونطاق تعاملهم مع ظروف الحياة يصبح أوسع.

٢ - يوفِّر التقدُّم الحضاري أسباب التعرف على المشاعر الجميلة، بما يوفره من أسباب الرفاهية، وهكذا فقد خبر كثير من الناس المتع التي يوفرها ركوب الدرجة الأولى في الطائرات، وتناول الطعام في المطاعم الفاخرة، وقضاء الإجازات في المنتجعات الفارهة.. وفي هذا اكتشاف لجزء مهم من أجزاء الذات، ومع الأيام تصبح هذه المُتع في نظر الناس أقرب إلى الحاجات منها إلى الكماليات؛ حيث يجدون أنفسهم في شوق ملحٍّ إلى نيلها، ويعملون من أجل ذلك، ويمتلكون الخبرة في الحفاظ عليه؛ إذ يصبح جزءًا من مصالحهم الشخصية. التقدم الحضاري إذن لا يجعل وعي الناس بمصالحهم أشد فحسب، وإنما يوسِّع دائرة تلك المصالح أيضًا.

٣ - التقدُّم الحضاري يقوم في الأساس على التقدُّم المعرفي وتراكم الخبرات في كلِّ المجالات، ولا يخفى أن جلَّ ما يتمُّ إنتاجه من معارف حديثة يوضع في خدمة الإنسان وتلبية رغباته بطريقة من الطرق، ولنأخذ على سبيل المثال ملايين المعلومات الحديثة المُتعلِّقة بالغذاء والدواء؛ حيث نسمع كلَّ يومٍ عن نتائج عشرات الدراسات والبحوث التي ترشد الإنسان إلى كيفية الحفاظ على صحته وكيفية درء العلل عنها، وقد تكوَّن فعلًا اليوم لدى الناس وعي صِحّي لم يسبق له - بل لِعُشْره - مثيل، هذا الوعي الصِّحّي جعل الناس يحددون وجوه النفع والضرر فيما يتناولونه من غذاء ودواء، أي أنه جعلهم يدركون مصالحهم في هذا الشأن على نحوٍ جيد، وأنت تلاحظ أنه كُلَّما ارتقى الناس في سُلَّم الحضارة تحسَّن وعيهم الصِّحّي وصار إدراكهم لمصالحهم الصِّحّية أفضل.

٤ - تحسُّن وعي الناس بمصالحهم يستتبع في معظم الأحيان انشغالهم برعاية تلك المصالح، والانغماس في المرفَّهات المتاحة لهم، ويصحب هذا نوع من الاختفاء لصور الزهد التي سردت كثيرًا منها كتبُ التراجم للسابقين والأسلاف، وسبب هذا الاختفاء ليس بسبب كون الناس قد أصبحوا أكثر دنيوية فحسب، وإنما بسبب أن السابقين لم يُمتحنوا بمثل ما امتُحنا به من وسائل المتعة، ولو عاش زهاد القرون الأولى في زماننا لانغمس السواد الأعظم منهم فيما انغمس فيه صالحو زماننا، وقد حذَّر ﷺ من مثل ما نشير إليه حين قال: « **فو الله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بُسطتْ على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهْلِككم كما أهلكتهم** »[٣٦]، هي سُنَّة إذن: غنًى يتيح الاستمتاع

---

٣٦ - متفق عليه.

بالمرفهات، ويوفر البدائل وينتج تنافسًا على الدنيا وحرصًا شديدًا عليها، وهذا يجعل المصالح تُزاحم المبادئ، وتضغط عليها، مما يجعل كثيرًا من الناس ينسون الكثير من مبادئهم في سبيل تحقيق مصالحهم.

٥ - يقولون: إن الذكاء هو قدرة عالية على التكيف، وهذا صحيح، ويمكن أن أقول: إن التقدم الحضاري - هو الآخر - يجعل قدرة الناس على التوفيق بين مصالحهم ومبادئهم أعظم، فترى ساكني العواصم والذين نالوا حظًّا جيدًا من التعليم يعرفون أكثر من غيرهم كيف يستمتعون بالحياة مع الشعور بالاطمئنان إلى أنهم لم يخالفوا العقائد والمُثُل التي يؤمنون بها، وهذا يتمُّ عن طريق الحرص على جوهر التدين وغضِّ الطرف عن الأقوال الفقهية المُتشدِّدة مع الركون إلى تأويل النصوص والمبادئ بما يساعد على بلوغ المصالح، على حين أن الإنسان الأقل تحضُّرًا يكون مضطربًا في هذا الشأن؛ حيث نجد من يحرم نفسه من كثير من المباحات، والمرفهات، ومن يمضي خلف أهوائه وشهواته غير عابئ بأي تعاليم أو مبادئ سامية. إذن التقدُّم الحضاري لا يجعل الناس أكثر تديُّنًا، وإنما يتيح لهم من الوعي ما يساعدهم على أن يعيشوا حياتهم مع العمل لآخرتهم إن أحبوا.

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - ليس من الخطأ أن يعرف الناس مصالحهم وأن يدبروا شأنهم على نحو جيد، ونحن قد لا ندرك هذا إلا إذا تصوَّرنا البديل، والفرق شاسع بين من يعرف كيف ينفق ماله بوعي وحكمة، ومن ينفق ما لديه في أيام، ثم يجلس حسيرًا كسيرًا، أو يتجه إلى الاستدانة من الناس... ثم إن تأمين المرء لمصالحه يوفر له الفرصة

لخدمة المصلحة العامَّة، وهذا شيء مطلوب دائمًا.

٢ - الوعي بالمصالح كثيرًا ما يساعد الناس على أن يمتلكوا المزيد من القوة والتحكم، كما أنه يخلِّصهم من الارتباك الذي يقع فيه الارتجاليون، والذين لا يعرفون متطلبات العيش في زمانهم، وهذا شيء جيد أيضًا، فالمؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله - تعالى - من المؤمن الضعيف، كما ورد في الحديث الشريف.

٣ - من شأن الوعي القوي بالمصالح أن يجعلنا ننهمك في خدمتها والاستمتاع بما توفره من فرص، وهذا يجعلنا نغفل عن واجباتنا الدينية ومسؤولياتنا الاجتماعية؛ ولهذا فإن علينا أن نرفع شعارًا يقول: نخدم مصالحنا في إطار واجباتنا، وفي إطار مبادئنا أيضًا، وهذه نقطة في غاية الأهمية؛ وذلك لأن صوت المصالح يُسمع دائمًا على نحو أوضح من صوت المبادئ.

٤ - الاعتدال والتوسط والحرص على عدم الخروج من دائرة المباح من المعاني الأساسية التي ينبغي استحضارها عند خدمة المصالح؛ وذلك لأن الخروج عن دائرة المباح يدخلنا في دائرة المَفْسَدة، كما أن التطرف في خدمة أية مصلحة من المصالح يفوِّت الاهتمام بمصلحة أخرى، وكم رأينا من الناس من انشغل بكسب المال عن صلة أرحامه والاهتمام بأسرته، وكم رأينا منهم من يملك من المال ما يفيض كثيرًا عن الحاجة، وهو يلهث خلف المزيد بقطع النظر عن الشبه والمحظورات التي تحيط بمساعيه!

٥ - حتى يسمو تحقيقنا لمصالحنا الدنيوية، وحتى يصبح له معنى، فإن علينا أن نستهدف دائمًا خدمة مصلحتنا الكبرى والفريدة، وهي الفوز برضوان الله - تعالى - والظفر بمكان رفيع بدارِ كرامته.

٦ - التقدُّم الحضاري يساعد الناس على الوعي بجوهر حاجات الآخرين من حولهم، وهذا شيء جيد، ولهذا فإن علينا أن نستثمر ما أحرزناه من ثقافة ورقي عمراني في خدمة العناصر الضعيفة في المجتمع من خلال العمل التطوعي والمبادرات والمؤسسات الخيرية الكثيرة.

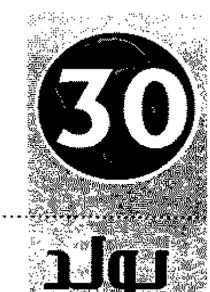
٧ - الشيء الأخير والأكثر أهمية في هذا الشأن هو أن علينا أن نملك ما يكفي من الثقافة والوعي للتفريق بين ما هو مصلحة ومَفْسَدة حقيقية، وبين ما هو مصلحة ومَفْسَدة متوهَّمة، وإن مرجعنا في ذلك هو عقيدتنا ومبادئنا، وما تراكم من خبرات البشرية في رعاية المصالح ودرء المفاسد.

●●●●

30

الإنسان كائن مقلد

هي...
هكذا



الإنسان كائن مقلد

الإنسانُ ناقص الإنسانية، وجاهلًا بكلِّ شيء، كما قال - سبحانه -: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾[٣٧].
إن المولود في حاجة إلى استكمال إنسانيته واكتساب الخبرة المطلوبة لكسب رزقه وحماية نفسه، ولهذا فإن الله -تعالى- زوَّده بالقدرة على التعلم والقدرة على التقليد، والحقيقة أن التقليد واحد مما مُيِّز به الإنسان على الحيوان وهو مظهر من مظاهر تكريم الله - تعالى - لبني آدم، ومع أن بين الحيوانات والطيور ما هو قادر على التقليد - كالببغاء مثلًا - لكن قدرته على ذلك محدودة للغاية.

٣٧ - سورة النحل: ٧٨.

إن التقليد عبارة عن محاكاة من لا يملك الخبرة لمن يملكها، والتقليد قد يكون في السلوك والزي والموقف الاجتماعي وطرق استخدام الأشياء... وقد يكون في المسائل الفكرية والاعتقادية، كما يفعل المريض حين يستسلم لرأي الطبيب في تشخيص عِلَّته ومداواتها، والتقليد هنا يأخذ شكل الاتباع والقناعة. إن قابيل حين قتل أخاه هابيل لم يهتدِ إلى الطريقة التي تمكنه من الخلاص من جسده بعد أن أزهق روحه، فأرسل الله غرابًا يرشده إلى ذلك، وقد ذكر بعض أهل التفسير أن قابيل رأى غرابين يقتتلان، فقتل أحدهما الآخر، ثم قام القاتل بالبحث في الأرض - كما حدَّثنا القرآن الكريم - ليدفن أخاه، فتعلم قابيل ذلك، وحفر لأخيه، ودفنه، وفي هذا دلالة واضحة على أن الإنسان مع أنه مؤهل للإبداع إلا أنه يقف عاجزًا أمام بعض المسائل الصغيرة، حتى يتعلَّم، ويقلِّد، ويتدَّرب.

● مفاهيم في إطار هذه السُنَّة:

١ - الإنسان بطبعه كائن مقلد، الاجتهاد يغريه بالاجتهاد، والنبل يغريه بالنبل، كما يغريه العدوان بالعدوان، والضحك بالضحك، والتثاؤب بالتثاؤب، إنه يميل إلى التقليد؛ لأنه في الأساس يميل إلى التلقائية، فهو لا يرى ضرورة، ولا يجد الهمة لأن يشق في كل شيء طريقًا جديدًا، أو يبتدع أداة جديدة، وما ذلك إلا لأنه لا يفكر ويجتهد إلا عند الضرورة لكن الكائن البشري يتَّسم بالفرادة؛ ولهذا فإن التقليد في الشؤون الإنسانية لا يكون مضمون النتائج، وكم قلَّد أب من الآباء أحد أصدقائه في تربية أبنائه ولم يحصل على النتائج عينها، وكم قلَّد مَطْعم مطعمًا في طريقة طهيه للطعام ولم يستطع الوصول إلى نفس النكهة، وهذا يعني أن التقليد

ليس مسألة سهلة، كما نظنُّ، وإذا جئنا إلى (التقليد الصناعي) وجدنا أنه من أهم الدروب التي تسلكها الأمم في امتلاك التقنية، لكن التقليد الصناعي يتطلب ممن يريدون ممارسته مهارة عالية ومعرفة متقدمة نسبيًّا؛ بالمواد المكونة وأساليب الصبِّ والقولبة، ولهذا فإن الدول التي برعتْ فيه ليست بالكثيرة، وهذا يعني أن التقليد يحتاج أحيانًا إلى أن يصاحبه نوع من الإبداع والابتكار، ولك أن تقول مثل هذا في المجال الحضاري، فأنت لا تستطيع نقل التجارب الحضارية من أمة إلى أمة أو من دولة إلى دولة، وإنما تستطيع أن تستلهم، وتقتبس، وهذا يتطلب منك أقلَمة ما اقتبسته، والأقلَمة عمل إبداعي بامتياز. إن الإنسان على المستوى العام كائن مُقلِّد، لكنه بسبب ما يملكه من طلاقة روحية وفكرية وبسبب ما يملكه من وعي ذاتي وقدرة على النقد.... لا يركن إلى التقليد، وإنما يراوح بين تقليد ما هو سائد وبين الثورة عليه أو تطويره، هذه المراوحة تتَّخذ في الحقيقة شكل الصراع والانقسام على المستوى العقلي والشعوري والسلوكي، وهذه الوضعية هي خميرة التجديد والتخلِّي عن الأشياء التي فقدت صلاحيتها.

٢ - الحياة الاجتماعية بظواهرها المختلفة هي أكثر ما يظهر فيه تقليد الإنسان للإنسان، وأكثر ما يظهر فيه رضوخ الفرد لغيره، والحقيقة أن بني البشر غارقون في تأثير ما يحيط بهم على نحو أكبر بكثير مما يدركونه، والواحد منا يشبه جبل الجليد يطفو جزء صغير منه على سطح الماء، ويبقى الجزء الأكبر غارقًا تحت بحر من البرمجة الاجتماعية؛ ولِمَ لا والأسرة والمدرسة والإعلام والشارع والأصدقاء والزملاء.... يؤكدون على قيم وتقاليد وعادات واحدة، وهم لا يقولون كلمتهم ويمضون بل إنهم يراقبون مدى امتثال الفرد لها؟! ومن المعروف في هذا السياق

أن جلّ الناس يخضعون للأعراف والتقاليد أكثر من خضوعهم للأحكام الشرعية أو القوانين النافذة، وذلك بسبب الضغط الهائل والمتابعة الاجتماعية المُشدَّدة على مسائل التقاليد والأعراف دون غيرها، ويمكن أن نقول أيضًا: إن التركيبة النفسية للإنسان تحثّه على الخضوع لغيره وعلى التشبه به ؛ والحقيقة أن ما يُلجِئ الإنسان إلى التقليد - بالإضافة إلى ما أشرت إليه - كثير، منه:

أ - الشعور بالأمان الذي يناله من يسير على منهج من سبقوه، والذي يستخدم طُرقًا وأدوات ثبتت نجاعتها، ونحن نعرف أن الجديد مِن كلّ شيء قد يحمل معه مفاجآت وأشياء غير سارة، ولذلك تكون له رهبة.

ب - الاعتقاد بأن من نُقلّده يمتلك معرفة أو خبرة نحن لا نملكها.

ج - كثيرًا ما ينظر الناس إلى التقليد على أنه وسيلة لإبقائهم في حيز التنظيم، أي أن التقليد مضاد للفوضى والعبث والحماقة، ويتجلّى هذا في مجالات مهمة مثل: التربية والتعليم والتصنيع.

د - التقليد في الانفعالات والعادات واللغة يزيد في اللحمة الاجتماعية، ويمنع من سوء الفهم، وكيف سننظر إلى شخص يغنّي وهو يتجول بين القبور، أو يقهقه في مأتم، وكيف سننظر إلى شخص يبكي كلما بشّرته بشيء مُفرِح، أو يضحك كلما سمع شتم أبويه...؟ ولهذا فإننا نرى أن كلّ واحدٍ منّا يحيط نفسه بمن يوافقونه في توجهاته العامّة، وإن عقله الواعي (يُمَنْطِقُ) ميوله غير الواعية للتقليد، ويوجد لها المسوغات المختلفة، ومما ينبغي لفت النظر إليه على هذا الصعيد أن التقاليد الاجتماعية لا تنتشر بسبب أنها تحقّق مصلحة، أو تدفع مضرّة، وإنما بسبب نوعية من يتبنّاها وكثرتهم، ولهذا فإننا نجد كثيرًا من العادات و قد انتشرت انتشارًا واسعًا

مع أنها سيئة وغير مستساغة، وعلى الناس الخضوع لها، وإلا وجدوا النبذ والتأنيب والهجر. الناس يقلّدون في العادة الناجحين والأقوياء وعِلية القوم، بل إنهم يقلّدون أحيانًا أعداءهم، وإن الذي ينظر في تاريخ الدول المستعمَرة يجد أن كبار المواطنين الذين اعتمد عليهم المستعمر في إدارة المستعمرة كانوا يمارسون مع مواطنيهم عين الأساليب القهرية والتسلطية - من تعذيب وإذلال واستغلال - التي مارسها معهم المستعمر، لهذا فإن النصوص جاءت مُحذِّرة من أن يَسنَّ المرء سُنَّة سيئة، أو يكون قدوة في الشرِّ والفساد، وليس في هذا أوضح من قوله ﷺ: « **من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء** »[٣٨]، وقوله: « **ليس من نفس تُقتل ظلمًا، إلا كان على ابن آدم الأول كِفل من دمها؛ لأنه كان أول من سنَّ القتل** »[٣٩].

● كيف نتعامل مع هذه السُنَّة؟

١ - ما دام الإنسان مُقلِّدًا بطبعه، فليقلدْ من هو معصوم من الضلال والخطأ، ومن في اتباعه هداية ونجاة، ألا وهو النبي ﷺ، وقد حثَّنا الله - تعالى - على ذلك في العديد من الآيات على ما هو معروف ومشهور، فإذا لم يجد أحدنا هديًا نبويًا في شأن من الشؤون، فليقلِّد الناجحين في أعمالهم المشهورين بالتوسط والاعتدال، وقد يتطلب تقليدهم أحيانًا الدخول إلى عوالمهم من أجل البحث عن أسرار تفوقهم واعتدالهم.

---

٣٨ - رواه مسلم.

٣٩ - متفق عليه.

٢ -إن الجمهور العريض في كلّ مجتمع لا يكون في العادة هو الأرشد، ومِن ثَمَّ فإن هناك خشية دائمة من الانخراط فيه أو التأثر ببعض مقولاته وتوجهاته. الراشدون الفاقهون دائمًا قليلون، وعلى المرء أن يمضي في سبيلهم، ولا يغترِ بالسبل المزدحمة، فالخير كثيرًا ما يكون مع القلة وليس مع الكثرة، وقد وضح لنا القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات كثيرة، منها قوله - سبحانه -: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (٤٠)، وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ (٤١)، وقوله: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (٤٢)، ومن هنا روي عن أحد الحكماء أنه قال: لا تغترّ بطريق الباطل؛ لكثرة الهالكين فيه، ولا تستوحشْ من طريق الحق؛ لقلّة السالكين فيه.

٣ -كلما صِرنا إلى الأصول والكليات والمسائل الكبرى وجدنا أنه لا مناص لنا من التقليد، ففرضية الصلاة مثلًا لا تقبل إجراء بحث حولها؛ لأنها موضع إجماع، كما أن استحسان بر الوالدين وإكرام اليتيم والثناء على الانضباط والجدية أيضًا موضع إجماع، ولهذا فإنها ليست محلًا للاجتهاد، ولا ينفع معها سوى التسليم والمتابعة. أما الأمور الفرعية والجزئية والأمور الطارئة فإنها هي مناط الإبداع والاجتهاد، والتقليدُ فيها مظهر من مظاهر الكسل الذهني وركود الحضارة، ولهذا فإن التجديد فيها مرغوب ومطلوب.

٤ -سطوة التقاليد والعادات على الناس هائلة، ومِن ثَمَّ فلا بد من إيجاد وسيلة؛

---

٤٠ - سورة سبأ: ١٣.

٤١ - سورة ص: ٢٤.

٤٢ - سورة الأنعام: ١١٦.

لمقاومة طغيانها، وأعتقد أن الاعتصام بالمنهج الرباني الأقوم هو ما ينبغي أن نستمسك به في هذا، ونحن نعرف على سبيل المثال أن من شأن التقدُّم الحضاري أن يستحثَّ الناس على التعلُّق بالمظاهر واقتناء الأشياء الفاخرة..على حين أن أهل الإيمان والالتزام بشرائع الإسلام يتنافسون في أمور الآخرة والفوز بخير مكان في الجنة وهكذا....

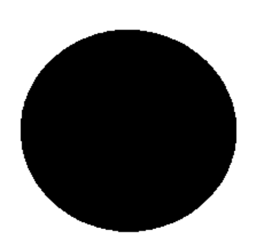
٥ - التعليم في كثير من مدارسنا يقوم على التلقين أي تقليد أفكار ومقولات الملقِّن على حين أن المطلوب اليوم تعليمٌ يقوم على الإبداع وتجريب الطالب ومشاركته الفاعلة، وتحقيق هذا أحد شروط النهوض بالتعليم.

٦ - في بلاد العرب من يشجع على التقليد ونشر الروح الاتباعية، وكثيرًا ما يتمُّ هذا من خلال التحذير من تجريب أي شيء، على حين أن المطلوب هو تشجيع المحاولة والثناء على الاكتشاف، ورحم الله الشاعر أبا ريشة إذ يقول:

شرف الوثبة أن ترضي العلا ... غلب الواثب أم لم يغلبِ

إنَّ مَنْ يحاول ويخطئ أفضل بكثير ممن يمعن في التقليد، والتحذير مما يمكن أن يقع حين نخالف من سبقنا من الآباء والأجداد والشيوخ.

●●●●



خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

فإني أشكر الله - تعالى - على ما هداني إليه، وأعانني عليه من استنباط هذه السُّنن العظيمة وشرحها، ولا أودُّ أن أُخفي العناء الذي وجدته في كتابتها بسبب انعدام المراجع التي تساعدني في توضيحها؛ حيث إني لم أعثر في الكتابات التي تحدَّثتْ عن السنن الربانية في الخلق على أي شيء يتَّصل بما تحدثتُ عنه، وهذا جعلني أُغفل المراجع التي استفدت منها بسبب أن تلك المراجع لم تعرض ما عرضته من معلومات على أنه شرح لسُنَّة من السُّنن، ولهذا فإن الإحالة إليها ستكون غير مفيدة، بل قد تكون مضلِّلة. وأرغب هنا في أن أشير إلى الأمور التالية:

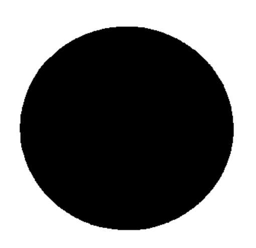
١ - أحيانًا يكون بين السُّنن نوع من الاشتباك والتداخل، وهذا يضطر المؤلف إلى تكرار بعض الأفكار والشواهد بطريقة غير مقصودة، والحقيقة أن التكرار لا يخلو من فائدة؛ لأن العادة جرت بأن ما يتكرر هو في الغالب محوري وجوهري.

٢ - قد أطلت في بعض السنن بسبب كثرة تشعب المعاني المتعلقة بها، مما جعلني أشعر بأن الاختصار سيكون مُخلًّا، وسيحرم القارئ من الاطلاع على بعض المعلومات المهمة.

٣ -أتوقع أن كثيرًا من القُرَّاء سوف يتساءلون عما إذا كنت سأكتب جزءًا ثالثًا لهذا الكتاب، والجواب: أنني لا أعزم في الوقت الحالي على كتابة جزء ثالث مع أن لدينا الكثير الكثير من العناوين ذات البعد الفكري العميق؛ وذلك لأن هناك فرقًا بين الفكرة والسُّنَّة، الفكرة خلاصة مركَّزة لحصيلة عمل العقل في الأفكار والخبرات المتراكمة، أما السُّنَّة فإنها ليست شيئًا نصوغه أو نركِّبه، وإنما شيء نكتشفه، ثم نخضع له، أو نتكيف معه. هذا وإني لأسأل الله أن يبارك في هذا العمل، وينفع به إخواني القُرَّاء، ويجعله في صحيفة أعمالي، إنه سميع مجيب.

المؤلف

●●●●



فهرس الأفكار

● فَطَر الله - تعالى - الأشياء على الميل إلى الامتلاء والنفور من الفراغ بوصفه شيئًا يقود إلى العدم، أو يشي به.

● حين يعجز أي بلد عن توفير مشترك أعظم يجمع أبناءه، فإن الذي يحدث حينئذ هو لجوء كثير من الناس إلى النفخ في الانتماءات الفرعية؛ ليجعلوا منها شيئًا يربط بعضهم ببعض.

● كثيرًا ما تكون نسبة الأرباح في أي صفقة تجارية مرتبطة بنسبة ما فيها من مخاطرة.

● من النادر أن تتوفر فرص استثمارية كبيرة وآمنة، وتستمر مع ذلك مدة طويلة.

● في الماضي كان المتوفر من المعرفة المطلوبة لتفسير الظواهر المختلفة ضئيلًا مما دعا الإنسان إلى اللجوء إلى الخرافة والأسطورة والخيال.

● حين يسمع الإنسان حكاية، وينسى بعض أجزائها، فإنه يُعمل مخياله في توليد أجزاء تتناسب مع ما تبقى في ذاكرته منها.

● الذين يتابعون الواقع، ويراقبونه هم الذين يظفرون بفُرصِه السانحة.

● إن ما يعاني منه كثير من الشباب والفتيات من فراغ روحي وفكري قد دفعهم إلى الاهتمام بالتوافه، وأقعدهم عن طلب المعالي.

● مبدأ الزوجية من أعظم المبادئ التي أرساها الخالق - سبحانه - في الكون.

● حين تثور الروح، فإن الجسد يبذل جهدًا هائلًا من أجل الاستجابة لثورتها وتبليغها مرادها.

● حين تُهزَم الروح وتستَكين يبدو الجسد وكأنه محطَّم.

● الروح مهما كانت متوهجة ومندفعة فإن إنجازها وتأثيرها يظلُّ إلى حدٍّ بعيد خاضعًا لإمكانات الجسد.

● الجسد هو مأوى الروح، وهو أداتها في تحقيق الرغبات.

● حين يتقدَّم الإنسان في السِّنّ، ويصاب الجسد بالوهن، فإن أشواق الروح تصبح عبارة عن أمنيات لا تجد سبيلًا للتحقق، مما يدفع بها نحو الذبول.

● يصعب أن يكون التعلق الروحي بين الزوجين متوهجًا ما لم يستند إلى مقومات ومعطيات معقولة ومدرَكة.

● بالعمل الشَّاقّ والمثابرة وحسن التخطيط يمكن للإنسان أن يخفف من آثار شُحّ الموارد وضعف الإمكانات.

● إن التناسق هو أهم معيار من معايير الجمال، وهو كما نعرف علم أو هندسة علاقات، فالشيء لا يصبح جميلًا إلا من موقعه بما يحيط به.

● ما دام كل شيء يتأثر بمحيطه، فإن علينا أن نهتم اهتمامًا كبيرًا بالبيئة، البيئة في المنزل والمدرسة والعمل.

● أنت لا تستطيع تغيير أفكار الناس وأخلاقهم على نحو مباشر؛ ولهذا فالأفضل أن تضعهم في بيئة تحملهم حملًا على الصلاح والرشاد.

● فهم العلاقات المؤثرة يتطلب منا تعميق مفاهيم النسبية والتعددية؛ حيث إن الأشياء لا تتبدى للناس في مظهر واحد، ولا ينظرون إليها من زاوية واحدة.

● إنني من خلال تأمل سيرورة الأفكار والنظم والأوضاع والعلاقات وجدت أنها تنتقل من الضيق إلى السعة، ومن البساطة إلى التركيب تناغمًا مع اتساع الكون.

● في المدن تكون الكثافة السكانية عالية، وهذا يرفع درجة التوتر بين الناس مما يجعلهم دقيقين في تعاملهم وحذرين تجاه الإساءة لبعضهم.

● على مدار التاريخ كانت التقنية هي التي تطور حياة الناس، من خلال ما تنتجه من أدوات جديدة، وكثرة الأدوات من جهتها تؤدي إلى تعقيد النظم المشغِّلة لها.

● ما يختلف باختلاف الزمان والمكان جاء في الشريعة الغراء مجملًا، وما لا يختلف باختلافهما جاء في الشريعة مُفصَّلًا؛ حيث لا تكون الحاجة إلى الاجتهاد كبيرة.

● نحن نعتزُّ بجهود السلف، ونحترمها، ولكن علينا أن نفرق بين جهودهم في فهم النصوص وبين جهودهم في فهم الحياة وتفسير الظواهر الكونية.

● إن تعقد كل النظم واتساع كل مجالات الحياة يجعل إنجازات السابقين ذات دلالات رمزية ليس أكثر.

● فطر الله - تعالى - الإنسان على السعي إلى الوضوح ومقاومة العمى و(اللاتكون).

● وجد الإنسان في (التصنيف) شيئًا عظيمًا يجعل تفكيره اقتصاديًا وأقرب إلى الرشد، ونحن نعرف أن التصنيف قائم على المقارنة.

● قد لا نستطيع إصدار حكم عادل من غير المقارنة بين الشيء الذي نحكم عليه وبين الأشياء التي تشبهه، وتلك التي تختلف معه.

● من المؤكَّد أنه ليس هناك إنسان لا يقارن، ومن المؤكَّد أنه لا يستطيع أي إنسان أن يدفع عنه تلك الرغبة الجامحة في أن يقارن.

● نحن لا نستطيع الحصول على مشاعر الرضا عن الوضع الشخصي من غير المقارنة، لكن المقارنة الجيدة ليست منتجًا عقليًا، وإنما هي منتج ثقافي.

● يرفض كثير من الناس المقارنة حين يشعرون أنها ليست في مصلحتهم، وذلك من خلال ادعاء الخصوصية والغيرية.

● نحن في حاجة إلى المقارنة التي تساعد على التفوق على ذواتنا، وذلك يتمُّ حين نقارن ما نحن عليه اليوم بما كنا عليه في الماضي على المستوى الفكري والشعوري والسلوكي.

● لا تكون المقارنة صحيحة إلا حين تكون أقرب إلى الكمال، وذلك بتوفير أكبر قدر ممكن بين المقارَن والمقارَن به.

● المقارنة عملية دقيقة جدًّا، ويجب أن نحذر من أن توقعنا في فخاخ مثل: فخاخ الغيرة والحسد، والكبر والغرور، واليأس والإحباط.

● لدى كثير من شباب الصحوة شهية كبيرة إلى المقارنة بين العلماء والدعاة... وهذا يجعل كثيرًا من تصنيفاتهم يقوم على الظنون والأوهام.

● مما فطر الله - تعالى - الأشياء عليه أمران: النقص والافتقار؛ حيث لا يستطيع أي شيء القيام بذاته والاستغناء المطلق عن غيره.

● العلائقية صفة دائمة لكلِّ الأشياء، وهي من علامات الافتقار.

● الانغلاق يعني بوجه من الوجوه الاختناق والانحسار والتجذُّر في النقص.

● الانفتاح يُدخل الأشياء في وضعية السيرورة والتحول.

● إن كل شيء نراه يحتاج إلى أن ينخرط في علاقة مع شيء آخر، وكثيرًا ما تكون هذه العلاقة هي معبر التكامل بينهما.

● لا تكامل من غير انفتاح، لكن ليس كل انفتاح ينتج التكامل.

● نحن لا نستطيع أخذ كل الحيثيات بعين النظر عند البلورة والتقييم.

● التربية تفاعل بين المُربِّي والمُتربِّي، ولا يكون التفاعل جيدًا إلا إذا حدث تفاعل شبه تامٍّ بين جميع الأطراف.

● التكامل بين شيئين كثيرًا ما يتطلب من كلٍّ منهما إدخال بعض التحويرات على ذاته أو بعض شؤونه.

● تجسّد العلاقة بين الزوجين مبدأ: (التنوع في إطار الوحدة).

● المنغلق فكريًّا يميل إلى رؤية الأشياء على أنها جامدة وثابتة.

● سنجد سبيلًا للتكامل حتى مع الأعداء إذا تصرفنا على أساس أن لدينا مشكلات ليس لها حلول إلا لديهم، وإذا تصرفوا على أساس أن لديهم مشكلات ليس لها حلول إلا عندنا.

● الانفتاح الجيد هو الذي يمكننا من الحفاظ على جوهر ما لدينا مع مساعدتنا على إنعاشه وإثرائه، ونقده وتطويره.

● النزوع إلى التوازن من الأمور التي فطر الله - تعالى - الأشياء عليها.

● من أكثر الأشياء انتشارًا في الحياة العامَّة ذلك الاتهام المتبادل بين الناس بعدم التوازن.

● لا يستطيع المرء أن يكون متوازنًا من غير إدراك جيد، لإمكاناته وأهدافه وحاجاته وواجباته ثم التصرف وفق ذلك على مقدار الوسع والطاقة.

● نحن قد لا نعرف أهمية التوازن في حياتنا إلا إذا استحضرنا صورًا ومواقف اختل فيها التوازن.

● بين فقه التوازنات وفقه الأولويات ترابط شبه مستمر.

● بما أن فقه الموازنات لا يكتمل فإن فقه الأولويات - والذي ينبنى عليه في أحيان كثيرة - هو الآخر لا يكتمل أيضًا:

● حين نوازن بين شيئين هما من قبيل الكيوف والصفات، فإننا في الحقيقة نوازن بين شيئين غير واضحين.

● كل محاولات وعمليات اكتشاف التوازن مشتركة في الاستعصاء على القطع والحسم.

● كلما كانت المسألة التي نريد اتخاذ موقف متوازن تجاهها كبيرة وواسعة صار ما نحصل عليه من توازن أبعد عن اليقين والجزم.

● المبالغة المفرطة في أي شيء هي مكمن مقتله.

● بما أن كل شيء هو جزء من منظومة من المنظومات، فإن المبالغة فيه تُدخل نوعًا من المزاحمة على بعض أجزاء المنظومة.

● لكل شيء منفعة حدّية، وحين يتجاوز شيءٌ ما حدود منفعته، فإنه يضع نفسه على طريق التلاشي.

● إن القوة التدميرية الهائلة للأسلحة النووية هي نفسها التي تجعل استخدامها شبه مستحيل.

● التربية المثالية هي التربية التي تنطوي على أقل قدر ممكن من التهديد والعقاب والقسوة.

● كثيرًا ما يدفع التطرف في مديح شخصٍ ما السامعين إلى استحضار نقائصه والتفتيش عن عيوبه.

● إن الإنسان تعلَّم من تاريخه الطويل أن الفوضى موصولة بالغموض.

● أول نتائج زوال الحدود بين الأشياء يتمثل في ارتباك عقولنا في فهم الأشياء التي زالت الحدود الفاصلة بينها.

● عقولنا غير مؤهلة في تركيبها الأصلي إلى إدراك الحدود الدقيقة التي تنقلب عندها الفضائل إلى رذائل والسلبيات إلى إيجابيات.

● القصور في التوصيف وغموض القوانين من الأمور التي تُحدث الفوضى، وتسمح بها.

● يعني الأمن على المستوى الموضوعي غيابَ التهديد ضد القيم المركزية لدى الناس؛ ومنها: قيمة الحياة والمعتقد والمال.

● علينا أن ننظر إلى الوضوح في كلّ شيء على أنه فضيلة من أعظم الفضائل.

● تقسيم أي قضية إلى وحدات أو أجزاء صغيرة يسهّل عملية فهمها، كما يسهّل التعامل معها.

● الشعور بالمسؤولية شعور فطري موجود لدى كل الناس.

● الشعور بالمسؤولية هو شعور المرء بأنه قادر على أن يلزم نفسه بإنجاز عمل أو وقوف موقفٍ ما مع الشعور بالقدرة على الوفاء بذلك.

● المواقف تقوم على المشاعر، وتتولد المشاعر من التصورات؛ ولهذا فإن تطور التصورات سيعني تطور المشاعر والمواقف.

● انسجام السلوك مع المشاعر يحتاج إلى مادة لاصقة والإرادة الصلبة هي تلك المادة.

● التربية هي الأداة الأساسية لتوليد الشعور بالمسؤولية لدى الناس.

● التربية هي التي تحوّل المعلومات والمعطيات المعرفية والأخلاقية.. إلى ثقافة، أي قناعة وسلوك يتعاليان على الجدال.

● من غير التربية ستظل المعاناة من الهوة الفاصلة بين ما نعلم، وما نعمل ماثلة للعيان.

● كلما مضى الإنسان في طريق الحضارة انصرف جهده إلى تلبية الحاجات الأقل إلحاحًا والأكثر اتصالًا بالرفاهية.

● التطوع بما يتجاوز حدود الواجب وحدود المألوف يشكل أعظم مصدر للسعادة والإحساس برفاهية الروح.

● كلما تحضّر الإنسان أكثر اتسعت دائرة مسؤولياته.

● الإنسان الذي يعيش في بلد مُتقدّم يشعر بإشباع حاجاته الأساسية؛ ومِن ثَمّ فإنه يتجه إلى تلبية حاجاته الأخلاقية، والتجاوب مع القيم النبيلة.

● بداية الخير أن يقوى شعورنا بمعاناة الآخرين.

● لا ينمو الشعور بالمسؤولية إلا حين تتوفر حرية الاختيار بين شيء وشيء آخر.

● عدم توصيف ما هو مطلوب من الإنسان يغريه بالتهرب من مسؤولياته وواجباته.

● بما أن قدراتنا ومواهبنا محدودة، فإن حصولنا على الكمال ليس شيئًا أكثر من مناهزته ومقاربته.

● الفعل الإنساني مستمر في كل الاتجاهات، ولهذا فإن الأفضل والأسوأ قد يكونان فيما هو قادم، وليس فيما مضى.

● ليس من الصواب القول: كل شيء نسبي، وذلك بسبب وجود كثرة المطلقات؛ فالإيمان بوجود الصين أو الهند أو لندن هو إيمان عامّ مطلق لدى كلّ الناس وفي كلّ مكان.

● حين نتجه نحو الأصول والكليات، فإننا نتجه في الحقيقة نحو المُطلقات، وحين نتحدث عن الجزئيات والتفاصيل، فإننا نتحدث عن الأمور النسبية.

● الناس وإن كانوا يؤمنون بمطلقية القيم إلا أنهم حين يدركونها فإنهم يدركونها ويتعاملون معها على أنها نسبية.

● على مدار التاريخ كانت الثقافات الشعبية عبارة عن ملوّنات لطبائع البشر.

● الاعتقاد بنسبية نجاحاتنا يحمينا من الغرور والكبر، والاعتقاد بنسبية إخفاقاتنا يحمينا من اليأس والقنوط.

● إدراك الوعي البشري للقيم على أنها نسبية باب واسع للقعود عن المكرمات والوقوع في الخطايا.

● **تقف الحكمة الإلهية خلف كل الأشياء الجميلة والدقيقة وخلف كل التوازنات العظيمة.**

● **لوجود كل شيء تكلفةٌ ما، وتأتي وظيفته لتخفف من وقع تلك التكلفة.**

● تكاليف وجود الأشياء ثابتة، ولو لم نعرفها، أما اكتشاف منافع الأشياء ووظائفها، فإنه يحتاج إلى بحث واجتهاد وعمل.

● تكمن قيمة الأشياء في الوظائف والأدوار التي تؤديها.

● فقدان الشيء لوظيفته كثيرًا ما يعني فقدان الوجود.

● إذا عاش المرء مئة سنة، فإنه يكون - في الأعم الأغلب - قد فقد كل وظائفه في الحياة، فإذا دخل في غيبوبة مديدة صار أشبه بالأموات؛ لأنه آنذاك لا يؤدي أي دور.

● حين يكفّ (الزواج) عن أداء وظائفه ومنافعه كافّة، فإن المتوقع هو الطلاق؛ لأن بني البشر لا يتحملون التكاليف والقيود من دون أي مقابل.

● على المرء أن يفتح عيونه جيدًا على وظائفه في هذه الحياة؛ لأنها هي المسوِّغ الحقيقي لوجوده فيها.

● ما دام الشيء بوظائفه، فإن الكثير من الوظائف يعني وجودًا مضاعفًا.

● اعتقادنا بأن لكلِّ شيء ثمنًا يجب دفعه يجعلنا في حالة من الموازنة الدائمة بين ما سنأخذه، وبين ما سندفعه.

● حلولنا لمشكلاتنا هي دائمًا غير كاملة؛ لأن الظروف المحيطة بنا والمعطيات الناجزة بين أيدينا ليست كاملة.

● التذمر عبارة عن انزعاج داخلي بسبب شعور الإنسان بوجود أشياء أو تصرفات... لا تُرضيه.

● إن شيئًا من التذمُّر ضروري جدًّا لتوازن الشخصية واستقامة الحياة العامَّة.

● التذمُّر دليل على وعي الإنسان بمحيطه، كما أنه دليل على امتلاكه درجة مَا من الحيوية العقلية والروحية.

● لو رجعنا إلى التاريخ لما وجدنا أي أهل زمان راضين عن زمانهم.

● من العسير جدًّا وضع حدود فاصلة بين ما هو معتدل من التذمُّر، وبين ما هو مؤشر على وجود خلل.

● ألاحظ أن التذمر في بعض البلدان، هو ثقافة عامَّة يتلقفها الصغار عن الكبار.

● التقدم الحضاري (يعقلن) الشكوى، ويجعلها أكثر موضوعية.

● مما يفرِّق بين النقد والشكوى وجود تفهم عميق لأسباب ما نشكو منه وطرح الحلول والبدائل لمعالجته.

● كلما كان المرء عاطفيًا أكثر اتسعت مساحة الشكوى لديه.

● تتضخم الشكوى المبهمة لدى الانطوائيين

ولدى الناس المعزولين عن الواقع.

● يشكو بعض الناس من أمورٍ هم متلبسون بها، وذلك من أجل صرف الأنظار عنهم.

● يبحث الشاكون عن نوع من الدعم المعنوي، أو الفكري أو المادي، وعلى المجتمع تقديم المساندة لهم في ذلك.

● لا ينبغي أن يشكو الإنسان للناس مما يحلّ به من مصائب، وإنما عليه الصبر والاحتساب وطلب العون من الله تعالى.

● دائمًا هناك أمور لا تسر، وأمور غير كاملة، وعلينا فهم ذلك والتكيف معه.

● لنتخذ من الشكوى من شيء مَا من الأشياء بدايةً لإصلاحه.

● حين يعيش الإنسان في ظروف صعبة، فإنه يفقد الحساسية المطلوبة للتفريق بين ما يتم الإقدام عليه بدافع الضرورة، وبين ما يتم الإقدام عليه بدافع الخوف أو الشهوة....

● حين تكون الظروف بالغة السوء، فإن كل الخيارات وكل الموازنات تكون سيئة.

● ما دامت الموازنات مرتبطة بالبيئة والمعطيات، فإن العمل الاستراتيجي ينبغي أن يتركز على تحسين الظروف التي نعيش فيها.

● كل شيء ينشأ تحت الضغط ينال حظه من التشويه.

● شيء من الضغط المعتدل يعد شيئًا إيجابيًّا؛ لأنه يحسِّن مستوى اليقظة الذاتية.

● التحدِّي الذي يواجهنا يتمثل في كيفية السماح للطبيعة الإنسانية بالحفاظ على جوهرها مع أقلمة الفرد مع القوانين والأعراف السارية.

● لا يستطيع أي مجتمع الحفاظ على وحدته من غير ممارسة شيء من الضغط على بعض أفراده.

● إن من التشوهات التي تصيب الرجال والنساء التأثيرَ السلبي في كيمياء الجسم وإضعاف الجهاز العصبي وجهاز المناعة، مما يعرِّض الجسم للأمراض المعدية.

● إن سوء كثير من نظم الامتحانات جعل الطلاب يلجأون إلى الغشّ والاحتيال والرشوة.

● من الملاحظ بوضوح أن ضغط العاطفة حين

يستمر بقوة، ولمدة طويلة فإنه يشوّه الكثير من الأفكار والعقائد..

● ضغط المجتمع على أبنائه يولّد لديهم بعض أشكال المداهنة والنفاق.

● التحفيز وليس الضغط هو الوسيلة النبيلة والناجحة لجعل الناس يفعلون ما يجب عليهم أن يفعلوه.

● يمكن لنا أن نشتت وطأة الضغوط علينا من خلال احتساب الأجر عند الله، ومن خلال الرياضة والمرح والتواصل الاجتماعي.

● كلما تمكّن الناس في المدنية جنحوا نحو المعاني الأنثوية.

● روح البداوة والحياة الريفية ذَكَرٌ، وروح الحياة الحضرية أنثى.

● نفوذ المرأة في المدينة أقوى من نفوذها في القرية، ونفوذها في القرية أقوى من نفوذها في البادية، ولكل قاعدة شواذ.

● الاهتمام بالتفاصيل ودقائق الأمور شيء متمكن جدًا في طبيعة المرأة، وهو أيضًا أحد مظاهر التحضُّر.

● الحضارة تؤسّس في نفوس الناس الميلَ إلى اللطف والنعومة والرقة، ولا جدال في أن هذه المعاني موجودة لدى المرأة في أصل فطرتها.

● للمرأة ولَهٌ شديد بالتناسق الشكلي والاهتمام بالمظهر، ومن الملاحظ أن الحياة الحضرية تنزع إلى هذا اليوم.

● ربما كان انتشار الاهتمام بالمظهر والشكل على هذه الصورة المبالغ فيها بسبب سهولة تجويده، على حين أن إتقان المضمون دائمًا عسير ومُكلِّف.

● الإنسان كائن متكيف؛ لأن كثيرًا من تصرفاته عبارة عن استجابة للظروف والمعطيات المحيطة به.

● من الأهداف الكبرى للتقدم التقني جعل الإنسان يتكيف مع البيئة عن طريق تغييرها، وليس عن طريق تغيير نفسه.

● فطر الله - تعالى - الإنسان على النزوع إلى التمتع بالمرفهات والكماليات كلما وجد إلى ذلك سبيلًا.

● تظهر ثمار الذكاء في قدرتنا على استيعاب

الواقع بفرصه وتحدياته ثم إحداث استجابات ملائمة لها.

● التكيف مع البيئة في البلدان المتقدِّمة أصعب منه في البلدان المتخلِّفة؛ بسبب التعقيد والتركيب الذي توفِّره الحضارة.

● التكيف الجيد اليوم يتطلب معاصرة ومواكبة للمعطيات والمنجزات الجديدة.

● إذا أردنا أن نتكيف مع مصيبة فادحة، فلنحاول استحضار مشاعرنا تجاهها بعد ستة أشهر.

● إن المنافسة على كسب الرزق وفرص العمل، تصبح أشد كلما كان مستوى تعلم المتنافسين منخفضًا.

● يمكن للمرء من خلال الخيال واصطناع الجو الاحتفالي أن يتغلب على كثير من الضغوط، وأن يتجاوز الكثير من المشكلات.

● بعض الناس يفشلون في مواجهة بعض المشكلات، فيعمدون إلى إنكارها من خلال تزييف الواقع وتسمية الأشياء بغير أسمائها.

● الوجود يخضع لغابة من النظم والسنن المتوازنة والمتشابكة.

● كل الأنشطة الإنسانية تتم في ظلِّ نظم مفتوحة، ولهذا فإن نتائجها تظل موضع شكٍّ وتخمين.

● يخفق الكثير من النظم كما هو الشأن مع النظام التعليمي - مثلًا - في أداء وظيفته؛ بسبب عدم سيطرته على بيئته.

● بين القيم والمبادئ، وبين المصالح تعارض نسبي وليس تعارضًا مطلقًا.

● الحديث السلبي عن الاهتمام بالمصالح ينطوي على ضرب من المثالية، وفيه شيء من عدم التوازن.

● قد لا نعرف قيمة الاهتمام بالمصالح الخاصَّة إلا إذا تصوَّرنا الفاشلين في حياتهم وأولئك الذين صاروا عبئًا على مجتمعهم.

● مما يلفت النظر أن معظم ما نسميه (قيمًا) يتجلَّى في السلوك الاجتماعي للإنسان، وليس السلوك الفردي.

● تجمعنا القيم؛ لأننا نشعر عند الالتزام بها بوحدة الاتجاه وتجانس الطموحات والقيود.

● المصلحة الخاصَّة قادرة باستمرار على إنجاب

اللحظة المفصلية التي تضع حدًّا لتاريخ، وتفتح الباب أمام تاريخ جديد.

● من المهم أن نعترف دائمًا بمشروعية تعارض المصالح؛ لأن هذا يساعدنا على إدارة ما يحدثه من نزاع وصدام.

● أشد ما يؤذي في حالة الافتراق بسبب المصالح هو التطرف وتحويل الافتراق الجميل إلى عداوة ومناكفة.

● يتطلع الإنسان إلى معرفة كل ما يحيط به؛ لأن الجهل يُخيفه، ويربكه.

● المقارنة هي بنت الاختلاف، وبما أن الاختلاف يشكل طابعًا عامًّا للبشرية، فإن من الطبيعي أن نجدها في كل مكان.

● إذا كان الاختلاف هو أُمُّ المقارنة، فإن الغموض أبوها، ولولاهما، فربما لم نسمع بشيءٍ اسمُه المقارنة.

● الغموض الذي نشعر به حيال كثير من الأشياء له سبب رئيسي يتمثل في شيء مركَّب من قصور الدماغ وقصور اللغة.

● لا خصوصية من غير الاعتراف بشيء عامّ نحتكم إليه؛ كي يكون لخصوصيتنا معنى ومنطق.

● للمقارنة هدفان: فهم ما نشعر بغموضه من أوضاع ومعطيات، والثاني التفوق على الخصوم والمنافسين.

● الدخول في مقارنة يعني الولوج إلى التفكير في شيء مُعقَّد.

● كل النتائج التي نحصل عليها من وراء المقارنات هي نتائج ظنية.

● حين تكون المقارنة في سياق إيجابي، فإنها تكون إيجابية، وما يأتي منها في سياق سلبي مثل تأنيب الذات أو تأنيب الآخرين، فإنه يكون ضارًّا.

● من المهم حين نقارن أنفسنا بالآخرين أن نركِّز على المشاعر والمعطيات المعنوية، وأن لا نقتصر على الأمور الشكلية.

● التطرف في أي شيء لا يكون في مصلحة استمراره.

● كما أن العنف يقود إلى العنف، فإن الرفق يُجتذَب الرفق.

● تصبح الحياة شيئًا لا يُطاق حين تقوم توازنات

المجتمع على الظلم والعنف والغلو.

● إمساك الناس بنصاب التوسط والاعتدال دائمًا ضعيف.

● الإمكانات الكبيرة والرخاء الاستثنائي من الأشياء التي تحرض على العنف؛ حيث ينتشر البغي والتبذير والطيش في التعامل مع المال.

● ظروف الشدة والفاقة طويلة الأمد تخرج أسوأ ما في الإنسان على صعيد المهانة والخضوع.

● يقابل الناس في العادة التطرف بتطرف مثله؛ بسبب غياب نصاب التوسط والاعتدال عن الوعي وبعده عن الإدراك.

● إن في إمكان التطرف وما يستدعيه من تطرف أن يشوِّه إدراك كلِّ الأشياء، ولا سيما في حالة طول أمده واستقرار ركائزه.

● يُقابَل التطرف أحيانًا بتطرف مثله؛ لأن اللين مع المتطرف قد يرسل له رسالة خاطئة تغريه بالمزيد من التطرف.

● التطرف الفكري هو أساس كلِّ تطرف؛ لأنه هو الذي يولِّد المشاعر المتطرفة، وهو الذي يسوِّغ السلوك المتطرف.

● يؤدِّي الإملاق الثقافي إلى تطرف أصحابه؛ لأنهم يتعاملون مع كثير من وجهات النظر على أنها حقائق ثابتة، فإذا خالفهم أحد صاروا إلى القطيعة والمفاصلة.

● يتطرف بعض الناس أحيانًا بسبب تعلقهم ببعض الأفكار أو تقليدهم لبعض الأعلام على غير بصيرة.

● الانغلاق يولِّد التطرف؛ لأنه يحول دون التفاوض والحوار وتلقيح الأفكار.

● حين يكون لدينا حُكم شرعي في تصرف أو فعل، فإن العمل به يكون هو مركز الموقف المعتدل.

● تتجلَّى أفضل طريقة لمواجهة التطرف في تعزيز الأرضيات والقواسم المشتركة وجعلها نابضة بالحياة والحيوية.

● خفض التوتر واللجوء إلى الحوار من أهم ما يمهد لبلورة المواقف والرؤى المشتركة.

● لا شيء يخدم الاعتدال مثل فوز المجتمع بعدد كبير من المعتدلين.

● لدى معظم الناس أشواق إلى الوحدة،

ويصاحب تلك الأشواقَ الحذرُ من القيود والمشكلات التي تترتب عليها.

● الانحطاط عبارة عن تخلف روحي وأخلاقي ومادي شديد عن النماذج الحضارية والمدنية السائدة في عصر من العصور.

● (٩٠٪) من الشركات العملاقة موجود في الدول الصناعية، وهذا ليس بسبب أنها الأغنى فحسب، وإنما لأنها الأفضل إدراكًا لمنافع التكتلات الاقتصادية الكبرى في عالم مزدحم بالمتنافسين.

● من فضائل الرخاء المادي أنه ينقل كثيرًا من الناس من مرحلة الحرص على المزيد من المكاسب إلى مرحلة العطاء والاهتمام بالرمزيات.

● بين التخلف والانحطاط وبين التفكك تداخل على مستوى البنية والتكوين.

● حين تدخل أمة من الأمم في نفق الانحطاط، فإنها تدخله أوَّلًا على مستوى الأفكار والرؤى والمعايير وعلى مستوى النظر للواقع والمستقبل.

● التشتت والانقسام من ضرائب التخلُّف التي ينبغي أن تدفع عن طيب خاطر.

● وحدة المجتمع ليست شيئًا يحقِّقه الناس ثم يخلدون إلى الراحة، وإنما هو مشروع تحت الإنجاز.

● إن التصدُّع في الأمم والجماعات يشبه وحشًا كامنًا ينتظر الفرصة للظهور والانقضاض.

● حين يفقد الوطن القدرة على جذب كل الأطياف إليه، فإن الانتماءات المذهبية والعرقية والطبقية تصبح هي الأساس في تفتيت المجتمع وتقسيمه.

● الأصل هو التشتت والعيش في مجموعات صغيرة، وإنشاء الدول والكيانات يحتاج إلى تثقيف وجهود وعمل على الأرض.

● لا شيء يساعد على وحدة المجتمع مثل احترام الخصوصيات، والتسامح مع التلوينات الثقافية.

● علاقة الإنسان بلغته علاقة تحدٍّ ومعاناة، فهو يعاني عند تعلُّمها وعند تعليمها وأيضًا عند استخدامها.

● على الرغم من كل مساعي البشرية على صعيد الوضوح والتوضيح، ما زال سوء الفهم لما

يُقرأ ويُسْمَع، هو سيد الموقف.

● تجمع العربية بين الدقة المتناهية في التعبير وبين المرونة في الدلالة، وكلاهما مصدر إرباك للّاغين بها.

● يسمي الناس الأشياء بغير أسمائها من أجل التخلص من أعباء تلك الأسماء.

● وجود محترفين في التلاعب بالألفاظ يشجع على تغيير أسماء الأشياء.

● في البلدان التي يسود فيها القهر والتسلط يُسمي الإعلام الأشياء بغير أسمائها، ويسعى المتنفذون إلى منع الناس من تسميتها بأسمائها.

● ذكر أنصاف الحقائق أسلوب واسع الانتشار على صعيد طَمْسِهَا وتشويه إدراكها.

● العلاقة بين الاسم والمسمى تكون نقية في بداية الأمر، ثم تفقد ذلك النقاء بسبب شوائب الاستعمال، وبسبب القيود التي تضعها الثقافة والمصلحة.

● من النادر أن نجد شخصًا يسمي الأشياء بأسمائها في كلِّ الأحوال.

● إذا لم نستطع تسمية الأشياء بأسمائها لأمرٍ ما فإن علينا أن نمتنع من تسميتها بغير أسمائها.

● التصلُّب موصول بالبداوة والحياة البدائية من جهة وموصول بالتصدُّع من جهة أخرى.

● الليونة لا تُذم ولا تُمدح لذاتها، وإنما تمدح؛ بسبب ملاءمتها للحاجات والمواقف وملاءمتها لما هو خير وحق.

● المرونة هي أساس التكيف، فلا تكيف من غير مرونة.

● التصلُّب الذهني هو العامل الأساسي في توليد الحديَّة في التفكير، وفي انعدام رؤية الألوان الفرعية والتفاصيل الجوهرية.

● المُتصلِّب فكريًّا يخشى من المعلومات والعلاقات الجديدة، وهذا يعزله عن فهم كثير من القوى والمعطيات المهمة.

● الخرافة ذات بنية متماسكة، ولذلك فإن الخرافيِّين متُخشِّبون ذهنيًّا.

● العلم يقوم على أساس المرونة؛ لأن نظرياته وقواعده وقوانينه.. قابلة للتطور والتغيير.

● ليس الذَّكي هو الذي يطرح الكثير من الأفكار، وإنما الذكي الحق هو الذي يستطيع تقييم ما يقرأ، وما يسمع واتخاذ موقف راشد منه.

● العالم المادي هو عالم علاقات بامتياز.

● حين تتطور ظاهرة من الظواهر، فإن ذلك نتيجة وجود علاقات جديدة، واختفاء علاقات قديمة.

● ليس وجود الأشياء هو الذي يملي علينا تكوين معرفة حولها، وإنما العلاقة التي نقيمها معها.

● كلَّما اقترب الواحد مِنَّا من شيء أكثر وجب عليه أن يعرف عنه أكثر؛ لأن تبادل التأثير والتأثر معه سيكون أكبر.

● إنما كانت كلمة (لا أعلم) نصف العلم؛ لأن المرء حين يقول: لا أعلم، يكون قد تخلَّص من أحد نوعي الجهل، وهو الجهل المُركَّب.

● وَهْمُ المعرفة هو الذي يجعل الناس غارقين في الجهل.

● أخطر أنواع الجهل نوعان: جهل الإنسان بنفسه وجهل الإنسان بخالقه سبحانه.

● تتمحور البنية العميقة للثقافة الإسلامية حول قطبين أساسيين (الله - الإنسان) أما الدنيا فهي دار ابتلاء ومزرعة للآخرة.

● الإنسان والطبيعة هما قطبا الثقافة الغربية عامَّة، ولا يُذكر الله إلا في مقام الاستعانة به على أمور الدنيا.

● مشكلة كثير من الناس أنهم يظنُّون أنهم يعرفون كلَّ شيء، ولذلك فإنهم لا يسألون، ولا يتعلمون.

● ضعفنا هو الذي يُغري الآخرين بالتدخل في شؤوننا، على خلاف ما يظنه بعضهم من أن تدخل الآخرين في شؤوننا هو الذي أضعفنا.

● معقد نجاح التربية في الفهم الدقيق لما نريده من الطفل، وما يريده الطفل منا، والعمل وفق ذلك الفهم.

● نحن نعيش في عالم يزداد خطورة، وكلُّ شيء فيه إلى تسارع، وإلى تعقيد.

● العلاقة بين الهُويَّة والتعددية علاقة نفي؛ حيث تنكمش مدلولات (الهُويَّة) حين يتجه الناس نحو التعددية.

● وعي الفرد بذاته نابع من وعيه بهويته وانتمائه.
- حين يضمحل وعي المرء بهُويَّته فإنه يشعر بعتمة في رؤيته لنفسه وللعالم.

● حين نتحدث عن الهُويَّة فإن الغموض يكون هو سيد الموقف، بسبب غموض حدودها، وغموض علاقاتها، بقضايا مثل الديموقراطية والعرقية والقومية.

● إذا رأيت الناس يبحثون في ملامح هُويَّتهم ومحدداتها، فاعلم أنها باتوا يشعرون أنها صارت مُهدَّدة.

● إن في كلِّ هُويَّة عناصر ثابتة وعناصر قابلة للتحول، وهذا بالضبط هو الذي يساعدها على التكيف والاستمرار.

● إن من عادة الناس أن يختصروا الهُويَّة بكل مقوماتها في مقوِّم واحد، وهو المقوِّم المُهدَّد بالفناء.

● التقدُّم الحضاري والعمراني لا يعمل لصالح الهويات، وإنما يعمل لصالح التعددية والاعتراف بالتنوع.

● في البيئات الأقل نموًّا يكون التواصل مع الخارج محدودًا، وهذا يؤدِّي إلى تضخم الهُويَّة.

● مع التقدم الحضاري يصبح الناس أكثر واقعية، وهذا كثيرًا ما يكون على حساب شعورهم بهوياتهم، والتي تنزع إلى المثال وتتَّسم بقدر كبير من الثبات.

● البكاء على أطلال الهُويَّة الإسلامية لا يجدي نفعًا، ولعلَّ الأنجع منه أن نقوم بتحديد الأجزاء الصلبة من هويتنا، ثم نقوم بالعمل على صيانتها وتجسيدها في الحياة الخاصَّة والعامَّة.

● على مدار التاريخ كانت مسائل الهوية مرتعًا للوهم والجدل.

● قضايا الهوية من القضايا الحساسة، وينبغي التعامل معها بحذر وانتباه.

● هندسة الإنسان تدل على عظمة خالقه سبحانه.

● الغرائز قوى بيولوجية داخلية، تدفع المرء إلى أن يتحرك بطريقة معينة.

● كثرة حاجات الكائن الحي دليل واضح على اتساع مدارج الكمال التي يدرج فيها.

● إن مما يفرِّق بين الإنسان والحيوان أن حاجات الحيوان غائية، وحاجات الإنسان عبارة عن وسائل لغايات أسمى.

● المسلم الملتزم يشعر أن كل إنجازاته ومكتسباته على كل الأصعدة ليست أكثر من وسائل للفوز برضوان الله تعالى.

● إن محددات الغريزة، وإملاءاتها صارمة وشاملة، أما متطلبات الوعي والثقافة والتربية، فهي مَرِنة وخاصَّة.

● حين يُحرم المرء من إشباع غرائزه الأساسية، فإنه كثيرًا ما يكون مستعدًّا لارتكاب الفظائع.

● يرتقي الإنسان على مقدار ما ينجزه في توسيع المسافة الفاصلة بينه وبين الحيوان.

● احترام الناس لبعض المبادئ لا يعني أنهم يخضعون لها في سلوكهم على نحو آلي.

● إن التزام أي شخص بأي مبدأ يؤمن به، هو التزام نسبي ومنقوص بسبب القيود التي يجدها عند التطبيق العملي.

● إن كل الناس الأسوياء يحاولون تحقيق مصالحهم في إطار مبادئهم، لكن يختلف النجاح في ذلك من شخص إلى آخر.

● تعشُّق الحرية من قبل جميع البشر لا يعني أن كل الناس أحرار، فعدم توفر البدائل يجعل من الاختيار - والذي هو المعنى العميق للحرية - أمرًا غير ممكن

● كلما كانت البيئة أضيق كان تواصل الناس أفضل.

● يعلمنا التاريخ أن الفضيلة يمكن أن تختفي من الواقع، وتغيب عن الوعي، إذا لم تجد من يحميها، ويعمل على نشرها.

● قد ثبت بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ بأن النزاهة المالية مرتبطة بالاستقرار وحرية الإعلام.

● كلما خطونا خطوة إلى الأمام على صعيد بحث الشأن الإنساني انفجرت في وجوهنا أسئلة جديدة تحتاج إلى أجوبة ليست جاهزة.

● الفرادة التي يتَّسم بها كل فرد من بني البشر تجعل تقنين الشأن الإنساني العام في غاية الصعوبة.

● مهما تعلمنا، ومهما كان وعينا النقدي عظيمًا، فإننا لن نستطيع التخلص من الارتباك في فهم كل ما هو بشري.

● إن السلوك الإنساني لا يخضع دائمًا للمنطق

والتفكير المنهجي بسبب فوران العاطفة وتسلط الشهوة...

● وعي الناس بمصالحهم مشروط دائمًا بالحالة الحضارية التي تتلبَّسهم.

● كلما كانت البيئة أغنى بأدوات الرفاهية وأساليب العيش المتنوع صار لدى الناس وعي أقوى وأوسع بما يجلب لهم النفع، ويدفع عنهم الضرر.

● التقدُّم الحضاري لا يجعل وعي الناس بمصالحهم أقوى فحسب، وإنما يوسِّع دائرة تلك المصالح أيضًا.

● لو قُدِّر لزهاد القرون الأولى أن يعيشوا في زماننا لانغمس معظمهم فيما ينغمس فيه صالحو زماننا من رعاية المصالح والتمتع بالمرفهات.

● أبناء المدن أقدر على إيجاد الملاءمة بين مبادئهم ومصالحهم.

● يجب أن نرفع شعار: « نحقق مصالحنا في إطار مبادئنا، وفي إطار واجباتنا أيضًا ».

● الإنسان بطبعه كائن مُقلِّد، النبل يغريه بالنبل، كما يغريه التثاؤب بالتثاؤب...

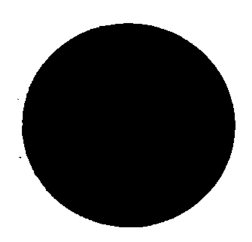
● نجاح التقليد في الأمور الكبرى وفي المجال الصناعي يحتاج إلى معرفة وخبرة بل يحتاج إلى شيء من الإبداع والابتكار.

● لا تنتشر التقاليد الاجتماعية بسبب ما فيها من نفع أو منطق، وإنما بسبب كثرة ونوعية من يتبناها، ويدافع عنها.

● نحن غارقون في تقليد محيطنا كغرق جبل الجليد في الماء.

● كلما صرنا إلى الكليات والأصول وجدنا أن التقليد أمر لا مفرَّ منه، وكلما صرنا إلى الفرعيات والجزئيات اتسعت أمامنا مساحات الاجتهاد وإمكانات الاختلاف.

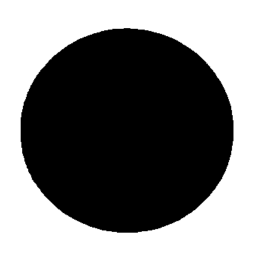
● إن من يحاول ويخطئ أفضل بكثير ممن يمعن في التقليد، ويحذِّر من كلِّ جديد.



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات





السيرة الذاتية للمؤلف

أ. د. عبد الكريم بكار.

● **يُعدُّ د. عبد الكريم بن محمد الحسن بكار أحد المؤلفين البارزين في مجالات** التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى تقديم طرح مُؤصَّل ومُجدَّد لمختلف القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة والفكر والتربية، والعمل الدعوي.

● وللدكتور بكار حوالي ثلاثين كتابًا في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجًا واسعًا في مختلف دول العالم العربي، كما قدم د. بكار للمكتبة الصوتية أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنشورة في مكتبات التسجيلات الصوتية.

● ويحرص د. بكار على أن يقدم رؤاه الفكرية والتربوية من خلال مشاركته الواسعة في مختلف الصحف، والمجلات العربية المُتخصِّصة والعامَّة؛ حيث يكتب د. بكار مقالات دورية في مجلة (البيان) اللندنية، ومجلة (الإسلام اليوم) الشهرية،

ومجلة (مهارتي) الصادرة عن جامعة الملك سعود، وموقع (الإسلام اليوم)، كما يشارك باستمرار منذ أكثر من عشرين سنة بمقالاته ودراساته في عدد من المجلات الدورية الأخرى.

● بالإضافة إلى ذلك، للدكتور بكار نشاط مُكثَّف على صعيد المحاضرات، والندوات الفكرية والثقافية والدورات التدريبية، وشارك في المئات منها في المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا ولبنان ومصر والأردن وماليزيا والسودان. كما يقدم حاليًا برنامجًا أسبوعيًا في قناة (دليل) الإسلامية باسم: « آفاق حضارية »، وبرنامجًا شهريًا بقناة (المجد) باسم: « معالي »، وكان د. بكار قد قدم برنامجًا تلفزيونيًا أسبوعيًا في قناة (المجد) باسم: « دروب النهضة » لمدة عامين، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا باسم: « بناء العقل في القرآن الكريم »، وبرنامجًا إذاعيًا أسبوعيًا آخر باسم: « العلاقات الإنسانية في المجتمع الإسلامي » استمرًا لمدة سنتين بإذاعة القرآن الكريم بالرياض؛ بالإضافة لاستضافته في برامج عديدة على قناة (الرسالة)، وقناة (اقرأ)، وقناة (الناس) والتلفزيون السعودي.

● من جهة أخرى قاد د. عبد الكريم بكار مسيرة أكاديمية طويلة، دامت (٢٦ عامًا) بدأت عام: (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم (السعودية)، لينتقل بعدها إلى جامعة الملك خالد في أبها في عام: (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، حصل خلالها على درجة الأستاذية في عام: (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، وليبقى فيها حتى استقال منها عام: (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)؛ ليتفرغ للتأليف والعمل الثقافي والفكري؛ حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

● وتركزت المسيرة الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللُّغويات، والتي شملت مواد المعاجم اللُّغوية، دلالة الألفاظ، الأصوات اللُّغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات، النحو، الصرف، المدارس النحوية، وتاريخ النحو. كما قدَّم د. بكار خلال تلك الفترة عددًا من الأبحاث والكُتُب المُتخصِّصة والتعليمية في مجال اللُّغويات، وأسهم في النشاط الأكاديمي للجامعات التي عمل بها من خلال رئاسته لعدد كبير من اللِّجان العلمية، ورئاسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة لعدة سنوات، ومساهمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية.

● **حصل د. عبد الكريم بكار على البكالوريوس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، وعلى الماجستير في عام: (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، والدكتوراه في عام: (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م) من قسم أصول اللغة بالكلية نفسها** بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالة الدكتوراه: « **الأصوات واللهجات في قراءة** الكسائي ».

● ود. بكار عضو في المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي (الرياض)، وعضو الهيئة الاستشارية بمجلة (الإسلام اليوم) (الرياض)، وعضو الهيئة التأسيسية لقناة (دليل)، وعضو في مجلس الأمناء لقناة (سنا) الفضائية (عمان).

● وفيما يلي قائمة بالكتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:

١ - أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بحث غير منشور، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٢ - ابن مجاهد شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٣ - تحقيق كتاب: « القواعد والإشارات في أصول القراءات »، للقاضي أحمد ابن عمر الحموي، دار القلم، دمشق (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

٤ - الصفوة من القواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٥ - تحقيق كتاب: « رد الانتقاد على الشافعي في اللغة » للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٦ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٧ - المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح، دار القلم، دمشق (١٤١١هـ/١٩٩١م).

٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية، دار السوادي، جدة (١٤١١هـ/١٩٩١م).

٩ - دراسة لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، كلية اللغة العربية بأبها (١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م).

● أمّا الكتب التربوية والفكرية الصادرة للدكتور بكار؛ فمنها الكتب التالية:

١ - فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دار المسلم، الرياض (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٣ - من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار المسلم، الرياض (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٤ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار المسلم، الرياض (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

٥ - مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٦ – من أجل شباب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمّان (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

٧ – حول التربية والتعليم، دار المسلم، الرياض (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

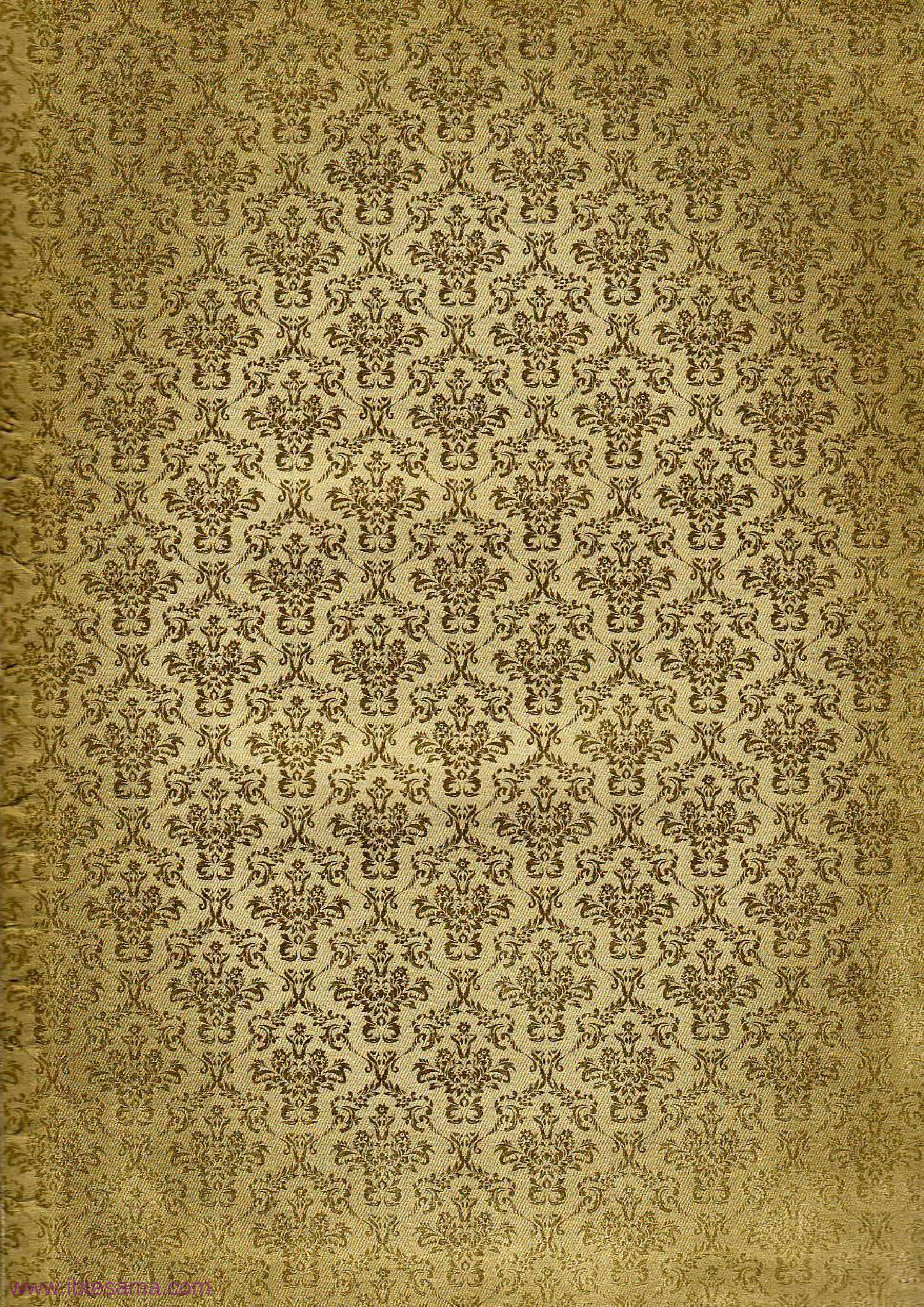
٨ – العولمة، دار الأعلام، عمّان (١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

٩ – القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق (١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م).

١٠ – العيش في الزمان الصعب، دار القلم، دمشق (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

●●●●

رقم الإيداع
٢٠١٢/٤٧٣٠
الترقيم الدولي I.S.B.N
978 - 977 - 214 - 030 - 5



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



هي.. هكذا

إنني أشعر أن لدى الناس اليوم تشوقًا عظيمًا لفهم الأسس والأطر والجذور والطبائع لكل ما يحيط بهم، وكل ما يتعاملون معه، وهذا التشوُّق في نظري هو تطور طبيعي؛ فالوعي الإنساني يقع في حيرة وارتباك شديد حيال هذا الطوفان الهائل من الأفكار والمعلومات والمعطيات المعرفية الوافدة من كل مكان، ولن يجد شيئًا يستند إليه في تحسين كفاءته أفضل من فهم السنن الربانية وطبائع الأشياء وطبائع التداعيات التي تربط بين الأحداث المختلفة.

وألاحظ إلى جانب هذا إقبالًا منقطع النظير على الاهتمام بالمقولات والعبارات القصيرة التي تنطوي على حكمة أو فكرة راقية أو قانون أخلاقي أو اجتماعي، وهذا يعبر في الحقيقة عن رغبة عميقة لدى الناس في الإمساك بشيء محدد يستخلصونه من طوفان المعرفة الجارف.

إن الهدف النهائي من وراء هذا الكتاب هو توفير أسس وأطر لفهم التاريخ والواقع والتنبؤ بالمستقبل في حالة شُحّ المعلومات وفي حالة اضطرابها وتقاطع بعضها مع بعض.

Dar-Alsalam Designs

الناشر



القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com




حصريات
مجلة
الابتسامة
حصريات فبراير 2013
www.ibtesama.com
PhotoMontager